

« ساعدت وزارة المعارف العراقية على نشر هذا الكتاب »

الصِّراع بين الموالى والعرب
وهو
بحث في حركة الموالى وتناجحهما في الخلافة الشيعية

تأليف
الدكتور
محمد بدیع شریف

١٩٥٤

الناشر
دار الكتاب العربي بمصر
محمد عبد المنعم

« ساعدت وزارة المعارف العراقية على نشر هذا الكتاب »

الْيَصْرُ عِزٌّ لِلْمَوَالِي وَالْعَرَبُ
وَهُوَ
بَحْثٌ فِي عَمَلِ الْمَوَالِي وَتَأْيِيدِهِمَا فِي الْحُلَافَةِ الشَّيْخِيَّةِ

تأليف

الدكتور
محمد بدیع شریف

١٩٥٤

الناشر
دار الكتاب العربي بمصر
محمد بي المنياوي

إهداء

إلى روح أبي الذي ألهمني اتباع الحق . . .

إلى كل مسلم يشع في قلبه نور الإيمان . . .

إلى كل عربي ينبض في عرقه دم العروبة . . .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

في مستهل القرن السابع الميلادي اندفع أبناء قلب الجزيرة العربية إلى ثغورها وطمعت كتائبهم تتدفق إلى أرجاء العالم فاتحة ومبشرة . ونزل أفلاذ أكبادهما سهول الرافدين منقذين ومحررين ، يحملون ديننا وحضارة أما الحضارة فهي ذخيرة هؤلاء الفاتحين في طبائعهم وعرفهم وتقاليدهم وثقافتهم وتاريخ وقائعهم ، يعبر عنها سلوكهم في الحياة ويحملها أديهم في شعره ونثره . وأما الدين فقد تسمم مكارم هذه الحضارة ونظم تكوين الأسرة ، وحدد الحقوق بين أفراد هذه الأسرة والعشيرة وبين الفرد وأخيه . وبين الإنسان وخالقه وتوج كل ذلك بالاعتراف بالحریات المطلقة الطبيعية لبني الإنسان في الإخاء والمساواة والعدل الاجتماعي وحرية الرأي وحرية الملك وغير ذلك على طراز منقطع النظير .

هذه عبارة واضحة موجزة في الحضارة التي حملتها كتائب القلب إلى الهلال الخصيب منها . وقد وقف قائد هذه الكتائب على سهول الرافدين مبهوراً بهذه المدنية القديمة التي غلبها على أمرها ثم صلى ركعتين شكرًا لله وتلا آية القرآن الكريم : كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قومًا آخرين . ولكن هذا القائد ما كان يعرف تبعة هذا الإرث وما كان يعلم أن قراع السيوف سوف يعقبه صرير الأقلام واشتجار الآراء والأفكار بين حضارته الجديدة وبين أخرى هي ذخيرة عقول الأمم المتعاقبة على هذه السهول ، وأن المظلوم وإن كان يحاول تقليد الغالب فهو يحاول التخلص منه

والرجوع إلى سابق عهده وأن كثيراً من النفوس التي ألقت شيئاً وطبعت عليه يصعب عليها أن تتحلل منه وتززع إلى جديد آخر غيره . ولذلك ما لبث الأمر برهة من الزمن حتى بدأت من المغلوبين طلائع الشار . لكن الغالب كان في فناء السن وعنفوان القوة .

كانت نتيجة هذا الغلب ظهور جماعة جديدة دخل فريق منها في هذا الدين الجديد عن عقيدة وإيمان . واعتنقه فريق آخر ظاهراً وظل يبطن خلاف ما يظهر ويخلص لعقيدته الأولى ويتمسك بثقافته وحضارته . ومن هنا بدأت حركة عنيفة اتخذت أشكالاً مختلفة ، ثم استقرت على تعبئة منظمة ، فقد رأى المغلوب أن السكيد لهذا الطارىء الجديد على الخيلة أنجع وأنه لا يمكنه القضاء على هذا المبدأ إلا بمعرفته ، فانكبوا على دراسة اللغة ودراسة ما ورد من الآثار والتعرف على عادات القوم وطبائعهم ، ونعم الفريقان بهذه المبادئ وباللغة وآدابها والفضائل الأصيلة واتخذ الفريق الخائق منها سلاحاً ليقوض به أركان هذا الغلب ويرجع بالناس إلى سالف العهد .

وانقضت السنون والاختلاط يشتد بين الغالب والمغلوب حتى تم لكثير من أبناء السبي في الحواضر والبوادي إتقان اللغة والتفقه في الحديث ودراسة القرآن والتطبع بطبائع الحاضرة والبادية . وتقدموا في مناصب الدولة والجيش ولقنوا عن آبائهم مآثر أسلافهم ، فأقبلوا على ترجمة ما أثر عن ماني ومزدك وما كتبه التاريخ في سير عظمائهم وملوكهم ، وما طوى في بطون الكتب من أدبهم وثقافتهم ووضع كل ذلك أمام ما جاءت به كتائب الجزيرة وجهها لوجه وصار خميرة قوية لإثارة الشك في العقيدة ، ومنبعاً لظهور البدع وانتشار المراء والجدل الفلسفي الذي نشأت عنه الفرق المتعددة ، وفي غمرة هذه الآراء نبطت جماعة غصبي أو هازلة عابثة فوضعت ما شاء لها الوضع في الشعر والتاريخ

والآداب ، وألفت كتب المثالب والطعن فكان من جراء ذلك كله ما كان من تشويه حقائق التاريخ وحقائق العلم وتوجيه الرواية والآداب وجهة خاصة هي إلى الهدم أقرب منها إلى أى بناء . وأخذ الناس المروى من التاريخ دون تحقيق وتمحيص وأقبلوا على الشعر يروونه ويلسجون على منواله واتخذوا مما أثر عن هؤلاء فى الفلسفة والاجتماع موضوعات للدرس يتدارسونها ويعارضون بها العقيدة والشريعة . وقد تبنت أسرة البرامكة تشجيع حركة النشر والتأليف وتشجيع الأدباء والمترجمين ، واستولت على شئون الدولة واحتجنت المناصب والأموال وطفقت تتصرف فى أمور المملكة تصرف المالك فى ملكه فأغضب ذلك كله الرشيد فعجل بأمرهم قبل أن يمشوا إليه ، واسكن ذلك لم يفت من عضد الموالى واستمروا على حركتهم حتى تم لهم الظفر اجتماعيا وأديبا ونبئت رءوس البدع فقهل حال الدولة ومالت إلى الزوال وتوج هذا الظفر بأسرة آل بويه الذين أسلموا الدولة إلى الخراب .

هكذا واجهت حضارة الجزيرة هذا الصراع العنيف الذى تولته المانوية والمزدكية ، لكنها صمدت أمامهما بما لهما من الجدة والقوة ، واستطاعت أن تهضم ما أخذته من حضارتى اليونان والرومان وما اقتبسته من عاوم الأمم الأخرى وأن تفرغها بلغتها الواضحة فمظهر جمالها وتبرزها للناس فيما أبدعته من هندسة وفن ، وابتكرته من علم فى الرياضات والكيمياء والصناعة والتقنين والتشريع ، حتى أصبح تشريعها أصلا من أصول شرائع الأمم المتحضرة ، فكانت حلقات الدرس العلنية تجابه تعاليم الباطنية ودور العلم تتوارى منها كهوف المانوية والمزدكية ونور الإيمان يطفىء هيب المجوسية الذى كان يؤججه ابن المقفع وبشار بن برد والبرامكة وأبو نواس وأبو العتاهية وأضرابهم ، وكانت أخبار الأصمعي وروايات المفضل الضبي وابن دريد ، تخفف من انتحال خلف الأحمر ،

ووضع حماد ، وهبتان أبي عبيدة على حقائق التاريخ . ومع ذلك كله فإن طبيعة المجتمع طبيعة الكائن الحي يدركها الوهن والانحطاط فإذا اختل جهاز الكائن الحي وهن العظم وتصلب الجذع وارتخت الأطراف في أداء أعمالها واصطلحت عليه العلل ، كذلك هي حضارات الأمم إذا ضعفت فيها عناصر القوة وتوارت الحقائق ، برزت دواعي البدع وطلعت السنة الجريز لتحل الكذب محل الصدق والمنحول مكان الأصل وتشرع تستغل السذج وقطعان البشر التي تسير بالأوهام وتميل إلى التحال من الصدق والنظام وتستجيب لكل ما يوقظ فيها غرائز النهم التي تخضم ثمار الفضيلة ، وتعود الأنفس تتأرجح في أراجيح الشك فيلذ للفرد أن يتنقل من عقيدة إلى عقيدة ومن مبدأ إلى آخر ويسخر بالتقاليد ولا يبالي بالنقص ، وتسود أحاديث خرافة على حقائق الواقع وتطرد نوابت البدع أصائل العقائد فيضطرب الرأي العام ويصبح ذلك الرأي هو المسيطر على تكوين الجهل بعد أن كان المفروض أن الدماغ المفكر هو الذي يسيطر على إنشاء الجهل وإبداع عناصر الحضارة . فإذا وصلت أمة من الأمم إلى مثل هذا الطور أو فسح أبناء الجهل مجالا في أن تكون أمة من الأمم في مثل هذا الطور صارت حضارتها تتأرجح بين اصبعي القدر ، فإذا هيأت لها الإرادة العليا مصلحاً مرشداً عزت عليه سبل الإصلاح وتسكأ كآ عليه دعاة الضلال ، فيشرع يصارع هؤلاء الضالين ويصارعونه حتى يأخذ الله بيده ويعينه أتباعه ونصراؤه .

إن الخرافات لا تقف في وجه الحقائق ، والأباطيل لا تثبت أمام التدقيق والتحقيق ، ولن يستطيع تبديد شوائب الخرافات وأخطاها البدع إلا العلماء المحققون الذين يصبرون على متابعة البحث ، حتى تصفو حقائق العلم والتاريخ وتخلص العقائد كما يخلص الذهب الإبريز من خبث الحديد ، عند ذلك تصبح الأمة تنظر إلى أمجادها وعقائدها بنظر العقل

لا يعيرون الهوى . والتاريخ والأدب يمدان أيديهما إلى المحققين الباحثين
مستنجدين لتخليصهما من هذه الشوائب التي لعبت بهما لعب النسكباء
بالهوى ، وتركت هذا الشرق يئن من جراحه المثخنه . وقد كنت وأنا
في دور الحضانه الدراسيه أستعرض حوادث هذا الشرق وأتقصى آثاره
وأتبين هفواته ونهضاته وكبواته ، فإذا أكثر ذلك يعود إلى هذه الحركة
« حركة الموالى » التي اتخذتها موضوع دراستى وعالجتها معالجة المدقق ،
وضربت لذلك الأمثال لأدلل على ما أقول ، وجعلت النص الذى أورده
من أمهات الكتب هو الذى ينطق بالحقائق ، فإن وفقت بعض التوفيق
إلى إبراز هذه الصورة الواضحة فالخير أردت ، وإن شاركنى القارىء
فى رأى فذلك ما أصبو إليه ، وإن خالفنى فى رأى فله رأى وحسبى أنى
أظهرت رغبة كانت تجول فى خاطرى ، فإن كنت أخطأت فلى أجر
واحد ، وإن أصبت فلى أجران . على أنى لا أكتفى القارىء بأن هذا
العمل لقى تشجيعاً من قبل علماء الاستشراق ، فقد وردتنى رسائلهم
يثنون بها على ما وصلت إليه فى إيضاح كثير مما كان غامضاً . ولا يفوتنى
التنويه بفضل الأستاذ « باول كالا » أستاذ الاستشراق فى جامعة « بن »
على الراين من مقاطعات ألمانيا ، فقد بدأت العمل معه بعد أن وافقت
وزارة المعارف على اسم الموضوع وقد كان اسمه أولاً « الصراع بين
الموالى والعرب » ثم حدث أن نرك هذا الأستاذ بلاده لاختلاف وجهة
نظره مع حكومته حينذاك ، فتبنى العمل بعده الأستاذ « هفنتج » ولكن
اندلاع هيب الحرب حال دون الاستمرار على العمل معه ، فسافرت إلى
سويسرة حيث قبل الأستاذ « رودلف جودى » أستاذ المشرقيات فى
جامعة « بازل » الموضوع كما قدمته بادىء ذى بدء ، ثم بدا له أن العنوان
ضخم ، يحتاج إلى سفر كبير ، وبحث طويل ، تحول ظروف هذه الحرب
الشعواء دون إعطاء المجال لتحقيقه . وطلب اختصار العنوان وجعله

« بحث في حركة الموالى في الخلافة الشرقية ، على أن نلم بالموضوع من أطرافه ليسكون صورة ناطقة لإيضاح هذه الحركة ومراميها وله الفضل والشكر في كثير مما جاء فقد كان عالماً محققاً ولم يرض أن يقرن اسمه مع اسمي في هذه الرسالة حتى قرأ نصوصها نصاً نصاً ، ورجع إلى مضانها وأرشدني إلى كثير من النصوص التي تؤيد الأقوال ، فكان بمثابة المعين والمؤيد ، وكان يقسو أحياناً فيشتد الجدل بيني وبينه حتى نرجع إلى أمهات الكتب والمصادر لتكون الحكم الفصل بيننا . وهكذا تم وضع الرسالة التي تقدمت بها للامتحان في منتصف عام ١٩٤١ ، ولم يتم طبعها إلا في عام ١٩٤٢ باللغة الألمانية بعد مراجعة ومعاودة بيني وبين الأستاذ . فجاءت على هذا الوضع الذي يراه القارىء بين يديه ولن أدعى أنني وفيت الموضوع حقه ، فهو موضوع واسع شائك ولكني لممت أطرافه ووضحت سبله وأشرت إلى مواطن القوة والضعف فيه ، وجعلت لمن يريد الاستزادة منه بعدى سبيلاً مهاداً واضح المعالم ، والله الموفق ، وله العصمة والسكال وحده .

الفصل الأول

العرب والفرس قبل الإسلام

قلب الجزيرة العربية هو ينبوع الدافق لموجات العرب في العراق والشام ومصر والبلاد الناطقة بالضاد ، وبهمنا من هذه الموجات في هذا البحث تلك التي نزلت الهلال الحبيب واستوطنته . فإن الغساسنة كونوا مملكة شرقي الشام^(١) ونزل المناذرة العراق فأسسوا مملكة الأحلاف في الحيرة والأنبار وكان ملوك الحيرة مرتبطين بعهد مع الأكاسرة يؤدون إليهم الخراج ويعينون من قبلهم^(٢) .

وكانت قبائل آياد تشتهر في بواحي الجزيرة وتصيف بالعراق وكانت لكثرتها تسمى طما لانطباقها على البلاد^(٣) ويحدثنا المؤرخون عن علاقة العرب بحيرانهم الفرس شتى الأحاديث فرة تكون صفاء ، وتارة حربا شعواء ، من ذلك ما فعله سابور ذو الأكتاف (٣١٠ - ٢٧٩) حيث غزا بلاد العرب فخور مياهم ، وأوقع بهم فلما غزاه ملك الروم أسرعت قبائل العرب فأوقعت بسابور وقتلته وغنمت أمواله ، وكان العرب يسمونه ذا الأكتاف لأنه كان لجوره يخلع كتفي عدوه إذا وقع في يده^(٤) . ويقول التبريزي في شرحه لمعلقة الحارث عند ذكر البيت (٤٩) : لم يكن في نزار حي أكثر من آياد ، ولا أحسن وجوها ولا أمد أجساما

(١) البعقوبي ج ١ ص ٢٥٣ الطبري ج ٢ ص ١٠٣٥

(٢) ط ج ٢ ص ٩٤٦

(٣) ابن خلدون ج ٢ ص ١٧٠

(٤) البعقوبي ج ١ ص ١٨٣ ، ابن خلدون ج ٢ ص ١٧٣

ولا أشد امتناعاً ، وكانوا لا يعطون الأتاوة واحداً من الملوك ، وقد هزموا جيوش كسرى أنوشروان ثلاث مرات . وكتبت قبائل بكر بن وائل في منتصف القرن السادس الميلادي صفحة جديدة في تاريخ العرب في واقعة ذي قار وكانوا ينشدون هذا البيت :

يا قوم طيبوا بالقتال نفساً أجدر يوم أن تغلوا الفرس^(١)
ومن الصفاء ما حدثوا به عن سيف بن ذي يزن استعان بملك الفرس على الأحباش فأمدّه بالجيوش واشترط عليه دفع الأتاوة فلما هزمت الحبشة بقيت اليمن مرتبطة مع الفرس حتى جاء الإسلام ففرض خدمة هذا الارتباط^(٢) .

العرب والفرس في صدر الإسلام

لما استتب الأمر لأبي بكر عني بالعراق والشام ، وجاءه المشني بن حارثة الشيباني فقال له ، أمرني علي من قبلي من قومي ، أقاتل من يليني من أهل فارس وأكفيك ناحيتي ، فكتب أبو بكر إلى خالد وهو مقيم باليامة أن سر إلى العراق حتى تدخلها وأبدأ بفرج الهند وهي الأبله وتألف أهل فارس ومن في ملكهم من الأمم^(٣) .

وطلب إلى المشني أن ينضم إلى لواء خالد فسار القائد أن يسير معهما النصر كلما التقيا بجيش من جيوش الفرس حتى وصلوا الحيرة ، فخلا خالد بكل صاحب قصر وقال :

« ويحكم ما أنتم ؟ .. أعرب فما تنقمون من العرب ؟ .. أو عجم فما تنقمون من الأنصاف والعدل ؟ .. » فقال له عدي : « بل عرب عاربة وأخرى

(١) ط ج ٢ ص ١٠٢٦

(٢) ط ج ٢ ص ٩٤٤ ، ٩٤٦ سيرة بن هشام ص ٤٢

(٣) ط ج ٤ ص ٢٠١٦ — ٢٠١٨

متعربة . فقال : « لو كنتم كما تقولون ! لم تحادونا وتكرهوا أمرنا » ،
فقال له عدى : « ليدلك على ما نقول ، أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية »
فقال : « صدقت . فاختاروا واحدة من ثلاث أن تدخلوا ديننا فلكم
مالنا وعليكم ما علينا ، إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمت في دياركم ، أو الجزية ،
أو المنابذة والمناجزة ، فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم
على الحياة » ، فلما قال عدى : « بل نعطيك الجزية » ، غضب خالد وقال :
« تبا لكم ! ويحكم ! إن الكفر فلاة مضلة فأحق العرب من سلكها
فلقيه دليلان أحدهما عربي فتركه واتخذ الأعمى دليلاً » (١) .

وتوجه المشى إلى عين التمر ففتحتها وقتل وسبي ، وبعث بالسبي إلى أبي بكر
فكان أول سبي قدم المدينة من العجم (٢) ثم وجه خالد إلى مرازمة أهل
فارس رسالة جاء فيها :

أما بعد : فالحمد لله الذى فض خدمتكم ، وسلب ملككم ووهن
كيدكم ، وأنه من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم
الذى له مالنا وعليه ما علينا ، فإذا جاءكم كتابى فابعثوا إلى بالرهن واعتقدوا
منى الذمة وإلا فوالله الذى لا إله غيره لأبعثن إليكم قوما يحبون الموت
كما تحبون الحياة .

فلما قرءوا الكتاب أخذوا يتعجبون (٣) .

ولما آل الأمر إلى عمر بن الخطاب وجه جلّ عنايته إلى العراق وقال :
والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب ، فلم يدع رئيساً ولا ذا رأى ولا
شريفاً ولا ذا سلطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به ، فرماهم بوجوه
الناس وغرهم (٤) . فعين أبا عبيد بن مسعود الثقيفي قائداً أعلى ولكنه

(٢) ط ج ٤ ص ٢٠٧٧

(١) ط ج ٤ ص ٢٠٤١

(٣) ط ج ٤ ص ٢٠٢٠

(٤) ط ج ٤ ص ٢٢٢٣ .

قتل في واقعة الجسر^(١) وتول القيادة بعده المشني فالتحم مع الفرس في واقعة البويب ، ثم أسند عمر القيادة العليا إلى سعد بن أبي وقاص وأمر المشني وجرير بن عبد الله أن يجتمعا إلى سعد فالتحم الفريقان بحرب فاضلة .
وقدم فرسان بني كسانة والأزد على عمر . فقال لهم : أي الوجوه أحب إليكم ؟ ... قالوا : الشام — أسلافنا — أسلافنا . فقال : قد كفيتموه العراق — العراق — ذروا بلدة قد قتل الله شوكتها وعددها (الروم) واستقبلوا جهاد قوم قد حووا فنون العيش (الفرس)^(٢) .

فلما انتهى العرب من واقعة البويب جلسوا يتحدثون فيما بينهم وأخذ المشني يكلمهم فقال : « قد قاتلت العرب والعجم في الجاهلية والإسلام ، والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشد على ألف من العرب ، ولمائة اليوم من العرب أشد على ألف من العجم . إن الله أذهب مصدوقتهم ووهن كيدهم فلا يروعنكم زهاء تروته ، ولا سواد ولا قسي فج ولا نبال طوال ، فإنهم أن أعجلوا عنها أو فقدوها كانوا كالبهائم ، أينما وجهتموها اتجهت^(٣) .

وجاء في كتاب أبي عبيدة بن الجراح إلى سعد : « إنك تقدم على أمة عددهم كبير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع ، وإن كان سهلا كؤود لبحوره وفيوضه ودأدئه إلا توافقوا غيضا من فيض ، وإذا لقيتم القوم أو واحدا منهم فأبدعوهم الشد والضرب وإياكم والمناظرة لجموعهم ، ولا يخدعنكم فإنهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم إلا أن تجاوروهم^(٤) .

ولما نزل العرب القادسية عجز أهل السواد إلى يزيد جرد بن شهر يار

(٢) ط ج ٤ ص ٢١٨٧

(٤) المصدر نفسه ص ٢٢٢١

(١) ط ٢١٨٤

(٣) ط ج ٤ ص ٢١٨٤

ملك العجم وأرساوا إليه أن الحرب قد نزوا القادسية بأمر ليس يشبه إلا الحرب ، فإن أبطأ عنا الغياث أعطيناهم بأيدينا .

فأرسى يزيدجرد إلى رستم وقال له : إني أريد أن أواجهك في هذا الوجه وإنما يعد للأمر على قدرها^(١) ثم قال يزيدجرد لرستم : « صف العرب منذ نزوا القادسية وصف لي العجم وما يلقون منهم » فقال رستم : « صفة ذئاب صادفت غرة من رعاء فأفسدت ، فقال ليس كذلك ، وإنما سألتك رجاء أن تعرف صفتهم فأقويك لتعمل على قدر ذلك فافهم عني »

« إنما مثلهم ومثل أهل فارس كمثل عقاب أوفى على جبل يأوى إليه الطير بالليل فتبيت في سفحه في أوكارها فلما أصبحت تجلت الطير فأبصرته يرقبها فإن شذ منها طائر اختطفه . فلما أبصرته الطير لم تنهض من مخافته وجعلت كلما شذ منها طائر اختطفه فلو نهضت نهضة واحدة رده . وأشد شيء يكون في ذلك أن تنجو كلها إلا واحداً وإن اختلفت لم تنهض فرقة إلا هلكت فهذا مثاهم ومثل الأعاجم فاعمل على قدر ذلك » .

وهكذا عرفت كل أمة من الأمم شدة بأس الأخرى وقوتها وأخذت تستعد لمناجزتها في حروب طاحنة وأسر وسبي وما إلى ذلك من نتائج تبعثها مثل هذه الحروب التي تقوم على نشر مبدأ أو تحقيق هدف معين .

المواقع الفاصلة بين العرب والفارس

موقعة القادسية — موقعة جلولاء — وموقعة نهاوند

جاء في كتاب أبي عبيدة بن الجراح إلى سعد : « وإذا انتهيت إلى القادسية ، والقادسية باب فارس في الجاهلية ، وهي أجمع تلك الأبواب

(١) ط ج ه ٢٢٤٨ . المصدر نفسه .

لما دلتهم ، وهو منزل رغيب خصب دونه قناطر ، وأنها بمنعة ، فتكون مسالحك على أنقابها ، ويكون الناس بين الحجر والمدر ، وعلى حافات الحجر وحافات المدر ، والجراخ بينهما . ثم ألزم مكانك فلا تهرجه ، فإنهم إن أحسوك أنفضتهم ورموك بجمعهم . . . فان أنتم صبرتم لعدوكم ، واحتسبتم لقتاله ، ونويتم الأمانة ، رجوت أن تقتصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبدا ، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم .

وإن تكن الأخرى كان الحجر في أدباركم ، فأنصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم ، ثم كنتم عليهم أجراً وبها أعلم . وكانوا عنها أجبن وبها أجهل ، حتى يأتي الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة . . . في هذا الموقع المنيع اشتبك جيش العرب بجيش الفرس بملحمة دامت ثلاث ليال ، أشدها الليلة الثالثة التي يقول فيها أنس بن الحليس :

شهدت ليلة الهريز فكان صليل الحديد فيها كصوت القيون . ليلتهم حتى الصباح أفرغ عليهم الصبر أفرأغا ، وبات مسعد بليلة لم يدت مثلها ، ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله قط ، وانقطعت الأصوات والأخبار عن رستم وسعد وأقبل سعد على الدعاء ، حتى إذا كان وجه الصبح وانتهى الناس أستدل بذلك على أنهم الأعلون وأن الغلبة لهم^(١) .

انهزم الفرس إلى دير قره ومنها إلى المدائن ، فتبعهم العرب حتى وصلوا إلى القصر الأبيض ، وقد تحصن به الفرس . فعرض عليهم العرب واحدة من ثلاثة : اختار الفرس منهن الجزية . ودخل سعد المدائن حتى انتهى إلى إيوان كسرى ، فصلى ركعتين ثم تلا الآية :

« كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين »^(٢) .

وأصيب من الفرس في موقعة جلولاء عدد عظيم إذ جللت قتلاهم الأرض . وسميت هذه الموقعة « جلولاء الوقيعة »^(١) . وأصاب المسلمون بها من النخبة أفضل ما أصابوا بالقادسية وأسروا ابنة كسرى .

ثم طلب العرب من عمر أن يأذن لهم في اتباعهم فأبى ، وقال : « لوددت أن بين السواد والجبل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص لهم ، حسبنا من الريف السواد . إني آثرت سلامة المسلمين على الأتقال »^(٢) .

ولما فتح المسلمون الأهواز قال : حسبنا لأهل البصرة سوادهم والأهواز ، وودت أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون إلينا منه ولا نصل إليهم »^(٣) .

أما في موقعة نهاوند فقد تكاثب العجم في أرضهم جميعاً ثم أجمعوا أن يوافوا نهاوند ويبرموا فيها أمورهم . فلما التقوا قلبوا الأمور وعرضوا المواقف وقالوا : « إن محمداً الذي جاء العرب بالدين لم يعرض غرضنا ، ثم ملكهم أبو بكر من بعده فلم يعرض غرض فارس ، إلا في غارة نعرض لهم فيها ، وإلا فيما يلي بلادهم من السواد . ثم ملك عمر من بعده فطال ملكه وعرض حتى تناولكم ، وانتقصكم السواد والأهواز وأوطأها ، ثم لم يرض حتى أتى أهل فارس والمملكة في عقر دارهم . وهو آتيكم إن لم تأتوه . فقد أخرج بيت مملكتكم واقتمح بلاد مملكتكم . وليس بمنته حتى تخرجوا من في بلادكم من جنوده وتقبضوا على هذين المصريين ، ثم تشغلوه في بلاده وقراره » .

وتعاهدوا وكتبوا بينهم على ذلك كتاباً وتماثوا عليه^(٤) ، وكتب سعد إلى عمر يخبره بمؤتمر العجم ، ولم يكتف بذلك بل ذهب إلى الخليفة

(١) ط ج ٥ ص ٢٤٤٣ (٢) المصدر نفسه ص ٢٤٦٤ (٣) ص ٣٥٤٥ .

(٤) ط ج ٥ ص ٢٦٠٥ — ٢٦٠٨ .

بنفسه ، فلما بلغ عبر الخبر ناذر في الناس ، الصلاة جامعة ! ! . فاجتمع الناس وقد وافاه سب . فقام عمر على المنبر وقال : « هذا يوم له ما بعده من الأيام ، ألا وإنني قد همت بأمر وإنني عارضه فاسمعوه ، ثم أخبروني وأوجزوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريجكم ، ولا تسكتروا ، ولا تطيلوا فتفشخ بكم الأمور ، ويلتوي عليكم الرأي .

أفمن الرأي أن أسير فيمن قبلي ومن قدرت عليه حتى أنزل منزلا وسطا بين هذين المصرين ، فاستنفرهم ثم أكون لهم ردها حتى يفتح الله عليهم . . . ؟ فقام عثمان وطليحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف في رجال من أهل الرأي فتكلموا كلاما فقالوا « لا نرى ذلك ولا يغيب عنهم رأيك ، وأشرك ، . وقالوا : « بإزائهم وجوه العرب وفرسانهم وأعلامهم ، ومن قد فض جموعهم ، وقتل ملوكهم ، وبأشر من حروبهم ما هو أعظم من هذه ، وإنما استأذنوك ولم يستصرخوك ، فأذن لهم ، واندب إليهم ، وادع لهم ، (وكان الذي ينتقد له الرأي إذا عرض عليه ، العباس) .

ثم قام علي بن أبي طالب فقال : « أصاب القوم — يا أمير المؤمنين — الرأي ، وفهموا ما كتب به إليك ، وإن هذا الأمر لم يكن نصره وخذلانه بكثرة ولا قلة ، هو دينه الذي أظهره ، وجنوده الذي أعزه وأيده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ ، فنهجن على موعود ، والله منجز وعده وناصر جنده ، ومكانك منهم مكان النظام من الخرز يجمعه ويمسكه ، فإن انحل تفرق ما فيه وذهب ثم لم يجتمع بخذافيره أبدا . والحرب اليوم وإن كانوا قليلا ، فهم كثير عزيز بالإسلام . فأقم واكتب إلى أهل الكوفة فهم أعلام العرب ورؤساؤهم ، ومن لم يحفل بمن هو أجمع وأجد وأحد من هؤلاء . فليأتهم الشان وليضم الثلاث . واكتب إلى أهل البصرة أن يدوهم ببعض من عندهم . فسر عمر بحسن رأيهم ، وأعجبه ذلك . وقام

سعد وقال : « يا أمير المؤمنين خفف عليك فإنهم إنما جمعوا لنقمة (١) » .
ثم قال عمر : فأشيروا على برجل أوله ذلك الشجر غدا . قالوا :
« أنت أفحص رأيا وأحسن مقدرة » ، قال : « أشيروا على به ، واجعلوه
عراقيا . قالوا : « يا أمير المؤمنين أنت أعلم بأهل العراق ، وجندك قد
وقدوا عليك ، ورأيهم وكلمتهم » . فقال : « والله لأولين أمرهم رجلا
ليكونن لأول الأسنة إذا لقيها غدا » . فقبل : من يا أمير المؤمنين ؟ . .
فقال : النعمان بن مقرن المزني ، قالوا : هو لها ، والنعمان يومئذ بالبصرة
ومعه قواد من قواد أهل الكوفة (٢) .

ولقد أجمع الفريقان على ملاقة كل صاحبه الملاقاة الأخيرة . فقد
قال أحد العرب في ذلك الحين : والله ما علمت من المسلمين أحدا يريد أن
يرجع إلى أهله حتى يقتل أو يظفر ، فحملنا حملة واحدة وثبتوا لنا فما كنا
نسمع إلا وقع الحديد ، حتى أصيب المسلمون مصائب عظيمة ، فلما رأوا
صبرنا وأنا لا نبرح العرصه ، انهزموا ، فجعل يقع الواحد فيقع عليه
سبعة (فقد كانوا مقرنين بالسلاسل) بعضهم على بعض في قياد فيقتلون
جميعا ، وجعل يعقرهم حرسك الحديد الذي وضعوه خلفهم .

فقال النعمان : « قدموا اللواء فجعلنا نقدم اللواء ونقتلهم ونهزمهم
فلما رأى أن الله استجاب له ، ورأى الفتح ، جاءته نشابة فأصابته
خاصرته فقتلته (٣) فكان أول قتيل ، وأخذ الراية أخوه سويد ، ففتح
الله على المسلمين ، ولم يكن للفرس جماعة بعد يومئذ ، فكان أهل كل مصر
يغزون عدوهم في بلادهم (٤) وجاء رسول مسلمة بن قيس — أحد قواد
العرب — إلى عمر ، فقال : « يا أمير المؤمنين سرنا حتى لقينا عدونا
من المشركين ، فدعوناهم إلى ما أمرتنا به : الإسلام فأبوا ، فدعوناهم إلى

(١) ط ج هـ ص ٢٦٠٩ .

(٢) ط ٢٦١٤ .

(٣) ط ج هـ ص ٢٦٠٤ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٦١٥ .

الخراج فأبوا ، فقاتلناهم فنصرنا الله عليهم . فقتلنا المقاتلة وسبيتنا الذرية
وجمعنا الرثة^(١) فلما قدم سبي نهاوند إلى المدينة جعل أبو لؤلؤة فيروز —
غلام المخيرة بن شعبة — لا يلقى منهم صغيراً إلا مسح رأسه وقال :
« أكل كبدي عمر^(٢) » .

اختلاط العناصر بعد هذا الفتح

وأثر هذا الاختلاط في التقاليد والمادات

بهذه المواقع الفاصلة التي مر ذكرها وغيرها مما لم نذكره انفتحت
ثغور فارس والهند وشرعت الجزيرة العربية تبعث بأفلاذ أكبادهـا من
جميع القبائل لنصرة الإيمان وتوطيد أكناف الخلافة ، ففتحوا الأقاليم
وغلبوا عليها الأمم والدول وانتشرت القبائل والبطون والأنخاذ :
قريش وكنانة ، وخزاعة وبنو أسد ، وهذيل وخطفان وسلم وهوازن ،
وثقيف وسعد بن بكر وعامر بن صعصعة ، ثم بنو تغلب بن وائل وكافة
شعوبهم من بني يشكر وبني حنيفة وبني عجل ، وبني ذهل بن شيبان ، وتيم
الله ، وابن النمر بن فاسط ، وعبد القيس ومن إليهم ، ثم الأنصار : الأوس
والخزرج وشعوب غسان وسائر قبائل الأزدي وهمدان وخثعم وبجيلة
ومذحج وكافة بطونها والنخع والأشعريين وبني الحرث بن كعب ، ولحي
وبطونها ، وكندة وملوكها وسبأ وقضاعة وجميع بطونها و.... الخ .

كل هؤلاء وغيرهم أنفقتهـم الجزيرة العربية وافترقوا على الثغور
البعيدة والأقطار البائنة ونزلوا بها حامية ومرابطين ، عصباً وفرادي^(٣)

(١) طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٢٠٢ (٢) ط ج ٥ ص ٢٦٣٢

(٣) اقرأ هذا مفصلاً في تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢

يحملون معهم فضائل الجزيرة من الشجاعة والمروءة والاعتزاز بالشرف والوفاء والصدق والإيمان ، وتناقل الملك فيهم من عنصر إلى عنصر ومن بيت إلى بيت واستفحل ملكهم في دولة بني أمية وبني العباس من بعدهم بالعراق ، وبلغوا من الترف والبذخ ما لم تبلغه دولة من دول العرب والعجم من قبلهم ، فاستخدموا العبيد ، واصطنعوا الموالى^(١) وأقبلوا على زواج الفارسيات وتسرى الإماء والاختلاط بالشعوب التي تقطن في البلاد المفتوحة وظهر هذا الأثر بينا في الأماكن المأهولة بالفرس ، فكان من ذلك ظهور عادات جديدة بين الأسر العربية خاصة منهم الأمراء وقواد الجيوش والبلاط ، والذين دخلت الزوجات والسراري الفارسيات بيوتهم . فقد حدثنا الطبري : أن دينار من أسرة آل قارن إحدى الأسر الفارسية المشهورة كان يختلف إلى الكوفة ، فقام مرة في الناس خطيباً وقال : يا معشر أهل الكوفة ، أنتم أول ما مررتم بنا كنتم خيار الناس ، فعمرتم بذلك زمن عمر وعثمان ، ثم تغيرتم ، وفشت فيكم خصال أربع : بخل وخب وغدر وضيق ، ولم يكن فيكم واحدة منهن ، فرمقتكم ، فإذا ذلك في مولدكم فعلت من أين أتيتم ، فإذا الخب من قبل النبط ، والبخل من قبل فارس ، والغدر من خراسان ، والضيق من قبل الأهواز .

وقد شعر العرب أنفسهم بأثر هذا الاختلاط وشكوا منه مر الشكوى ، قال الرياشي الشاعر :

إن أولاد السراري كثروا يا رب فينا

رب أدخلني بلادا لا أرى فيها هجينا^(٢)

وصور أبو العلاء المعري هذا الامتزاج تصويراً لطيفاً^(٣) وقال العالم الألماني « كريمر » في مقدمته لديوان أبي نواس : « دخلت بلاط الخليفة

(٢) الكامل للبرد ص ٣٠٢

(١) ابن خلدون ٦ ص ٣

(٣) لزوميات ص ٤٤٦

في بنسداد أغاني الفرس وأئمة الفرس وأخلاقهم وأعيادهم . وزاد على ذلك في كتابه « تاريخ الثقافة » ، ولقد كانت نتيجة هذا الاختلاط -- الذي حاول عمر الأول بكل جهده أن يحول دونه -- مع الشعوب المغاوبة والضيقة ، فإن الجنس الحاكم قد اكتسب كمية وفقدت كيفية ، لقد أضاع كثيراً من فضائل العشيقة ، بحيث تغير الجنس ، فأصبح الإنسان سريع القبول للعادات السيئة من الشعوب المحكومة ، ولكن الذي يجب أن يذكر هو ما اكتسبه العنصر الحاكم من الثقافات العلمية من اليونان والفرس^(١) .

عن تلك المواقع الفاصلة والفتح العظيم ، نشأ السبي والعتق والولاء والاختلاط والامتزاج والاختباس وتكونت طبقة الموالي التي سنفصل البحث فيها ، والتي ذكرت هذه المواقع تمهيداً لها ، فإن الذي لا يعرف موقعة القادسية وجولاء ونهاوند وغيرها ، يصعب عليه معرفة منشأ الموالي ولا يستطيع أن يقول إن فلاناً مولى فلان ، وفلاناً معتق لفلان .

(١) كريم : ديوان أبي نواس ص ١١ ، تاريخ الثقافة ج ٢ ص ١٥٥

الفصل الثاني

المولى . ومكانته في نظر العرب

تعريف المولى :

المولى له معان كثيرة في اللغة ، منها المولى بمعنى السيد ، أو الخليف ، أو ابن العم ، وكذلك من يسلم على يدك ويواليك ، أو هو المعتقد الذي ينتسب بنسبك ، فإذا اعتنق سيد عبده التحق هذا المعتقد بنسب السيد وتسمى باسم عشيرته كما تسمى بشار بن برد بالعقيلي ، وأبونواس بالحكمي وأبو العتاهية بالعنزي وقد وضع ولوزن معنى المولى في كتابه « الدولة العربية وسقوطها » فقال : الموالى أسرى حرب من أصل فارسي ، ويكونون طبقة وسطى بين أسيادهم العرب وبين الذين ليسوا عرباً فلا يؤدون جزية ، ولا خراجاً ، ولا يدونون في ديوان المقاتلة وليس لهم مرتب شهري ، ولو أنهم يحاربون مع أسيادهم الذين منوا عليهم بالعتق^(١) . وقد نشأ نوع آخر من الموالى سماهم ابن خلدون « موالى الاصطناع » ذلك بأن يختار الخليفة أو الأسر جماعة يلحقهم بنسبه كما فعل هرون الرشيد مع البرامكة والخراسانيين ، وكما فعل المعتصم مع الترك . ثم توسعت كلمة الموالى بعد ذلك بتوسع حركتهم فأطاعت على الذين دخلوا الإسلام من الفرس ، وعلى حركة هؤلاء في نطاق الخلافة الشرقية سيقتصر بحثنا .

مطابقة المولى في عبوة العرب :

تتبعه آراء العرب في الموالى وجهتين ، فالنبي والخلفاء الراشدون

وغيرهم من حملة العقيدة وناصريها لا يرون فرقاً بين المولى المسلم وأخيه العربي . فقد كان سلمان الفارسي مولى رسول الله . وكان علي بن طالب يقول : سلمان منا أهل البيت ^(١) . وقد سمع عمر بن الخطاب أن وفداً من الموالى والعرب جاء إلى عامله ، فأعطى العرب ومنع الموالى فكتب عمر : « أما بعد ، فحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم والسلام . » وفرض عمر للهزمزان في ألفين من العطاء كما جعل عطاء سلمان الفارسي أربعة آلاف درهم ^(٢) ، والذين أتقنوا اللغة وتفقهوا في الدين منهم كانوا يتمتعون بعطف أخوي اكتسابه بالإسلام فكانوا يفتنون ويقضون في المدن مثل سعيد بن جبير بالكوفة وسليمان بن يسار بمكة . وزيد ابن أسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن نجيع في المدينة ، وطاوس وابنه وابن منبه في اليمن . وعطاء بن عبد الله الخراساني في خراسان ومكحول بالشام ، والحكم بن عنبسة ، وعمار بن سلمان بالكوفة ومحمد بن سيرين بالبصرة ^(٣) .

أما أهل الوجهة الثانية فهم عامة العرب وهم الذين يعتدون بتقاليدهم وشمالهم ويعتزون بدمهم ويرون أن المولى لا يكون كفتاً للعربي لأن الدين لم يتمكن بعد من قلب المولى ولأن فيه صفات كثيرة لا تؤهله لذلك وكانوا يأخذون على الموالى أموراً لا تتفق مع مبادئ الإسلام منها : أنهم كانوا يتآمرون عليه ، ويخالفون قواعده باشتغالهم بشهادة الزور ، ومنها عدم الوفاء والخور ، والعجمة ، ويستدلون على هذه بحوادث وأما عدم تمكن الإسلام في قلوب كثير منهم فقد وضح بما جاء في حديث سياه إلى أبي موسى الأشعري ، فقد بعث سياه وفداً إلى أبي موسى فقالوا له : « إنا قد رغبتنا في دينكم على أن نقاتل معكم العجم ، ولا نقاتل

(٢) البلاذري فتوح ج ٢ ص ٤٥٧

(١) الكامل للمبرد ص ٧١٣

(٣) العقد ج ٢ ص ٧٦

معكم العرب ، وإن قاتلنا أحد من العرب منعتمونا منه ، وننزل حيث شئنا ، ونسكون فيمن شئنا منكم وتلحقونا بأشرف العطاء ، ويعقد لنا الأمير الذي هو فوقك بذلك . فقال موسى : دبل اسكم ما لنا وعليكم ما علينا .

قالوا لا نرضى ، فكتب أبو موسى إلى عمر بذلك ، فرد عليه بأن أعطهم ما سألوك ، فأجابهم أبو موسى ، وأسلموا ، ولكنهم لم يبرهنوا على إسلامهم ، فقد رأهم أبو موسى في حصار تستر غير جادين ، فقال سياه : « لسنا مثلكم في هذا الدين ولا بصائرنا كبصائركم » وليس لنا حرم نحامى عنهم ، ولم تلحقنا بأشرف العطاء « واننا سلاح وكراع » وأتم حنر . فكتب أبو موسى إلى عمر بذلك . فرد عليه أن ألحقهم على قدر البلاء في أفضل العطاء (١) .

ومن أمثلة عدم الوفاء ما اعتمد به الحجاج بن يوسف الثقفي على سعيد ابن جبير لنقضه عهداً في عنقه . فلما أتى به بعد انقضاء أمر ابن الأشعث قال له الحجاج : يا شقي بن كسير : أما قدمت الكوفة وليس يؤم بها إلا عربي ، فجعلت أمما ؟ قال : « بلى ! . . » قال : « أما وليتك القضاء فضج أهل الكوفة وقالوا لا يصلح القضاء إلا لعربي ؟ فاستقضيت أبا بردة بن موسى الأشعري وأمرته ألا يقطع أمراً دونك » ، قال : بلى ! قال : « أو ما جعلت في سمارى وكلهم من رموس العرب ؟ قال : بلى ! قال : « أو ما أعطيتك مائة ألف درهم لتفرقها في أهل الحاجة ثم لم أسألك عن شيء منها ! قال : بلى ! قال : « أفما كانت بيعة أمير المؤمنين عبد الملك في عنقك قبل ؟ والله لأقتلنك ، يا حرسى اضرب عنقه . » ونظر الحجاج فإذا جل من خرج مع عبد الرحمن من الفقهاء وغيرهم من الموالى ، فأحب

(١) طه ج ص ٢٥٦٢ . وزاد البلاذري في فتوح البلدان ص ٣٧٣ وإنما دخلنا في بدء أمرنا تعودا .

أن ينزلهم عن موضع الفصاحة والآداب ويخططهم بأهل القرى والأنباط
وقال : « إنما الموالي عالج عجم » وإنما أتى بهم من القرى فقراهم أولى بهم
فأمر بتسييرهم من الأمصار وإقرار العرب بها وأمر أن ينقش على يد كل
واحد منهم اسم قريته (١) .

وزاد ابن الأثير أن الحجاج لما أرسل الموالي إلى قراهم ، وضع عليهم
الجزية وهم إسلام كما كانت تؤخذ منهم وهم كفار (٢) . وجاء عنه أيضا :
أن مصعب بن الزبير أسر جماعة من أصحاب المختار كان فيهم العرب والموالي
فأمر بإطلاق العرب وقتل الموالي (٣) .

ومن الأمثلة التي وضعت من شأن الموالي في عيون العرب : أنهم
كانوا معروفين بشهادة الزور وأنها صفة من صفاتهم وفي ذلك يروى :
أن رجلا خاصم آخر في دين إلى أياس قاضي عمر بن عبد العزيز (٧٣٩ —
٤٠ م) ، (١٢١ — ٢٢ هـ) في البصرة فطلب منه البيعة فلم يأت به بمقنع .
فقال للطالب استجر وكيع بن أبي الأسود حتى يشهد لك . فإن إياسا
لا يجترأ على رد شهادته ففعل . فقال وكيع : « والله لأشهدن لك »
فان رد شهادتي لأعممته السيف . فلما طلع وكيع فهم إياس عنه . فأقعد
إلى جانبه ، ثم سأله عن حاجته ، فقال : « جئت شاهداً » فقال :
يا أبا المطرف أتشهد كما تفعل الموالي والعجم ؟ أنت تجل عن هذا ، فقال :
« والله لا أشهد (٤) » .

ومما يأخذه العرب على الموالي : العجمة والخور : فإن العرب لا يعترفون
للموالي بالفصاحة واللغة : من الشعبي بقوم من الموالي يتذاكرون النحو

(١) الكامل : ٢٨٥ . ابن خلكان طبع أوربا ص ٢٩٠ العقد الفريد ٢ ج ص ٧٥

(٢) ابن الأثير ج ٥ ص ٧٦ كريمر تاريخ الثقافة ج ٢ ص ١٥٦ .

(٣) ابن الأثير ج ٢ ص ٢٢٥ . (٤) الكامل ص ٢٥٤ .

فقال : إن أصل حتموه ، إنكم لأول من أفسده ، كما أنهم لا يعترفون لهم
بالشجاعة التي يسمى بها العرب ، قال المختار لإبراهيم بن الأشتر يوم
خازر^(١) : إن عامة جندك هؤلاء الخمراء ، وإن الحرب إن ضرستهم
هربوا ، فاحمل العرب على متون الخيل وأرجل الخمراء أمامهم^(٢) .
ومنها انفراد الموالي بالحرف :

فقد كان العرب يأنفون من الصناعة ، ويرون فيها حطة لا تتفق مع
القوة والرجولة ، ويرون أن الصناع والأكرّة من طبقة الخدم والعبيد
على حسب العرف والعادة الشائعة في ذلك الزمن . جاء في العقد الفريد
أن نقاشا حدث بين حمران مولى عثمان بن عفان وبين عامر بن عبد القيس ،
فقال حمران : « لا كثر الله فينا مثلك » ، فقال عمران : « بل كثر الله فينا
مثلك » ، فقليل له : أيدعو عليك وتدعو له ؟ قال نعم ! يكسحون طرقنا ،
ويخرزونا خفافنا ويحكوكون ثيابنا^(٣) .

لهذا ولأشباهه لم يكن الموالي مركز ممتاز في عيون عامة العرب ،
فقد كانوا لا يكتفونهم بالسكنى ، ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب ،
ولا يمشون في الصف معهم ولا يقدمونهم في المواكب ، ولا يتركونهم
يؤمنون في صلاة الجنائز إذا حضر أحد من العرب وإن كان الحاضر
غريبا^(٤) ، ولا يزوجون بناتهم إلى أعجمي ، لأنهم لا يرون ولد الأعجمية
كفوا لولد العربية . قال ابن الأعرابي : « غاب العجير غيبة إلى الشام
وجعل أمر ابنته إلى خالها وأمره أن يزوجها بكفء » ، فخطبها مولى لبني

(١) خازر نهر بين أربيل والموصل حدثت حوله واقعة بين عبد الله بن زياد وإبراهيم
بن مالك الأشتر النخعي وقتل يومئذ عبد الله بن زياد عام ٦٦ هـ (راجع معجم ياقوت
ج ٢ طبع أدربا .

(٢) السكامل ص ٢٦٤ .

(٣) عقد ج ٢ ص ٩٢ ، كريعر تاريخ الثقافة ج ٢ ص ١٥٦

(٤) عقد ج ٢ ص ٢٤ ، السكامل ج ١ ص ٢٦٢ ، كريعر تاريخ الثقافة ص ١٥٦

فلما كان ذا مال ، فرغبت أمها فيه ، وأمرت خال الصبية الموصل إلى
بأمرها أن يزوجها منه ففعل ، فلأذت الجارية بأخيها الفرزدق بن العجير
وبرجال من قومها وباين عم لها يقال له قيل فنهعوا جميعاً منها سوى
ابن عمها القليل ، فإنه ساعد أمها على ما أرادت ومنع منها الفرزدق ، فلما
قدم العجير أخبر بما جرى ، ففسخ النكاح وخلع ابنته من المولى ^(١) .

وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها ، وإنما
يخطبها إلى موالها ، فإن رضى زوج ، وإلا رد النكاح . فإن زوج الأب
والأخ بغير رأى مواله ففسخ النكاح وإن كان قد دخل بها كان سفاحاً
غير نكاح ^(٢) . وكانوا لا يعترفون بولد الأمة شقيقاً صحيحاً ، فقد جاء
أعرابي من بني العنبر إلى القاضي سوار بن عبد الله ، فقال : إن أبي مات
وتركني وأخاً لي وخط خطين في الأرض ، ثم قال وهجينا وخط ناحية ،
فكيف نقسم المال ؟ فقال القاضي : أههنا وارت غيركم ؟ قال : لا ! قال :
المال بينكم أثلاثاً . فقال الأعرابي : لا أحسبك فهمت عني ، إنه تركني
وأخى وهجينا لنا . فقال سوار : المال بينكم أثلاثاً ، قال الأعرابي :
أأخذ الهجين كما أخذ وكما يأخذ أخى ؟ قال : أجل ، فغضب الأعرابي .
ثم أقبل على سوار فقال : تعلم ! والله إنك قليل الخالات بالدهناء ، (قيل
إنه ليس بالدهناء أمة وإنما كان فيها الحرائر) فقال سوار : إذن لا يضير
ذلك عند الله شيئاً ^(٣) .

وزعم الأصمعي قال : سمعت أعرابياً يقول : « أترى هذه العجم تنكح
نساءنا في الجنة ؟ » قال : « أرى ذلك والله بالأعمال الصالحة » قال : توطأ
والله رقابنا قبل ذلك » ^(٤) .

(١) أغاني ج ١١ ص ١٥٤ ، كرم تاريخ الثقافة ج ٢ ص ١٥٥ كولد زهر —
الدراسات الإسلامية ج ١ ص ١٢٨ (٢) عقد ج ٢ ص ٧٤
(٣) الكامل ص ٢٥٦ ، العقد ج ٢ ص ٩٣
(٤) الكامل ج ١ ص ٧١١ — ٧١٣ .

وعما كان يحرى على ألسنة الناس في شأن الموالى ، ما جاء في شعر جبر حين نزل يقوم من بنى العنبر بن تيم ، فلم يقروه حتى اشترى منهم القرى . وانصرف وهو يقول :

يا مالك بن طريف ان بيعكم

رقد القرى مفسد للدين والحسب

قالوا نبيعكم بيعاً فقلت لهم

بيعوا الموالى واستحيوا من العرب^(١)

وما جاء عن نافع بن جبر أحد بنى نوفل بن عبد مناف . إذا مر عليه بالجنابة سأل عنها ، فإن قيل قرشى . قال : واقوماه ! وإن قيل عربى ، قال : وما دناه ! وإن قيل مولى أو أعجمى قال : اللهم عبادك تأخذ منهم من شئت وتدع من شئت^(٢) . هكذا كان أصحاب هذه الوجهة ومن إليهم ينظرون إلى الموالى ، وهكذا كانت دولة بنى أمية في أولها ، أى قبل أن يتولى فيها الأمر عمر بن عبد العزيز تستظهر في حروبها وولاية أعمالها برجال العرب ، مثل سعد بن أبي وقاص ، وزباد بن أبي سفيان والحجاج بن يوسف الثقفى ، والمهلب بن أبي صفرة ، وعبيد الله بن زياد وغيرهم^(٣) . وترى من شروط الوالى والقاضى التفقه فى الدين والقدرة على الإقناع والإفصاح فى اللغة ، لهذا لما عين نوح بن دراج قاضياً فى البصرة زمن عمر بن عبد العزيز هال أمره العرب ، ورموا فى ذلك خرقاً للعرف والعادة فأنشد شاعرهم :

إن القيامة فيما أحسب اقتربت إذا كان قاضيك نوح بن دراج
لو كان حياً له الحجاج ما بقيت صحيحة كفه من نقش حجاج

(١) الكامل ج ١ ص ٢٦٢ كريم تاريخ الثقافة ج ٢ ص ١٥٦ .

(٢) الكامل ج ١ ص ٧١١ — ٧١٣ .

(٣) مقدمة بن خلدون ص ٣٣٠ .

الفصل الثالث

مقاومة الموالي في عصر صدر الإسلام

اشتغال الخلفاء

وصل إلى المدينة عدد كبير من الأسرى ، وكان من بينهم الهرمزان . وهو قائد سياسي محنك ، سجن به من المدينة بلباسه وتاجه المسكل بالياقوت ، ومثل بين يدي عمر ، فأسلم وجعل له عمر مرتباً قدره ألفا درهم^(١) . وبقى رئيساً للموالي يستشيرونه ويجمعون إليه إذا حزنهم الأمر^(٢) .

وكان أبو لؤلؤة من أشد هؤلاء الموالي تعصبا لقومه ، وكلما مر به صبي من السبي مسح رأسه بيده وقال : أكل كبدي عمر^(٣) . كبر على هؤلاء الموالي أن يروا مقوض دولة الأكسرة ينعم بهذه القوة والجاه العريض والسلطان الواسع ، فإذا أرادوا أن ينتقموا من العرب فإن شخصية عمر هي الشخصية المكافئة للشار منها ، وهكذا أجمعوا أمرهم ووكلوا به أبا لؤلؤة ، فطعن عمر بخنجر ذي رأسين طعنات توفى على أثرها .

وقد روى أن عمر قال حين طعن ، من أصابني ؟ قالوا : أبو لؤلؤة . فقال : « قد نهيتكم أن تجلبوا علينا من عوجهم أحدا فعصبتهموني^(٤) » . وقد اختلفت آراء المؤرخين في أسباب اغتياله ، فمنهم من قال إنه مجرد

(٢) ط ج ٥ ص ٢٦٣٢

(٤) طبقات ج ٣ ص ٢٥٤

(١) ط ج ٥ ص ٢٥٥٢

(٣) ط ج ٥ ص ٢٦٣٢

عداء شخصي بين عمرو وبين أبي لؤلؤة (انظر في دائرة المعارف الإسلامية الجزء الثالث ص ١٠٦٣ تحت مادة عمر) .

ويرى ولھوزن أن اغتيال الخليفة ثار للفرس من العرب في شخصية عمر . وهو رأى أميل إليه ويقرب من الحقيقة وتؤيده الرواية الآتية : قال عبد الرحمن بن أبي بكر غداة طعن عمر ، « مررت على أبي لؤلؤة عشى أمس ومعه جفينة والهرمزان وهم نجي ، فلما رھقتهم . ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان ، نصابه في وسطه ، فانظروا بأى شيء قتل ، فلما جرى بالخنجر وجد كما وصفه عبد الرحمن . ولما سمع بذلك عبيد الله ابن عمر أمسك حتى توفي أبوه فاشتعل على سيفه وأتى الهرمزان فقتله (١) وقد أقنع رأى العلم بأن الأمر مدبر ، ذلك أنه لما أراد عثمان قصاص عبيد الله هاج عليه الناس ولم يروا حقاً في ذلك ، فوجد عثمان نفسه أمام مشكلة دعتة أن يقوم خطيباً فيهم ويقول : ألا إني ولي دم الهرمزان وقد وهبته لله ولعمر وتركته لدم عمر (٢) . وإن أتعرض لذكر حديث كعب الأحبار وتلبئه بمقتل عمر لأنى أراه من قبيل الأحاديث التي تصاغ حول الحوادث الجسام ، على أنى لا أبرىء هذا الرجل من المؤامرة .

كان اغتيال عمر بدء سلسلة لاغتيالات مقبلة ، فإن اغتيال عثمان لن تبرأ منه يد الموالي ، وهو حادث جليل اكتنفه الغموض وأحاطت به الأحاديث المتضاربة ، فإن جموع المتذمرين أقبلت من أرجاء المملكة ساقها الدعايات والأراجيف والدسائس ووضع الأخبار والأحاديث حتى تجمعت في عاصمة الخلافة فرق كثيرة من هذه الجموع لا تدري لماذا جاءت وما الذي دفعها إلى ذلك ، وحدث من جراء تجمعها إرباك

(١) ط ح ٥ — ٢٧٩٧ ، يعقوبى ج ٢ ص ١٨٨ ، طبقات ج ٣ ص ٢٥٨

(٢) يعقوبى ج ٢ ص ١٨٨

نشر الفوضى حتى لم يعد الأمر ناذماً يضبطك ، منا أصاب المرجنة ، غيلة فدخلوا على حين غرة كما يقول صاحب الانتصار^(١) على عثمان فتسللوا عن غير علم للمسلمين يدلنا على ذلك قول عبي بن أبي طالب حين بلغه ذلك : تبا لكم آخر الدهر ، وقوله للحسن ، يقتل أمير المؤمنين وأنت حاضر ، فأخبره أنه لم يعلم بذلك ، وأخذ المرجنون يديون الأخبار ويلفقون النهم ، لتغفوا آثار الجريمة . ولتأصق بأكبر عدد ممكن من الأبرياء وغيرهم كي يسهل إيقاف الفتن كما يحدث في مثل هذه الحوادث . ومهما يكن فإن هذه الفتنة العمياء التي ذهب في غمرتها خليفة تقي عادل ملأت الأموال في أيامه خزائن الدولة وبسط العدل رواقه وأترعت بيوتات قریش بالغنائم وضربت جنوده في الأرض تفتح وتفرض نفوذه على العالم حتى ركزت راياتها على حدود الصين وأبواب الغرب — فتنة دبرتها يد السبئية (أتباع عبد الله بن سبأ) ويد الموالي الناقمين المتربصين وعقدوها نية تقلب الدولة وتخضع استقرار الأمة . فهي ثورة فيها نقمة اليهود لخيبر وثأر الموالي للقادسية والمدائن وجلولاء . وهي حلقة مفرغة بدأت بعمر بن الخطاب وأخذت تلتقط كبار رجال الدعوة لتضعف شوكة الأمة وينفصح لها الطريق لتسلحك إلى هدفها وهو استئصال الحكم العربي من الوجود .

وقد بقي اغتيال علي بن أبي طالب غامضاً والتهمة فيه مقصورة على الخوارج حتى عثرنا على نص^(٢) مبين قلب صفحة التاريخ الأولى إلى الثانية وربط هذه الحوادث بعضها ببعض ، ووجد بين مراميها ومقاصدها . فقد دل هذا النص أن هذه المؤامرة التي ذهب ضحيتها الخليفة الرابع لا تختلف عن المؤامرة التي ذهب ضحيتها الخليفة الثاني فقد

(١) كتاب الانتصار لابن الحياط ص ٦١

(٢) السكامل للمبرد ص ٥١٩ — ٥٥٣

رأس تلك الهرمزان ودير هذه زاذويه فلم تكن إذن مجرد نقمة من الخوارج بل كانت مؤامرة مدبرة مقصودة من مرامها القضاء على ثلاث شخصيات من عظماء العرب هم علي ومعاوية وعمر بن العاص ، ولو تمت بكاملها ما نجا معاوية ولا عمرو .

مقاومة الموالى فى أيام بنى أمية

قلنا إن دولة بنى أمية كانت تستظهر فى حروبها وولاية أعمالها برجال العرب ، فاحفظ هذا الاستظهار قلوب الموالى . ونبين لهم أنهم لم يقتعدوا مكانا ظاهراً إلا إذا ثقفوا لغة الفاتح وتأدبوا بأدبه وفقهوا شريعته ، فاندفعوا إلى دراسة الأدب واللغة والقرآن والحديث ودراسة الأنساب خاصة ليضعوا على العرب من المثالب ما يريدون^(١) . واتخذوا من مبادئ الدين وسيلة تحلهم المحل الأرفع ، فقد أقر القرآن : أن المؤمنون إخوة « إنما المؤمنون إخوة » وأثبت النبي صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع أن الله أذهب عن الناس نخوة الجاهلية ونفرها بالآباء ، وأنهم كلهم لآدم وآدم من تراب^(٢) . ولم يكفهم هذا فقد بدعوا ينشرون مآثر آبائهم ويفخرون العرب ويكاثرونهم ويظهرون فضل العجم على العرب^(٣) ، ونظموا حركة قوية يمكن فيها خطر جسيم .

يقول وله وزن . لقد كانت للدولة الأموية شغل شاغل فى مقاومة المعارضة التى يقوم بها الموالى باسم الله وباسم الدين ضدهم ، وكان هذا الخطر الذى يظهر بين حين وآخر ضد الحكم الأموى آتياً من ناحية

(١) راجع الآمانى فى ترجمة على بن الجهم ج ٩ ص ١٠٤ ، المسمودى ج ٦ ص ١٧٣

١٥٥ ، أغانى ج ٢٠ ص ٧٨ ، ج ١٢ ص ١٥٦

(٣) العقد ج ٢ ص ٨٦ — ٨٧

(٢) عقد ج ٢ ص ٧٠ — ٧٧

(٣)

العراق : زلزال الخار الأكر في ذلك سر كذا اجتماعية لم تكن موجهة ضد
الأمويين فحسب بل ضد العرب عامة (١) .

رما ساعدتهم على حركتهم أن الشريعة الإسلامية تركت لهم التصرف
في أملاكهم ، وأموالهم — إذا دخلوا الإسلام — أو أعطوا الجزية كما يشاءون
ويختارون . وفي العراق دهاقين أثرياء كانوا يمدون ثوراتهم بالمال كما فعل
الدهقان فيروز في إمداد حركة ابن الأشعث ضد الحجاج ، فلما التقى جيش
الحجاج بجيش الموالي تحت إمرة ابن الأشعث عند روستاق آباد نادى
الحجاج في المعسكر : « من أتى برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم »
ففصل فيروز من الصف وصاح بالناس — من عرفني فقد اكنفي ، ومن
لم يعرفني فأنا فيروز حصين . وفد عرفتم مالي ووفائي . » من أتى برأس
الحجاج فله مائة ألف . فلما أتى به إلى الحجاج قال له : « أنت الجامع
في رأسي مائة ألف ؟ » قال — قد فعلت ، قال : « والله لأمهدنك ثم
لأحملنك . أين المال ؟ قال عندي فهل للحياة من سبيل ؟ » قال : لا !
قال : فأخرجني إلى الناس حتى أجمع المال ، نخرج فيروز فأحل الناس
من ودائعه ، وأعتق رقيقه وتصدق بماله ، ثم رد إلى الحجاج فقال : شأنك
فأمر الحجاج بقتله (٢) .

ولم يكثرث الأمويون بما كان يقوم به شعراء الموالي في إيقاظ
الروح وبعث الشعور في جماعتهم وتذكيرهم بأبجاد آبائهم كما كان يفعل
شاعرهم اسماعيل بن يسار (٣) فقد كان جريئاً إلى حد أنه أنشد شعراً
أمام هشام بن عبد الملك كله نخر وتذكير برجال الفرس قال :
إني وجدك ما عودي بذى خور عند الحفاظ ولا حوضي بمهدوم

(١) وله وزن الدولة العربية وسقوطها ص ١٩٢

(٢) الكامل ٦٥٦ ، كرمير تاريخ الثقافة ج ٢ ص ١٦١ .

(٣) أغاني ج ٤ ص ١٢٥ كرمير تاريخ الثقافة ص ٣٠

أصلى كريم ومجدي لا يقاس به ولى لسان كحد السيف مسموم
 جها جع سادة بليج مراربة جرد عشاق مساميح مضاعف
 من مثل كسرى وسابور الجنود معاً والهرمزان لفخسر أو لتعظيم
 هناك إن تسألى تنبى بأن لنا جرثومة قهرت عز الجرائم

فغضب هشام ثم شتمه وقال : « أعلیٰ تفخر وإیای تشدد قصيدة
 تمدح بها نفسك ، وأعلاج قومك ؟ » ، ولسكنه لم يعاقبه إلا عقاباً يسيراً
 ذلك أنه أمر بغطسه في البركة ثم أخرج ونفى إلى الحجاز .

وكان كثير من هؤلاء الموالي يظهر ون الحب ويتقربون من الأمويين
 ولسكنهم يضمرون في مكنتهم الغدر ، فقد حكى عن اسماعيل بن يسار
 أنه حجب عن الدخول على الغمر بن يزيد فجعل يبكي فلما سأله الغمر
 — مالك يا أبا فائدة تبكي ؟ قال — وكيف لا أبكي وأنا على مروانية .
 ومروانية أبي أحجب عنك . وما زال يبكي حتى وصله الغمر بحميلة .
 وخرج من عنده فلهظه رجل فقال له : أخبرني « ويلك يا إسماعيل » أي
 مروانية لك ولأبيك ؟ قال بغضنا إياهم فأسرته طالق إن لم يكن يلعب
 مروان وآله كل يوم مكان التسبيح وإن لم يكن أبوه حضره الموت فقتل
 له : قل لا إله إلا الله ، فقال : لعن الله مروان تقرباً بذلك إلى الله وإبداله
 من التوحيد وإقامته مقامه (١) .

وزاد في ذلك أن عمر بن عبد العزيز سار بهم سيرة العدل وسأواهم
 بالعرب وأطلق يدهم فتمكنوا أن ينفذوا خططهم التي اختطوها حسبما
 يريدون . وكانوا يستثمرون كل خلاف يقع بين الأحزاب العربية وبين
 رؤسائهم . وقد فطن لذلك عبد الملك . فكان يقول : إذا كان الفتق من
 سجستان فليس في ذلك بأس ، إنما كنا نتخوف إذا كان من خراسان ،

زنا كان نصر بن يسار (والى يزيد بن الوليد فى خراسان) أشد رجلاً .
بنى أمية حذراً . كان يقول للسكرماني : يا أبا عبي ، لقد لججت وأخاف
أن يتفاقم الأمر فتملك جميعاً وتشمت بنا هذه الأعاجم ^(١) . وكتب يحذر
عرب خراسان من العجم ومما جاء فى قوله :

قوما يدينون ديناً ما سمعت به عن الرسول ولا جاءت به الكتب
فمن يكن سائلي عن أصل دينهم فإن دينهم أن تقتل العرب ^(٢)
وكان الموالى يغنون كل ثورة من شأنها إضعاف المملكة . فلم يترددوا
فى اتباع المختار ضد ابن الزبير ، والانضمام إلى عبد الرحمن بن الأشعث
ضد الحجاج ومعاضدة العباسيين ضد الأمويين ، وقد تجاوزوا هذا إلى
أكثر منه واستمروا على هذه الخطة حتى بعد انتصار العباسيين فإنهم لم
يترددوا فى بذر بدور الشقاق بين أعضاء الأسرة نفسها فهم الذين ساعدوا
الرشيد على أخيه الهادى والمأمون على أخيه الأمين .

وكانوا كثيراً ما يتخذون أهل البيت ستاراً لدعوتهم ويثورون
لأجلهم قال نعيم بن حازم للفضل بن سهل ، وكان جالساً بين يدى المأمون
حين أخذ الفضل يحسن نقل الخلافة من العباسيين إلى العلويين :
« إنك إنما تريد أن تزيل الملك عن ولد العباس إلى ولد على ثم تحتال
عليهم ، ثم تصير الملك كسرويا ^(٣) .

الفصل الرابع

حركة الموالى فى قيام الدولة العباسية

أبو مسلم — البرامكة

فى سنة ١٢٦ هـ ، ٧٤٤ م وجه إبراهيم بن محمد الإمام أبا هاشم بكير ابن ماهان إلى خراسان ومعه السيرة والوصية ، فقدم مرو وجمع فيها النقباء ومن بها من الدعوة ، ونعى لهم الإمام محمد بن على ، ودعاهم إلى إبراهيم فقبلوا الدعوة^(١) وفى سنة ١٢٩ جاء أبو مسلم إلى خراسان مزودا بسلطة مطلقة من إبراهيم الإمام ، فقد زعم أن إبراهيم حملة الأمر وقال له : هـ إنك رجل منا أهل البيت ، فاحتفظ وصيتى وانظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم ، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم ، وانظر هذا الحى من ربيعة فاتهمهم فى أمرهم ، وانظر هذا الحى من مضر ، فإنهم العدو القريب الدار ، فاقتل من شككت فى أمره ومن كان فى أمره شبهة ، ومن وقع فى نفسك منه شىء ، وإن استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل^(٢) . والتناقض فى هذه الوصية يؤيد انتحائها ، وشدة لطلبها توضح شدة الحقد الكامن فى صدور الموالى .

ولكن أبا مسلم ظن يفتل بين الذروة والغارب حتى استطاع أن يضرب نصرا بالكرمانى ، وأن يدخل مرو وظافرا وأن يعلن دعوته على الملأ . ثم أراد أن يميز حزبه فابتدع بدعا جديدة — اجتماعية دينية ، منها — إيقاد النيران^(٣) عند اجتماع القوم وهى أثر من آثار المجوس .

(٢) ط ج ٢ ص ١٩٣٧

(١) ط ج ٣ ص ١٨٦٩

(٣) ط ج ٣ ص ١٩٥٤

وكانت العادة في الإسلام أن ينادى الإمام : « الصلاة جامعة » فيجتمع الناس فيصلي بهم ركعتين ، ثم يوضع لهم ما يريد . « وغير أبو مسلم صلاة الجمعة والعيدين فأمر الإمام أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان وبلا إقامة ، وكان بنو أمية يبدؤون بالخطبة والأذان ثم الصلاة بالإقامة لصلاة يوم الجمعة . ويخطبون على المنابر جاوساً في الجمعة والأعياد . وأمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يكبر تكبيرات تباعاً ، ثم يقرأ ويركع بالسابعة ويكبر في الركعة الثانية خمس تكبيرات تباعاً ثم يقرأ ويركع بالسادسة ويفتح الخطبة بالتكبير ويختمها بالقرآن ، وكان بنو أمية يكبرون في الركعة الأولى أربع تكبيرات يوم العيد وفي الثانية ثلاث تكبيرات^(١) ثم صنع راية خاصة سماها السحاب ، وسمى الرمح الذي يحملها الظل ، وتأويل هذين الاسمين : أن السحاب يطبق الأرض وكذلك دعوة بني العباس . وتأويل الظل أن الأرض لا تخلو من الظل أبداً . وكذلك لا تخلو من خليفة عباسي أبد الدهر^(٢) .

اعتمد العباسيون على الموالي في حركتهم حتى تم لهم الظفر ، وانتقلت الخلافة من بني أمية إلى بني العباس : من بيت ابن عم إلى بيت ابن عمه . ولكن هذا الانتقال لم يرض عامة العرب ، فإنه في نظر التاريخ لم يكن غير فوز للموالي على العرب . يقول الجاحظ : « إن دولة بني العباس أعجمية خراسانية ودولة بني مروان عربية أعرابية^(٣) » .

ويقول أبو حمزة الأصفهاني في كتابه (تاريخ سني ملوك الأرض والانباء) : « إن الذين قاموا بنقل الدولة إلى بني العباس وبني أمية . عجم خراسان بأفنائهم جندهم من العرب^(٤) » . ويقول بيكر : إن هذه الحرب في الحقيقة حرب موجهة ضد البيت الأموي . وإن انتصار العباسيين على الأمويين انتصار الفرس على العرب^(٥) .

(٢) ط ج ٣ ص ١٩٥٤

(١) ط ج ٣ ص ١٩٥٦

(٣) البيان ج ٣ ص ٢٠٦ (٤) ص ٢١٦ (٥) الدراسات الإسلامية ج ١ ص ١١١

ويقول محمد كرد علي في كتابه : الإسلام والحضارة العربية : « إن الدولة العباسية دولة فارسية دخلها تعوير بالإسلام » .

رأى أبو مسلم أن الوقت حان لانفصال الفرس عن العرب ورأى أن جند الفرس يستطيعون أن يجيبوا رغبته ، فأجمع على خلاف المنصور بعد أن انتصر على عمه عبد الله بن علي ، فاجتاز طريق خراسان ، فلما علم المنصور بذلك ، عرف في نفسه الشر ، فخرج إليه ونزل المدائن وكتب إلى أبي مسلم : « إني قد أردت مذاكرتك بأشياء لم يحتفلها الكتاب فأقبل فإن مقامك عندنا قليل » ، فقرأ الكتاب رمضى على حاله ، ثم ولاه مصر والشام فأبى^(١) . وما زال يتلطف إليه ويرسل دهاة الرسل حتى أقنعه ، فلما ظفر به ، أمر بقتله ثم خرج خطيب بالناس :

« إن أبا مسلم بايعنا وبايع لنا على أنه من نكث بيعتنا فقد أباح دمه لنا ، ثم نكث بيعته فحكمتنا عليه^(٢) » . فاضطربت خراسان جميعها لقتله ٣ وظهرت الفرق الدينية الفريية عن الإسلام ، التي سنبحث عنها في الفصول التالية^(٣) .

البرامكة

اتصلت هذه الأسرة بالبيت العباسي اتصالاً وثيقاً وهي من الأسر الفارسية القديمة ، فلها ولد الرشيد أرضعته أم الفضل مزوجة يحيى ابن خالد البرمكي ، فتربى الرشيد بين يدي يحيى وفي حجر زوجته ، وكان الرشيد يدعوهُ أبى^(٤) وقد اتخذ من البرامكة من الوسائل أكثرها لجعل

(١) ط ج ١ ص ١٠٤ ، المسعودي ج ٦ ص ١٧٨

(٢) المسعودي ج ٦ ص ١٨٦ ، ط ج ١ ص ١١٦

(٣) ط ج ١ ص ١١٩

(٤) ط ج ١ ص ٥٩٩ مقدمة ابن خلدون ص ٢٠

مستقبل الخلافة في يد هرون ، وأخذوا يقرفون بين الشعب والهادي ، ويوسعون شقة الخلاف بين الأخ وأخيه^(١) حتى تم لهم الظفر بموت الهادي ، وانتقال الخلافة إلى الرشيد . جاء يحيى بن خالد إلى الرشيد فقال له : « قم يا أمير المؤمنين » ، قال له الرشيد : « كم تروني إيجاباً منك بخلافتي ، وأنت تعلم حالى عند هذا الرجل ، فإن بلغه هذا فما تكون حالى ؟ فقال له يحيى : هذا الحراني وزير موسى ، وهذا خاتمه . فلما قعد هرون للخلافة دعا يحيى بن خالد بن برمك فقلده الوزارة وقال له : قد قلدتك أمر الدولة ، وأخرجته من عنقي إليك ، فاحكم في ذلك بما ترى ، ودفع إليه خاتم الخلافة^(٢) ، وبذلك تم انتقال سلطان الحكم من يد العرب إلى يد العجم ، وبقي للعرب الاسم فقط . أخذ البرامكة يتغلغلون في البلاط ، فاستبدوا بالملك . واحتججوا أموال الجبائية ، وشغلوا مراتب الدولة بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عن سواهم من وزارة وكتابة ، وقيادة وحجابة . يقال إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب قلم وصاحب سيف . وكبح العرب عن التطاول للولايات ، فصارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة ، وبني سهل وبني نوبخت وبني طاهر^(٣) وقد وجه يحيى ولده الفضل والياً على خراسان فاتخذ بها جنداً من العجم سماهم العباسية وجعل ولاءهم لبني العباس — وقد بلغت عدتهم خمسمائة ألف رجل جاء إلى بغداد منهم عشرون ألفاً^(٤) . وكان هؤلاء البرامكة بما أوتوا من دهاء ، يظهرون الإسلام ويضمرون في مكشورتهم له الكيد . وكانوا كلهم على دين ماني إلا محمد بن خالد^(٥) .

(١) الجهنياري ص ٢٠٨ كريم ج ٢ ص ٦٣

(٢) الجهنياري ص ٢١١ ، الماوردى ذكره كرد علي في كتاب الإسلام والحضارة

العربية ج ٢ ص ٢١١ ، ط ج ٣ ص ٦٠٣ وما بعدها .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٨ ط ج ١ ص ٦٣٠

(٤) ص ج ١ ص ٦٣١ (٥) القهرست ص ٣٣٨

البرامكة ورواية التاريخ والأدب

والانتحال ووضع الكتب والترجمة والنشر

تمكن البرامكة من تدوير شئون المملكة والتصرف في أحوالها ، ولم يكتفوا بهذا القدر من السلطان ، فاندفعوا إلى توجيه الحياة وجهة خاصة ، وأعانوا لتنفيذ خططهم جماعة من الأدباء والرواة والعلماء والمترجمين والشعراء الذين تفصح أعمالهم عن أهداف هذه الخطة ، وكان من أبرزهم أبو عبيدة وعلان الشعوبى في رواية التاريخ ووضع الأخبار . وسماه الراوية وخلف الأسم في رواية الشعر والانتحال ، وأبان بن عبد الحميد اللاحق والفضل بن سهل في الترجمة عن الفارسية ، وسعيد بن البختكان ، وسهل ابن هرون من الناقين على العرب ، والواضعين الكتب عليهم ، ومن شعراء البرامكة الذين يذودون بهم عن أنفسهم الفضل بن عبد الصمد المعروف بالرقاشى وهو مولى رقاش . ولعل التعريف بمن ذكر يعطينا صورة تؤيد ما ذهبنا إليه في شأن هذه الناحية من مقاومة الموالى .

رواة التاريخ وواضعو الأخبار

١ - أبو عبيدة

من موالى تيم قريش ، فارسى الأصل ، أبوه على دين اليهود ، وجدده مجوسى ، جمع إلى ثقافة العرب ثقافة الفرس وثقافة اليهود ، ونال حظوة فى بلاط الخليفة بمساعدة المولى إسحق الموصلى ، حيث وصفه للرشيد بالثقة والصدق ، والسماحة ووضع من الأصمعى وثلبه ، وكشف للرشيد معانيه ، فطرد الأصمعى وحل أبو عبيدة محله^(١) . كان أبو عبيدة متعصباً

(١) أغانى ج ٥ ص ١٠٧

على العرب ببعضهم^(١) ألف كتاب المثالب والطعن على العرب ، منها :
كتاب المثالب في قبيلة باندلة وآخر في المثالب على وجه المسموم^(٢) . وفي
هذا الكتاب طعن على بعض أسباب النبي^(٣) .

وطعته أكثره اختراع وبتان ، كما رد عليه ابن دريد في كتاب
الاشتقاق عند ما طعن في فدي بن أعبد وكان من عظماء بني سعد في
الجاهلية وله عقب بالبصرة والبادية^(٤) . وقد قهر أبو عبيدة نفسه على
مثالب العرب ووقف ضد كل من يفخر بنفسه^(٥) . وله كتاب معروف
اسمه كتاب الواحدة في مناقب العرب ومثالبها وضع فيه كثيراً من
الحوادث بين قبائل العرب وعزاه إلى الشعوبيين^(٦) . يقول كولد تشير :
إن أبا عبيدة مولع بوضع الأخبار ، وضع الأحاديث التي تظهر خلاف
القبائل العربية فيما بينها وتهاجها ، وتشاتمها بقبيح الكلام ومقذع الهجاء^(٧)
ويقول المسعودي : إن لأبي عبيدة مصنفات في أيام العرب وغيرها ،
منها كتاب المثالب يذكر فيه أنساب العرب وفسادها ويرميهم بما ليس
من السياسة ذكره ولا يحسن وصفه^(٨) . وألف كتاباً في فضائل العجم
وكان يفخر بهم ويقول : يعجبني قول أبي نواس .

بقينا على كسرى سماء مدامة مكلة حافتهم ————— بنجوم
فلو رد في كسر بن ساسان روحه إذن لاصطفاني دون كل نديم^(٩)
وألف كتاباً آخر سماه عمر كسرى ، وآخر سماه كتاب التاج خاصاً

(١) ابن قتيبة ص ٢٦٩

(٢) الفهرست لابن الدليم ص ٥٣ ، ٥٤ ، ٢٧ ، ٢ ، ٤ ، المسعودي ج ٧ ص ٨٠

(٣) الفهرست ص ٥٣ (٤) الاشتقاق لابن دريد ص ١٥٣

(٥) الأغاني ج ١١ ص ٨٦

(٦) المسعودي ج ٥ ص ٤٨ (٧) كولد تشير الدراسات الحميرية ج ١ ص ٢٠٢

(٨) المسعودي ج ٧ ص ٨٠

(٩) أخبار أبي نواس ص ٥٧

بالفرس^(١) ، وكان إذا رأى شيئاً يشرف العرب أرجعه إلى الفرس ، فإذا رأى قصيدة فائقة أو حكاية متممة قال : إن العرب قلدوا الفرس بها^(٢) . وقد بالغ في ذلك حتى جعل كثير آ من الأخلاق العربية وحياتهم راجعة إلى الفرس ، ويحمل الفضل في تقدم الأدب العربي راجعاً إلى الموالي بما ترجموه من آداب آبائهم ، مثل أبان بن عبد الحميد ونخاله الكبير الفضل ابن عيسى وولده عبد الصمد (راجع الميداني ج ١ ص ٣٦٠) ، يقول أبو عبيدة كان آباء هؤلاء فصحاء في بلاط خراسان ، فلما وقعوا في أسر العرب أخذت تجري في عروقهم تلك المواهب فأصبحوا خطباء في العربية كما كانوا اسناً في الفارسية (راجع البيان والتبيين) يقول كولد تسيهر ، وهكذا يريد أبو عبيدة أن يقطاف كل وردة في تاج الفخر العربي^(٣) ، وعن أبي عبيدة هذا انتشرت الروايات في كتب التاريخ والأدب واعتمد عليه كثير من المؤرخين والمتفقيين باللغة ، فكان الطبري يروي عنه أخبار القبائل العربية^(٤) ، ونجد أمثلة واضحة من اختراعه على العرب في مثالهم في كتاب أنساب الأشراف للبلاذري^(٥) ، وعلى هذا اتخذ البحث في اللغة العربية والأدب العربي وأخبارهما شكلين مختلفين ، أبو عبيدة وأضرابه يضعون في ظل الموالي ما يشاءون ، والأصمعي وأمثاله يذكرون ما يرد إليهم من منابعه^(٦) .

مات هذا المولى العالم الراوية المحدث عام ستة عشر ومائتين ، وقيل ستة وقيل سنة ثمان أو تسع بعد المائتين ، ويقال إنه ولد سنة عشر بعد

(١) كولد تسيهر ص ١٩٧ ، المسعودي ج ٢ ص ٢٣٨ .

(٢) كولد تسيهر ص ١٩٧ ، الكامل ص ٣٥١ .

(٣) الدراسات المحمدية ص ١٩٩ . (٤) ص ٢٥٠ .

(٥) انظر ص ١٥٧ من هذا الكتاب نفسه .

(٦) راجع ابن خلكان رقم ٣٨٩ ج ٤ ص ٨٨ وانظر السيوطي في المزهر ج ١ ص ٢٠٢ .

المسألة وهو استتلاف لم ينسحق وجهه التواب فيه ، ودفن ولم يحضر جنازته أحد لأنه لم يسلم منه شريف ولا غيره^(١) .

٢ - علان أو غيلان

ومن رواة التاريخ وواضعي الأخبار علان أو غيلان ينسب إلى بيوتات العجم ، يبهض العرب ، كان منقطعاً إلى البراهمة ، نسخ للرشيد والمأمون في بيت الحكمة ، ووضع كتاب المثالب الذي هتك فيه العرب ، وأظهر مثالبها ، واستقصى فيه جميع القبائل خاصة مثالب قريش^(٢) .

يقول الألويسي : ثم نشأ غيلان للشعوبي وكان زنديقاً ثنوياً ، فعمل لطاهر بن الحسين كتاباً خارجاً عن الإسلام بدأ فيه بمثالب بني هاشم ، وذكر مناصحهم وأمهاتهم ثم بطون قريش ، ثم سائر العرب ونسب إليهم كل زور ووضع عليهم كل إفك وبهتان^(٣) ، ومن أمثلة ذلك ما شتم به آل منقر قال عنهم : إنهم قوم غدر يقال لهم الكوادن ، ويلقبون أيضاً أعراف البغال ، وهم أسوأ خلق الله^(٤) ، وفي ديوان الحماسة ما ثبت غير ذلك . قال سيدهم قيس بن عاصم :

إني امرؤ لا يعتري خلقي دنس يفنده ولا أفن
من منقر في بيت مكرمة والفضن ينبت حوله الخفن
خطباء حين يقوم قائلهم بيض الوجوه مصاقع لسن
لا يفطنون لعيب جارهم وهم لحفظ جوارهم فطن^(٥)
وسيد منقر هذا لم يسلم من لسان أبي عبيدة فقد وضع عليه مثالا
في كتاب الأمثال الميداني وزخرفه بحكاية^(٦) .

(١) الفهرست ص ٥٣ .

(٢) فهرست ص ١٠٥ الأغاني ج ١١ ص ١٧٢ وقد ذكر ذلك كولد تسيهر ص ٢٠٦

وما بعدها . (٣) بلوغ الأرب ج ١ ص ١٦٠ .

(٤) أغاني ج ١٢ ص ١٥٦ . (٥) حماسة ص ٦٩٥ .

(٦) الميداني ج ٢ ص ٩ راجع البقد ج ١ ص ٣١ ، أغاني ج ٣ ص ١٩ .

رواة الأدب ورواضعو الشعر

١ — حماد الراوية

يقال عن حماد هذا إنه ابن سابور بن المبارك بن عبيد ، وكان سابور يكنى أبا ليلى من سبي الديلم^(١) وجاء في المزهر إنه حماد بن هرم بن الديلمي . ومهما يكن فهو الراوية المشهور الذى روى كثير آ من أشعار العرب وأهم المعلقات ، قال أبو حاتم كان بالكوفة جماعة من رواة الشعر مثل حماد الراوية وغيره ، وكانوا يضعون الشعر ويقتنون المصنوع منه وينسبونه إلى غير أهله . قال الأصمعي : كل شئ فى أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا شيئاً سمعناه عن أبي عمرو بن العلاء ، قال أبو الطيب : وحماد مع ذلك غير مأمون عند البصريين ولا ثقة .

جاء أعرابي إلى حماد ، فأنشده قصيدة لم تعرف ، ولم يدر لمن هى ، فقال حماد : اكتبوها ، وقام الأعرابي ، قال لمن ترون أن نجعلها ؟ فقالوا أقوالا ، فقال حماد : اجعلوها لطرفة .

قال الجاحظ : ذكر الأصمعي وأبو عبيدة عن يونس أنه قال : إني لأعجب كيف أخذ الناس عن حماد وهو يلحن ، ويكسر الشعر ويصحف ويكذب . قال محمد بن سلام الجعفي : كان أول من جمع أشعار العرب ، وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به ، وكان ينحل شعر الرجل غيره ويزيد فى الأشعار . وفد حماد البصرة على بلال بن أبي بردة ، فقال ما أطرفتنى شيئاً ، فعاد إليه فأنشده القصيدة من شعر الخطيئة فى مديح أبي موسى ، فقال ويحك ، يمدح الخطيئة أبا موسى ولا أعلم به ، وأنا أروى من شعر الخطيئة وأسكن دعها تذهب فى الناس . قال

(١) الفهرست ٩١ . المزهر ص ٢٠٥

ابن وهب الشافعي : كان حماد الراوية حديقاً مخلصاً ، فقتلت له يوماً : أمل
على قصيدة لأخوال بني سمد بن مالك ، فأملى على الطرفة :
إن الخليل أجسد مثقله ولذلك زمت غدوة إبله
عهدي بهم في الغضب قد سندوا تهدي صعب مطيهم ذلله
وهي لأعشى همدان ، قال الأصمعي : جالست حمادا فلم أجد عنده
ثلثمائة حرف ، ولم أرض روايته وكان قديماً .
جمع حماد الروايات التاريخية والأدبية ، وأضاف من عنده عليها
ما أراد ، ومات ولم يؤلف كتاباً ، بل كان الناس يأخذون عنه ، وقد
كتبت كتب ، فأسندت إليه^(١) وهي ليست له .

٤ - خلف الأحمر

ومن رواة الشعر ومنتهجليه خلف الأحمر ، وهو أبو محرز خلف
ابن حيان ، أبوه من سبي قتيبة بن مسلم ، وكان راوية لحامد ، تعلم كثيراً
من القصائد وعاش بعده ، قال أبو الطيب في مراتب النحويين : أخبرنا
محمد بن يزيد قال كان خلف الأحمر يضرب به المثل في عمل الشعر . وكان
يعمل على السنة الناس ، فيشبهه كل شعر يقوله بشعر الذي يضعه عليه ،
ثم نسك ، فكان يختم القرآن في كل يوم وليلة ، فلما نسك خرج إلى أهل
السكوفة ، فعرفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس فقالوا له : أنت
كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة ، فبقي في دواوينهم إلى
اليوم^(٢) أعني أن المنحول بقي على استحاله ، لا فرق بينه وبين الصحيح .
وقد ورد في الحماسة شعر لتأبط شرأ ، ولكن البعض يقول إنها من وضع
خلف الأحمر^(٣) .

(١) راجع المفضليات نشرها لابل ص ١٧ وما بعدها . المزهر ج ٢ ص ٨٧ ،
ص ٢٠٥ وما بعدها وقد ذكرها آل ورد في كتابه خلف الأحمر ص ٣٦ فهرست ، ص ٩٠ .
(٢) مزهر ص ٨٨ .
(٣) حماسة ص ٣٨ نشرها فرايتاج

وقد خدع أهل السكينة كما خدع أهل البصرة^(١) ، ورغم ذلك كله كان طلاب العلم يجتمعون حوله يروون عنه ما يقوله ، ومنهم أبو عبد الله محمد بن سلام الجعفي صاحب كتاب طبقات الشعراء^(٢) . يقول ابن النديم كان خلف الأحمر من أعرس الناس لبيت شعر وكان شاعراً يعمل الشعر على لسان العرب وينحله إياهم^(٣) . ويهزى إليه تأليف ديوان ولكن لم يعرف عنه ذلك . ولما مات رثاه أبو نواس بثلاث قصائد مذكورة في ديوانه .

المترجمون

١ — أبان بن عبد الحميد اللاحق

كان ولاؤه للرقاشيين وكان من الأدباء والمترجمين المعروفين في القرن الثاني الهجري ، وضع جملة مختارة من الأدب الفهلوي بين يدي القراء ، فترجم تاريخ مزدك وسيرة أردشير ، وكتاباً خاصاً ببوذا وكتباً أخرى ، وترجم كتاب كائلة ودمنة ، ونظمه شعراً ليسهل حفظه على جعفر ابن يحيى البرمكي .

وكان يعرف عن أبان هذا أنه زنديق ، وأنه ممن يتشبهون بحماد عجرد ووالبة بن الحباب وأمثالهما ، وهو من الذين يمجدون ماني ، ولا يعتقدون إلا بما تقع عليه الحواس . تفيماً ظلال بن برمك فوثقوا به ووكلوا به امتحان الشعراء وتصنيف قصائد المدح التي كانت تترى على عتبات آل برمك . وكان له القول الفصل في ذلك فعلا شأنه وحسن ذكره وقد وضع مرة قصيدة لأبي نواس في موضع لا يليق بها ، فغضب أبو نواس وهجاه هجاء مرأ كشف فيه صفحة حاله ، وقد كتبت هذه القصيدة في الجزء

(١) ابن حلكان ج ١ ص ٢٩١ طبع باريس . (٢) مزهر ج ٢ ص ٤٧١ .

(٣) فهرست ص ٥٠ راجع آل ورد في كتابه خلف الأحمر ص ٣٦ .

العشرين من كتاب الألفان ، والجار . الرابع من كتاب الحيوان ناجا حفظ .
ولكن أبانا كان ذكي الفؤاد حذراً فكان يدرأ عن نفسه الشبهات لئلا
يقع بين يدي صاحب الزنادقة مثلباً وقع غيره من أمثاله ويقال إن صديقاً
أشار عليه بأن يؤلف كتاباً في العبادات ، وقد فعل ووضعها نظماً ، وروى
لنا الصولي قطعة من هذا الكتاب فيما يخص الصيام والاعتكاف ، وجاء
ذكر هذا في الفهرست لابن النديم . ومع ذلك كله فإن الناس كان يعرفون
عن أبان أنه يظهر خلاف ما يبطن ، وأنه من صنائع البرامكة الذين لهم
وجهة خاصة ورأى خاص في كل ما جاء عن قلب الجزيرة العربية .

يقول المعنل الشاعر :

رأيت أبانا يوم فطر مصلياً فأدهش رأبي واستفزني الطرب
وكيف يصلي مظلم القلب دينه على دين ماني إن ذاك من العجب

٢ - الفضل بن سهل

ومن المترجمين من الفارسية إلى العربية الفضل بن سهل ، فقد نقل
ليحي كتاباً من الفارسية إلى العربية ولم نعرف عن هذا الكتاب شيئاً ،
فأعجب يحيى بفهمه وجودة عباراته فقال له : إني أراك ذكياً ، وستبلغ
مبلغاً رفيعاً فاسلم ، حتى أجد السبيل إلى إدخالك في أمورنا والإحسان
إليك ، فقال : نعم أصلح الله الوزير ، أسلم على يدك ؟ فقال له يحيى : لا !
ولكن أضعك موضعاً تنال به حظاً من دنيانا ، ودعا سلاماً مولاه وقال :
خذ بيد هذا الفتى وامض به إلى جعفر ، وقل له يدخل على المأمون ، وكان
في حجر جعفر ، حتى يسلم على يديه فوصله وأحسن إليه ، وأجرى عليه
رزقاً مع حشمه ، ولم يزل ملازماً للفضل حتى أصيب البرامكة فلزم المأمون
وكان البرامكة يعلقون آمالاً عليه من ذلك ما ذكره أبو العلاء المذاري

أنه سمع الفضل بن سهل يقول : قال لي يحيى بن خالد في كل أربعين سنة يحدث رجل يحدد الله به دولة وأنت عندى منهم^(١) .

واضعو الكتب ضد العرب

١ — سهل بن هرون

ومن الذين نقموا على هذه المبادئ الجديدة التى حلت بين ظهرانى قومهم ، ووجهتهم وجهة أخرى ، سهل بن هرون خازن بيت الحكمة للمأمون . بقول كولد تسيهر : إن العالم المشهور أمين سر المأمون وخازن بيت الحكمة سهل بن هرون المستميانى كتب عدداً كبيراً من الكتب أظهر فيها تعصبه ضد العرب ، ونفره بالعجم ، وكان من متطرفى قومه فى أيامه ، وأدبه الغريب الذى اشتهر به ، إنما وضعه ليسخر به من العرب فإنه كتب سلسلة من الرسائل يمدح فيها البخل بل كتب كتاباً على ما يقال يذم فيه الكرم ويفضل البخل وما ذلك إلا لأن الكرم صفة من صفات العرب^(٢) .

٢ — سعيد البختكان ومحمد بن الليث بن الخطيب

وقد كتب سعيد بن البختكان كتاباً سماه (انتصاف العجم من العرب) ووضع كتاباً آخر أسماه (فضل العجم على العرب وافتخارها) . وكان محمد بن الليث بن الخطيب بن ادرياد بن فيروز يرمى بالزندقة وكانت البرامكة تقدمه وتحسن إليه . يقول عنه كولد تسيهر : إن الفقيه الخطيب محمد بن الليث الذى ينتهى نسبه إلى دارا كان مولى لبني أمية ، لم يتوان

(١) جهشياري ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

(٢) كولد تسيهر الدراسات الحمديّة ص ١٦١ ، الفهرست ص ١٢٠ .

من إظهار عصبية للرئيس في أيام البرامكة ، ولعل هذه العصبية هي التي جعلت الناس يسمونه بالزندقة (١) .

١ - الرقاشي

ومن هؤلاء الذين كانوا ينعهون في ظل البرامكة وينقمون على العرب الفضل بن عباد الصمد مولى رقاش من عجم أهل الري ، انقطع إلى آل برمك فأغنوه عن سواهم وكانوا يصولون به على الشعراء ويروون أولادهم شعره ويدونون القليل والكثير منه تعصباً له وحفظاً لخدمته ، وتنوياً باسمه وتحريكا لنشاطه فحفظ ذلك لهم ، فلما نكبوا ، صار إليهم في حبسهم وأقام معهم مدة أيامهم ينشدهم ويسامرهم حتى ماتوا ، ورثاهم فأكثر في رثائهم . ومن قوله في الفضل بن يحيى :

أما والله لولا خوف وأشي وعين للخليفة لا تنام
لطفنا حول جندك واستلمنا كما للناس في الحجر استلام
فما أبصرت قبلك يا بن يحيى حساماً حنقه السيف الحسام
على الذات والدنيا جميعاً ودولة آل برمك السلام

على أمثال هذا وغيره من رواة الأدب والتاريخ ومترجي الكتب ، اعتمد البرامكة وبهم وجهوا التاريخ والأدب والحياة توجيهاً خاصاً ، وسنفرد للأدباء الذين نهجوا نهجاً معروفاً باباً خاصاً بهم . وقد مكنتهم من مناصب الدولة والمراكز العالية وخصوهم بالعطاء وساعدوهم على نشر آرائهم ومترجماتهم ، ومن هذه المنابع استقينا أكثر نواحي أدبنا وتاريخنا ، فكتب المؤرخون ، وروى الأدباء ، وتمثلوا بالأساليب والآراء . وسنرى في باب الشعر ما فعله شعراء الموالي .

(١) راجع الفهرست ص ١٢٠ ، ١٢٣ ، الدراسات المحمدية ص ١٦١

نكبة البرامكة

شعر العرب بخطر الموالي شعوراً يبنأ منذ أول أيام الدولة العباسية ، قال عبد الصمد بن علي المهدي : يا أمير المؤمنين : إنا أهل بيت قد أشربت قلوبنا حب مواليها وتقديهم ، وإنك قد صنعت من ذلك ما أفرطت فيه ، فقد وليتهم أمورك كلها ، وخصصتهم في ليالك ونهارك ، ولا آمن تغيير جنديك وقوادك من أهل خراسان ، فلم يهتم المهدي بذلك . ولما صارت الخلافة إلى الرشيد ، اتسعت سلطة الموالي فاستولوا على الحركة العلمية والأدبية ، وعلى شئون الدولة جميعها ، ومنع العرب من الوصول إلى بلاط الخليفة . وظلوا يعيدون عن هذا البلاط ، قارة يذكرون الناس بأبيات من الشعر وأخرى يستطيعون إيصال خبر مقتضب إلى الخليفة ، ولكن كل ذلك لم ينفع (فقد كانت مراقبة الموالي شديدة) حتى أدرك الرشيد الخطر وأيقن أن دولته شرعت تجمح إلى الزوال ، فأوقع بالبرامكة هذه النكبة المشهورة التي كتب عنها المؤرخون كثيراً وصاغوا حولها الأساطير التي نقرأها في كل تاريخ من تواريخ الأمة . ونجد فيها اختلاف الأسباب وتنوع الآراء ، ويمكن تلخيص أسباب زوال هذه الأسرة التي حكمت ما يقرب من سبعة عشر عاماً حكماً مطلقاً (٧٨٦ — ٨٠٢ م) في الأمور الآتية :

- ١ — أرادوا قلب الحكم العباسي كما فعل أبو مسلم الخراساني في قلب الحكم الأموي ، وقد حاولوا أن ينقلوا الحكم من أسرة إلى أخرى ، وغايتهم في ذلك إضعاف شوكة العرب ليستطيعوا إعادة الدولة الفارسية^(١)
- ٢ — استأثروا بالأموال والتصرف بشئون الدولة^(٢) . يقول

(١) ط ج ٢ ص ٦٦٩ ، ابن خلكان ١٠٩ ، جهشياري ص ٣٠٥ .

(٢) مقدمة ص ١٤ وما بعدها .

بن خلدون : إنما نكتب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجاجهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره وشركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمر مملكتهم فنقم عليهم ، كما يستدل من توقيع له جاء في العقد الفريد في أمر البرامكة ، أنبئته الطاعة وحصدته المعصية (١) .

٣ — أعطوا الوظائف لأقاربهم وصنائعهم من الموالى ، وأبعدوا العنصر العربى . يقول ابن خلدون : وعمرنا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم . يقال إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى خمسة وعشرون رئيساً من صاحب سيف وصاحب قلم (٢) .

٤ — اتهمهم بالزندقة وترويح عقائد المجوسية ومذاهب الشرك . يقول ابن النديم : البرامكة كلهم زنادقة ، ما عدا محمد بن خالد . ويقول كريمة : إن أفراد أسرة البرامكة الشهيرة كانوا كلهم على دين مانى (٣) .

٥ — أخذ الشعراء يقفون على أبوابهم ويمدحونهم ، وأخذت تصالهم هدايا الملوك من أقصى التتخوم ، واستولوا على القرى والضياع ، وتغلب اسمهم على اسم الأسرة المالكة (٤) .

فلم يستطع الرشيد صبراً على هذه الأمور وفعل فعلته وقضى عليهم قبل أن يغيروا مملكتهم . ولكن عمل الرشيد جاء متأخراً ، فإن الموالى تمكنوا من الدولة بالوسائل التى ذكرت وتغلغلوا فى المحيط ، ولم ينفع فى الأمر قتل أفراد أو نفيهم ، فقد كثر علماء الموالى وظهرت آثارهم وزاد شعراؤهم وتمكنت جماعاتهم من وضع الخطط للوقوف أمام العرب وابتداع الوسائل لإنجاح المقاصد .

(٢) مقدمة ص ١٤ .

(١) عقد ج ٢ ص ١٨٨ .

(٣) فهرست ص ٣٣٨ ، تاريخ النفاقة ص ١٧٠ .

(٤) ابن خلدون مقدمة ص ١٤ .

الفصل الخامس

الموالى والإسلام

رأى المشتقون من بعض رجال الموالى القائمين بالحركة أن السكيد للإسلام على الحيلة أتجع وأنه لا يمكنهم محاربته إلا بالدخول فيه ، فاعتنقوا الإسلام ظاهرا وظلوا يخلصون لعقائدهم القديمة واتخذوا وسائل كثيرة لمقاومته وللتفريق بين المؤمنين به ، وأول ما فعلوه أنهم انكبوا على دراسة اللغة والأدب والقرآن والحديث واستغلوا هذه المعرفة فوضعوا من الأحاديث على النبي ، وشرعوا يوجهون الأدب والعلم بما يريدون وترجموا كتب الزندقة بما أثر عن ماني ومزدك وغيرهما فكانت هذه المترجمات سببا لإيجاد الخلاف بين المسلمين فنشأت الفرق المتعددة .

يقول كريم : لقد جاء هذا العنصر الجديد من الوجهة الدينية بخميرة مؤثرة جدا كانت سببا لإيجاد البدع ، وتكوين الفرق ، وبث الشك وانتشار الجدل الفلسفي ، خاصة ما جرى به من المانوية^(١) .

والمانوية تقوم على المبدأ الثنوى : (من أن للعالم إلهين اثنين ، أحدهما إله النور والآخر إله الظلمة) ودعايتها للزهد المتناهي الذي فرضه ماني على الأخيار من الاتباع في عدم الزواج ، وعدم اقتناء شيء خلا قوت يوم ولباس سنة ، وإدامة التطواف في الدنيا ، وتحريم ذبح الحيوان ، وإيذاء الماء والنار والنبات . كذلك وضع مرسوما على

(١) كريم تاريخ الثقافة ج ٢ ص ١٦٩ ، راجع كولدنسبهر الدراسات الحمديّة ج ٢ ص ٥٣

الاتباع الذين هم والمصلحين بالأسباب الدنيوية بالنصديق بعشر الملك
وصوم سبع السرا ، والاقتصار على امرأة واحدة وأرجع ذلك إلى
احتقار المادة التي مصدرها الضلالة ، والضلالة محتقرة . فما صدر عنها فهو
محتقر^(١) . وزاد ابن النديم أن ما فرض عليهم تعلم العليل والسحر
والقيام بمهمتين ، هما النكاح في الدين والاسترخاء والتواني في العمل^(٢) .
ويقول نيرخ : كانت هذه الحركة في الشرق أخطر أعداء الإسلام ،
فإن من طبيعة المانوية أن تتدخل في غيرها من الأديان وتمزج بها
وتتحد معها كي تمزق وحدتها من الداخل بما تبذره من أصول الخلاف
والانشقاق^(٣) .

ومثل المانوية المزدكية حيث تشتركان في الأثينية ، وتنفر المزدكية
بالإباحة المطلقة في الأموال والنساء . وقد انتشر هذا المبدأ في بلاد
الفرس فقاومها الملوكة الساسانيون مقاومة شديدة . وثبتت قدمها في
العراق سرا^(٤) ويكاد هذان المبدآن — المزدكية والمانوية — يكونان
مصدرين مهمين للفرق التي ابتعدت عن الإسلام ، وغذاء للزنادقة
المشهورين الذين أسسوا فرقهم لإيجاد الخلاف وإضعاف تلك العقيدة
التي انبعثت من قلب الجزيرة . بل كان هذان المبدآن عنصرين قويين
منهما يستمد الشعراء المعنيين بالمقاومة قوة شعرهم ومادة خيالهم .

وقد حاول الخلفاء العباسيون أن يقضوا على الزندقة فلم يستطيعوا
وأول من وقف لها بالمرصاد الخليفة المهدي ، فحكم على بشار
ابن برد بالموت . وأوصى ولده الهادي ألا يتوانى عن استئصال

(١) البيروني آثار ص ٢١١ . (٢) فهرست ص ٣٣٣ . (٣) نيرخ في مقاله عن

السكفاح بين الإسلام والمانوية في مجلة O. L. Z, B 32, 4S7. 1929

(٤) كريم — ديوان أبي نواس ص ١١ ، كريم ، تاريخ الثقافة ج ٢ ص ١٧٠ .

البدع الجديدة ، وقضى الرشيد على أسرة البرامكة ، وحكم المعتصم على الأفشين بالموت ، وأعدم المقتدر الخلاج ، ولكن لم يتمكن هؤلاء الخلفاء من الوقوف دون انتشارها ، فقد سعت إيران وتغلغل في العراق^(١) كانت هذه الفرق التي نجمت عن المانوية والمزدكية والسبائية وما أبدعه خيال القائمين بالحركة في جملتها وتفصيلها واختلاف أشكالها وتباين أزمان القائمين بها وتنوع وسائلهم تهدف إلى القضاء على الدولة العباسية لإقامة دولة جديدة تعيد مجد الأكرسة .

ولعل ذكر بعض الأمثلة من الفرق التي نشأت ونشر سيرة بعض الشخصيات التي وقفت موقف المعارض العتيد يليق شعاعا قويا على ما كان يجري في هذه الفترة من المؤامرات التي انهار بها الشرق الأوسط .

أتباع أبي مسلم الخراساني وفرقة الخرمية^(١)

قام أبو مسلم الخراساني بحركة ضد الدولة العباسية كما ذكرنا آنفا ، فقضى عليه أبو جعفر المنصور ، ويظهر أن أتباعه لم يجدوا الوقت مناسباً لمقابلة السيف بالسيف فعمدوا إلى نشر عقيدة تناسخ الأرواح ، وادعوا أن أبا مسلم يؤمن بها ، وأن روح آدم حلت في عثمان بن نهيك (رئيس حرس المنصور) ، وأن أبا جعفر المنصور ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم ، وأنهم يطلبون رؤيته . فلما طلع عليهم عثمان ليقتنعهم قتلوه بسهم ونجا المنصور من حركتهم هذه التي أرادوا بها الانتقام لسيدهم^(٢) ، ثم ظهر رجل يدعى إسحق ، دعا الناس إلى أبي مسلم وزعم أنه نبي أرسله زرادشت وأنه لا يزال حيا لم يمت^(٣) .

(١) راجع كريع تاريخ الثقافة ج ٢ ص ١٧٠ وما بعدها .

(٢) ط ج ١ ص ١٣٠

(٣) الفهرست ٠ ٣٤٤ . فان فلون ١٣١ .

ونشأت بعد قتل أبي مسلم فرقة الخرمية التي يمكن إرجاع تسميتها إلى قرية خرم قرب أردبيل . وتسمى أيضا بالمسابية . انقسمت فرقتين — فرقة تقول بإمامة أبي مسلم « وأنه لم يمت ولن يموت » حتى يظهر فيملاً الأرض قسطاً وعدلاً . وفرقة قد است بموته « وقالت بإمامة فاطمة ابنته » وتدعى هذه الفرقة الفاطمية . وحاصل تعاليمها راجع إلى رفع التكليف ، وتسليط الناس على اتباع الشهوات من المباحات والمحرمات ، وأمتد بها الزمن وكثر أتباعها عام (٥٢٣٢) (٩٤٣ — ٩٤٤ م) ومن أبرز أتباعها بابك الخرمي خرج على المعتصم وشغل الدولة العباسية حيناً من الدهر (١)

الراوندية

وظهر شخص يسمى هاشم بن حكيم ويعرف بالمتنوع الخراساني وهو من أخلص أتباع الراوندية ومؤسس هذه الفرقة ، يدعى الأبلق زعم أن الروح التي كانت في عيسى بن مريم حلت في علي ثم في الأئمة واحداً بعد واحد إلى إبراهيم بن محمد سبط العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم وتبعه كثير وكان كل رجل من أتباعه يدعو الجماعة إلى منزله فيطعمهم ويستقيهم ويبيح له حرمة الإسلام ، وخرج في جماعة منهم على الناس ينادون أبا جعفر المنصور — أنت أنت يعنون بذلك أنت ربنا وإلهنا (٢) وبدأ تعاليمه قرب مرو . وتبرقع بحريير أخضر ، وزعم أن الله تحول إلى صورة آدم ، ومن صورة آدم إلى صورة نوح ، ثم إلى صورة الأنبياء واحداً بعد واحد ، حتى حصل في صورة أبي مسلم ثم من أبي مسلم إليه فتبعه كثير (٣) .

(١) المسعودي ج ٦ ص ١٧٧ . (٢) ط ٣ ص ٤١٨ ، الإسلام ، مجلة ص ٤٩٤ مولر . فان فلونن ص ٩٧ ، نولدكه ص ١٢٥ ، نصوص شرقية .
(٣) البيان والتهيين ج ٣ ص ٥٣ — ٥٤ كريع تاريخ الآراء السائدة ص ٧٤ .

ثم قال إنه إنما تجسد لكي يراه الناس إذ لا يمكن رؤيته قبل ذلك .
وعبر نهر جيحون إلى نواح كثيرة ، وشرع لهم جميع ما أتى به من ذلك
، وقتل من خالفه وثار على المهدي ودوخ جيوشه انتقاماً لأبي مسلم ولدولة
الأكاسرة التي هدد أركانها العرب . ووبق ثأراً أربع عشرة سنة حتى
حوصر وقتل سنة تسع وستين ومائة للهجرة . ولما أحيط به أحرق جسمه
ظناً منه أن جسمه سوف يتلاشى فيتحقق أعصابه قوله ، فاحترق ولم يتأت
له ما أراد من التلاشى . بل وجد في التنور وقطع رأسه وأرسل إلى الخليفة
وهزار له تبعة بما وراء النهر يدينون بدينه مستخفين منتحلين في الظاهر
للإسلام . وقد ترجمت أخباره من الفارسية إلى العربية ويذكر البيروني
أنه استقصاها في أخبار المبيضة والقرامطة (١) .

الباطنية والقرامطة

لا أريد أن أفصل الحديث في الباطنية والقرامطة تفصيلاً يبين منشأها
وتطورها التاريخي وما أصابها في أيامها التي تعاقبت عليها وما انتهت إليه
من النتائج فقد كتبت في شأنها كتب مفصلة تقلبت فيها الآراء اختلافاً
واتفاقاً ، وحسبي من أمرها أن أبين مكانتها في هذا الصراع وأثرها القوي
في توجيه المجتمع الإسلامي توجيهاً مضللاً .

إنني أرى أنهما فرقة واحدة ذات هدف واحد في سبل مختلفة وأنهما
امتداد للحركات التي قام بها أعداء الإسلام من الموالى واليهودية فقد كان
الإسلام كارثة على هؤلاء الخصوم حيث هدم آراءهم وأزال معالم
سلطانهم فلم تهدأ لهم ثائرة منذ أن رأوا هذه العقيدة تزداد شوكة وقوة
تحطم أركان الظلم ، وتزيل معالم الفساد وتقيم دولة الخلافة على قواعد العدل
والإخاء والمساواة ، فقد فعل اليهود فعلتهم في بث الفرقة في إثارة الفتن

ومن النبوة وتثبيتوا الحلي من الأمور في أيام الخلافة ، فساهم كعب
الأخبار مع المولى الهرمزان في اغتيال الخليفة الثاني وأقام عبد الله بن
سبأ المزالى في العالم الإسلامي وأقعدهم بالشغب على الخليفة الثالث حتى
قتله ، وأطلقها فكرة يهودية مبدعة تثير الشك وتقتلع عقيدة التوحيد
من جذورها حين دعا إلى تأليه الخليفة الرابع ، وزاد أتباعه أن أشاعوا
فكرة التجسيم والتشبيه . وكانت آراؤه مصدراً لبعث العيسوية الأصفهانية
التي كانت تقول بصحة نبوة عيسى ومحمد بالنسبة لشعبيهما فقط ، أى أن محمداً
رسول الله إلى العرب لا إلى العجم ولا إلى بني إسرائيل وأن عيسى مرسل
إلى شعبه والتي قلدها من بعد ذلك الإسماعليون في إيجاد العقيدة العامة ،
كذلك كانت آراؤه مصدر الغلو في العالم الإسلامي ، ونشأت عن ذلك
الفرق التي ألهت أبا جعفر المنصور وألهت أبا مسلم الخراساني بعد مقتله
وشاعت فكرة العصمة من الخطأ ، وظهر مبدأ المعرفة المطلقة حيث
يحيط الإمام بالعالم ما ظهر منها وما بطن ، وصحب ذلك كله مبدأ الحلول
وتناسخ الأرواح .

أخذت هذه الآراء تتجمع شيئاً فشيئاً وتتلأم حتى تركزت ونشأت
عنها هذه الفرقة العاتية فرقة الباطنية التي أخرج آراءها ووجه الناس إليها
ميمون القداح الشنوى الديصاني خليفة أبي مسلم الخراساني ومستجيب
ابن سبأ اليهودي .

كان هذا المولى ذكياً عالماً فأسس هذه الفرقة على أسس قوية مبنية
على دراساته التي اكتسبها من مدارس الفلسفة اليونانية وتعاليم مزدك
وزرادشت وماني وغير ذلك يضاف إليها ما جاء في الكتب السماوية .
اشتمد إلى ما أفادة من هذا كله فهي لنفسه خطة محكمة خفيها بالسرية القوية
ظاهرها حب آل البيت والدعوة لهم وباطنها إعادة دولة الأكاسرة .

شرع يعبد دعاته ليعتدوا آراءه وعقيدته لتحقيق خطته فكان يختارهم

اختياراً يتوخى فيه الذكاء والذلاقة وقوة العارضة وكتبان السر والقدرة على إغراء الناس وجلبهم إلى لوائه وكان هؤلاء يستترون بثياب كثيرة مختلفة تارة بالصوفية والشعوذة والتقشف والزهد والاستجداء والتجارة وطوراً يلبسون ثياب النساء إذا أعوزهم الأمر ، وكان من أقوى خصائصهم قوة العارضة ومثانة الحجة ، ومعرفة ميول الناس ورغباتهم ، لا يخالفون أحداً وغاية ما عندهم أن يروا ميوله ويتحسسوا مغامر الضعف فيه حتى إذا وجدوا ذلك غمزوه فيها .

وكان الناس في ذلك الوقت من السذاجة ما يجعلهم يتبعون من يحقق لهم رغبة أو يحيب لهم طلبه ورجال القداح من هذا الطراز ، أذكاء ناهون مدربون .

ولما آل الأمر إلى ابنه عبد الله قام به على أتمه ، كان يفوق أباه ذكاء ومعرفة فوضع مشروع الدعوة على أسس متينة جعلها متدرجة وقسم المجتمع على أساس مبلغ أهله من العلم والمعرفة والمكانة ، فالعامة لهم درجة ، والذين يلونهم رفعة لهم درجة ، وهكذا تتصاعد الدرجات حتى تبلغ الدرجة السابعة حيث تتكشف مبادئ الحركة كلها أمام المنتسب .

وعبد الله هذا هو الذى وضع يده بيد حمدان قرمط الثائر الثانى الذى كان يستمد مبادئ ثورته من آثار آبائه الأولين الذين ألهو أبا جعفر المنصور وأبا مسلم الخراسانى الذى كان يريد أن يعيد دولة آبائه بالسيف ففشل وعلم أتباعه أن السيف لا يجدى فى تحطيم عقيدة الإسلام ولن يجدى فى ذلك إلا إثارة الشك ، إن إثارة الفتن من الضعفاء بين الأقوياء أنفع من السيف الضعيف لاسيما الإسلام لا يزال فى عنفوان شبابه ، لقي حمدان قرمط عبد الله بن ميمون القداح لقاء موفقاً مكتمل الهدف فوضع أحدهما يده بيد الآخر ومشت دعوة القداحين القوية جنباً إلى

جنب مع دعوة ترمط تشد أزرها وتطعمها بمبادئ جديدة مبنية على
التجارب . لقد خلقت قتلة أبي مسلم وراهبا كثيرا من الناقين ، تفرقوا
فرقا وأحزابا لكل رأى ووجهة فى الانتقام ، فاستطاع عبد الله بن
ميمون أن يلم شعثها ويوجهها الوجهة السامة ، فقويت بذلك شوكة دعوته
واستمرت تمشى مستندة إلى أسس متينة وازدادت قوة فى إقناعه أتباعه
بنظرية الإمام المستور الذى يحيط بكل شىء ، وهو مصدر العلم والعرفان
ولا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق حجة عبد الله بن ميمون القداح
فقال بهذه الدعوة مكانة ممتازة جعلته يسيطر على الدعاة والأتباع لاعتقادهم
أنه هو الباب الذى يابجونه إلى إمامهم ، وتطورت نظرية الإمام المستور
والحجة إلى نظرية الإمام المستودع والإمام المستقر ، ومعنى ذلك أن
الإمام المستودع تكون الإمامة وديعة عنده يؤديها إلى الإمام المستقر
ولا يؤديها إلى غيره أما الإمام المستقر فله الحق أن يهبها من يشاء لأنه
محيط بكل شىء وأن عنده أسرار المعرفة .

وأيا كان الشأن فإن هذه النظرية من مستلزمات الحركة استغلت
استغلالا كبيرا لفائدة القداحين ، فقد مثلوا دور الإمام المستودع ،
وتعرضوا للأخطار لتكون الحركة دائما بأيديهم ، أما الإمام المستقر فهو
رمز ودرع للحركة وأمل للأتباع من جميع الأقسام والشعوب لأن حب
أهل البيت مفروس فى النفوس لذلك يتبعون من يدعو لهم ، والحقيقة
التي لا مرية فيها ، أنه ليس للإمام المستقر من الأمر شىء . ولما ضعفت
الدولة العباسية وقويت الحركة الباطنية ، وضعف شأن العلويين ، بدت
للوجود فكرة جديدة ، وهى فكرة كانت عنصرا قويا فى بناء هذه
الحركة ، تلك هى البنوة الروحية . التي جعلوها فى دعايتهم وتعاليمهم
تفوق فى بعض الأحيان البنوة الجسدية ورأينا الإمام المستور والحسين
ابن أحمد ، ينزل لسعيد بن الحسين بن عبد الله القداح عن الإمامة ويتركها

وديعة عنده كي ينزل عنها لابنه بعد وفاته ، فكانت هذه الوديعة في توجيهها وجهة أخرى ماثلة عن قواعدها الأصلية أول نقطة تفرقت بها السبل بين القرامطة والقداحين في دعوائهم الباطنية ووجد القرامطة الذين يؤمنون بظهور الإمام المستور خروجاً من القداحين على الدعوة ، وصعب عليهم أن يروا إماماً من غير أهل البيت ، وثارت بين أهل الدعوة ثارات الفتن ، واختفى حمدان قرمط ، وقيل قتل . وهرب سعيد بن الحسين إلى المغرب . وكان هروبه بناء على إلحاح من داعيته الوفي أبي عبد الله الذي دوح الأغالبة كما يأتي تفصيل ذلك في آخر الفصل .

وصل عبيد الله إلى المغرب وحبس بسجلماسة عاصمة بني مدرار في المغرب الأقصى وكان داعيته على اتصال به .

وبينما كان دعاة القداحين بضربون في الأرض يتسترون في الدعوة ويستميلون الناس إلى حضرتهم ويجمعون الأنصار في بلاد الشام والعراق وخراسان والبحرين كانت فتن القرامطة تملأ أرجاء المملكة ، وكانوا يشنون حملاتهم على مراكز الضعف فيها ، وكثيراً ما كانت جيوش الخليفة تنهزم أمام هذه الحملات وكان كل همهم إسقاط الدولة والقضاء عليها ، وإقامة دولة فارسية تأتي على العقيدة الإسلامية من جذورها ، ولقد أغاروا على مكة ودخلوها واقتلعوا الحجر الأسود الذي وضعه محمد صلى الله عليه وسلم بيده وجعله رمزاً لوحدة الأمة واحتفظوا به مدة عشرين عاماً وهذا دليل واضح أن الحركة كانت موجهة إلى العقيدة والسلطان .

وجمل القول أن أصول هذه الفرقة التي بنوا عليها دعوتهم : أن الإمام عندهم مصدر العلم والمعرفة يحيط بما ظهر وما بطن ، لا يخطئ ، ويرجع ذلك إلى مبدأ التأليه الذي أخذت به الفرق المختلفة التي تشكلت في أول

الحركة ولقد نتج من ذلك تقييدان إحداهما استطاعة الإمام التصرف في العقيدة كما يشاء ، لأنه أعرف الناس وأكثرهم إحاطة بها ومن ثم عمدوا إلى آيات القرآن يؤولونها كيفما تحاو لهم ، فلبسوا وضعوا مبدأ الاستبداد والاستقرار مثلاً ، قالوا لقد جاء هذا في القرآن بقوله تعالى « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستورها ومستودعها كل في كتاب مبين » وقوله تعالى : « فستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » وقالوا : إن الشرائع تلزم العامة دون الخاصة ، فإذا صار الرجل من عارفهم ومحققهم وموحيديهم رفعوا عنه الواجبات ، وأباحوا له المحظورات ، وأولوا كثيراً من أصول الإسلام على حسب ما ترمى إليه أهدافهم ، فهم يؤولون الصلوات الخمس بأنها معرفة أسرارهم ، وصيام رمضان يراد به كتمان أسرارهم أما الحج فلا يراد به إلا السفر إلى شيوخهم . لقد كان مبدأ المعرفة التي هي إشراق إلهي خطراً جداً فقد وصل به الغلو إلى مبدأ الحول أي حول الإله في روح إمامهم وقد ادعى ذلك كثير من غلاة الباطنية .

واحتضنت الباطنية آراء مزدك في شيوعية الأموال ، وزاد بعض الناقلين إباحة النساء ، وعزوا ذلك إلى ما وصل إليهم عن خرما زوجة مزدك ومن اتبعها .

ومهما يكن فإن المبدئين لقياروا جاً في فارس قبل مجيء الإسلام ، ثم استغلها أعداء الإسلام أيام الدولة الأموية . فلما استقر ملك بني العباس وجدنا هذه المبادئ شائعة فوية الشيوع بين الزنادقة والشعراء والأدباء ، وبين جماعة الحركة أتباع أبي مسلم الخراساني وابنته فاطمة وبابك الخرمي . ولما كانت هذه الحركة الهدامة التي تحاول قلب الدول وتبديل العقائد تحتاج إلى مال يغذيها رأينا حمدان قرمط يبتدع نظاماً مالياً شيوعياً فيضع الضرائب على أتباعه المستجيبين له ، يضع ضريبة الفطرة

و بمقدارها درهم واحد على كل قرمطى . ثم ضريبة الهجرة ومقدارها دينار ، وضريبة البلغة ومقدارها سبعة دنانير ، وضريبة الخس وهي أن يدفع المستجيب خمس ما يملك وضريبة الألفة وهي أن يدفع القرمطى جميع ما يملك ، وكانت تجمع هذه الأموال عند رجل واحد ، والأتباع جميعهم فيها سواسية كأسنان المشط ، وقد سميت هذه الضريبة الأخيرة ضريبة الألفة لأنها ألقت بين قلوب الجميع وجعلتهم فى العقيدة إخوانا . وكان حمدان قرمط يتلو عليهم عند جمعها قول الله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » . وكان يمنهم ويعدهم أن الأرض جميعها ستكون لهم دون غيرهم ، ولذلك فإنهم لا يحتاجون إلى أموال يكتزونها فى بيوتهم .

ومن أهم العناصر التى قامت عليها الدعوة الباطنية مبدأ العقيدة العامة ، ذلك أنهم لأجل أن يجتذبوا الناس جميعهم إليهم ، كانوا يدعون لعقيدة عامة تضم العقائد كلها ، وكان عبد الله بن ميمون القداح أول واضع لهذا المبدأ ، وقد وجد بعض أتباع الأديان السماوية والمزديكون وأتباع زرادشت بعض ما تصبوا إليه نفوسهم فى هذا المعتقد العام ، فاتبعوه ، ودخل فى روع الأتباع أن عبد الله موطن لحلول زرادشت وماني ومنزك وموسى وعيسى ومحمد يرومون من وراء ذلك تحبيب الناس لهذه الدعوة وشرعوا يعدونهم ويمنونهم ويظهرون لكل فريق ما يواثم معتقده . أفسحت هذه المبادئ لرؤساء الباطنية أن يؤولوا الكتب السماوية والعقائد بما يتفق مع هذا التعميم وذكروا أن للقرآن معنى ظاهراً وآخر باطناً ، وأن للشريعة ظاهراً وباطناً ، وأن الباطن الحقيقى الذى هو أصلها لا يعرفه إلا الإمام الباطنى الذى يفيض الله عليه نور المعرفة ، فتتكشف له الحقائق ، وأولوا الحديث والتوراة والإنجيل ، وما ورد فى المعتقدات الأخرى للأمم والشعوب .

وساعدتهم على هذه الآراء جماعات العلماء الذين اتخذوا العلم والأدب ستاراً لتنفيذ هذه السياسة وطفقوا يبتشون آراءهم للخاصة والعامة ، ومن هؤلاء إبن خيران الصفا وغيرهم من جماعات الزنادقة . ومن الشخصيات القوية التي أعانت على هدم العقيدة الإسلامية ومقاومتها وأثرت تأثيراً شديداً : ابن المقفع والحلاج ، وحيدر بن كوروس وسندكر نبذاً توضح اتجاه كل منهم في هذا الفصل .

هذه الباطنية ثورة عارمة من الموالى قاموا بها ضد أبناء الجزيرة العربية ، الفرض منها إعادة المجوسية الأولى والقضاء على عقيدة التوحيد . سارت بقوة واتجهت إلى شمال أفريقيا يحدوها أبو عبد الله الذى دوح دولة الأغلبية ، فلما تم له الاستيلاء على ملكهم عام ٢٩٦ هـ سار إلى إمامه المسجون بسجلماسة ، فأخرجه من السجن ، وجاء به من الغربية ، وأجلسه على العرش فى تونس .

وبذلك قامت قواعد أول خلافة للموالى عام ٢٩٧ هـ على أساس من الأحكام والتستروااء الدين ومن هذا المركز القوى أخذوا يمدون دعوتهم وينازعون قوتين اثنتين : الدولة العباسية فى آسيا للقضاء عليها والدولة الأموية فى الأندلس^(١) للوصول إلى زعامة العالم الإسلامى . ولما استشرى سلطانهم وكثر عديد جيوشهم وعدتهم زحفوا على مصر ففتحوها على يد قائدهم جوهر الصقلى عام ٣٥٨ ووضعوها أساس القاهرة والجامع الأزهر ، وبدأت حركة علمية جديدة يبتغون من ورائها بث

(١) عندما أعلن الفاطميون خلافتهم رأى الأمير الأموى فى الأندلس عبد الرحمن الثالث أنه أحق بها منهم بعد أن ضعف الخليفة العباسى فأعلن خلافته واتخذ لنفسه لقب الناصر لدين الله عام ٣١٧ هـ / ٩٢٩ وشرع يقاوم الفاطميين ويحول دون توسعهم ، وقد أرسلوا عليه أسطولا فأجابههم بأشدهم وضرب شواطئ أفريقيا الشمالية .

آرائهم وأفكارهم ، ولما كان الباطنيون لا يتشددون بالدعوة مع المدعوين كما ذكرنا آنفاً ويتركون الشعرة لا تنقطع كي ينالوا مآربهم أخذوا يجلبون العلماء والأدباء من أقطار العالم الإسلامي يغرونهم بالدعوة ويستنفذونهم لتقويتها ، ولكن الكثرة الغالبة أثرت عليهم ولم تفسح لهم مجالاً للوصول إلى ما يبتغون ، لقد خرج القداحون على الدعوة بأخذهم الإمامة وبتساهلهم فأغاظ ذلك القرامطة فانفصل هؤلاء عنهم وغزوا مصر فعلا للقضاء على الفاطميين ، ولولا دراية المعز وحسن تدبيره الذي استطاع إرجاعهم وهزمهم لكان للباطنية تاريخ آخر . استمرت حكومتهم في إرساء قواعد الملك بالقاهرة ومصر حتى أيام الحاكم بأمر الله الذي شذ عنهم وعاد خفض لأصول الباطنية الأولى فادعى الألوهية واستجاب للخلافة من الدعوة الذين وصلوا إليه من فارس والمغرب وقد أثار ادعائه هذا كثيراً من الذين لا يؤمنون بالباطنية واضطربت البلاد وحدثت أحداث وقتل الحاكم ولم يعثر له على أثر ، فزعم أتباعه أنه اختفى وسوف يعود ولا يزال فريق من أتباعه يعتقدون بذلك . ظلمت البلاد من بعده تنتقل من محنة إلى محنة إلى أن ضعفت دواتهم وقامت دولة الأيوبيين ، أسسها صلاح الدين الأيوبي ابن أخي شيركوه الذي عين وزيراً للخليفة الفاطمي من قبل نور الدين السلجوقي الذي كان يخشى على مصر من الصليبيين .

ثم صارت الوزارة من بعد شيركوه لصلاح الدين الذي صفى حساب الدولة الفاطمية ، وقلب تعاليمها وجعل الفقه الشافعي يدرس في الأزهر مكان فقههم ، وبذلك اتجه الأزهر اتجاهاً آخر غير اتجاهه الأول ولا يزال على ذلك إلى اليوم ويرجع الفضل له في حفظ التراث العربي الإسلامي إلى يومنا هذا .

١ - ابن المقفع

روزبة بن داؤديه ، مولى آل الأهم في البصرة ، كتب لداود بن عمر بن هبيرة ، أخى يزيد بن عمر والى العراق لمروان الثانى (٧٤٤ - ٧٥٠) آخر خلفاء بنى أمية ^(١) ولا نعرف زمن تسميته عبد الله وكل الذى نعرفه أنه بقى أميناً لعقيدته الجوسية إلى زمن الدولة العباسية حيث أسلم على يد عيسى بن على عم المنصور ^(٢)

كان عبد الله كاتباً بليغاً وسياسياً ماهراً ، لفت أسلوبه الكتابى نظر الخليفة أبى جعفر المنصور (٧٥٤ - ٧٥٥ م) فقربه إليه وطلب منه ترجمة كثير من الكتب عن الفارسية فقام ابن المقفع بذلك ، وهو أول من ترجم كتاب كلية ودمنة ، وكتب أرسطو المنطقية عن الفهلوية ، وترجم من كتب التاريخ الفارسية كتاب التاج فى سيرة أنوشروان ، ومن كتب العقائد كتاب مزدك ، وألف كتباً قيمة فى الأدب والسياسة منها كتاب الأدب الكبير والأدب الصغير ورسالة الصحابة يعنى بذلك صحابة الملوك ومن يقرّبونهم إليهم . وفى هذه الرسالة ظهرت مواهب ابن المقفع فى السياسة والإدارة وصلاحيه الحكم ^(٣) ونال خطوة فى البلاط ، غير أن الخليفة تغير فجأة فأمر بقتله ، ودارت حول هذا القتل الأقاويل ، واشتبهت الروايات ، وأحيطت بشيء من الغموض وقليل من أحاديث خرافة وكان أول هذه الروايات قبولاً عند الناس : أن ابن المقفع تشدد فى كتابة عهد الأمان بين المنصور وبين عمه عبد الله بن على لحفظها عليه المنصور . وثانى الروايات أن ابن المقفع قتل لعداوة شخصية بينه وبين سفيان بن معاوية والى البصرة . ورواية ثالثة تعزو سبب قتله إلى اتهامه بالزندقة ، فإنه لما

(١) فهرست ص ١١٨ ، جهشبارى ص ١١٧ .

(٢) فهرست ١١٨ ، ابن خلّكان ص ١٨٨ .

(٣) بروكلمان ملحق ج ١ ص ٢٣٤ - ٢٣٧ ، راجع رسائل البلاط .

قتله سفيان قال له : هـ والله يا ابن الزنديقة لأحرقنك بنار الدنيا قبل نار الآخرة^(١) ، . وأضعف هذه الروايات ما ترجع قتله إلى العداوة الشخصية ، وتليها في الضعف رواية كتابة العهد ، فإن باستطاعة المنصور أن يجعل ابن المقفع يكتب كما يريد المملى لا كما يشاء الكاتب ، والراجح أن ابن المقفع كان زنديقاً لا يؤمن بالله ولا يقيم وزناً لدين محمد بن عبد الله . وقد كشف القناع عن ذلك الأستاذ جويدي الإيطالي في الكتاب الذي نشره أخيراً مؤلفه إبراهيم بن القاسم ، وهو كتاب « الرد على اللعين عبد الله بن المقفع » ، وفي هذا الكتاب اقتطف إبراهيم فقرات من كتاب معارضة ابن المقفع للقرآن ، مقتطفات لا رابطة بينها جاء بها ليرد عليها ، نذكرها كما جاءت في الكتاب وهي :

بسم النور الرحمن الرحيم — أما بعد فتعالى النور الملك . العظيم الذي بعظمته وحكمته ونوره عرفه أولياؤه والذي اضطرت عظمته أعداءه الجاهلين له والعامين عنه إلى تعظيمه ، ومسبح ومقدس النور ، الذي من جهله لم يعرف شيئاً غيره . ومن شك فيه لم يتيقن بشيء بعده
انقلب عليه خلقه الذين هم عمل يديه ، ودعا كلمته ، ونفخة روحه ، فعادوه وسبوه وآسفوه . وأنشأ يقاتل بعضهم في الأرض ويحترس من بعضهم في السماء بمقاومة النجوم ويبعث لمقاتلتهم ملائكته وجنوده . . .
وأنزل ملائكته فإذا غلبوا عدوا قال أنا غلبته ، أو غلب له ولي ، قال أنا ابتليته فقتلت أعداؤه أنبياءه ورسله

وأجل عدوه إلى يوم يبعثون .

ولا يغلب أحداً إلا بالخييل والسلاح

وهكذا يقتطف ابن القاسم من كتاب ابن المقفع مقتطفات ويرد عليها رداً مسجوعاً يسفه به آراء ابن المقفع ويجعل كتابه هذا طعناً في الدين .

ليست ابن القاسم ذكره بن المقفع كنه ورد عليه بن جهمي عنه ، وفسح المجال لغيره أن يرد عليه ، ولو فعل ذلك لكان لنا مجال واسع في معرفة ذلك الجدل الثري الذي كان يثار بين الملحدين والمسلمين ^(١) .

إنك ترى ابن المقفع في معارضته يبدأ رسالته بطراز جديد للبسملة ثم يتسرع يمدح النور ، وأنه منبع الخير والبرقة ، ويهاجم الإسلام من حيث إنه دين القرآن من حيث إنه منزل على محمد ، خاصة في صراحة الجن ، وإحراقهم بالشهب ، ثم يستهزئ بالله (جل وعلا) . حيث لم يجعل النصر للمسلمين إلا بالسيف وعلى ظهور الخيل ، ويظهر جور الله وظلمه ، — من ذلك قتل أنبيائه ورسله ، وعدم حمايتهم وتأخير معاقبة الظالمين إلى يوم القيامة ، وأنه بساط الأمراض والمصائب على الناس ، ويشعر بالغضب والحزن والألم لأنه يرسل زبائنه يوم القيامة ليُعذبوا الخارجين على الإسلام . ولا يقف ابن المقفع عند هذا الحد بل يتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم .

ويؤيد القول في زندقة ابن المقفع ما جاء عن المهدي أنه قال : « ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع » ^(٢) . وجاء في المسعودي أن المهدي قد أمعن في قتل الملحدين والناهبيين عن الدين لظهورهم في أيامه وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته لما انتشر من كتب ماني وابن ديسان ومريقيون وما نقله ابن المقفع وغيره عن الفارسية والفهلوية ^(٣) .

أما ما يخص الكتاب فإن الأستاذ أحمد أمين يشك في نسبته لابن المقفع ، ويشك أيضا في نسبة الرد إلى ابن القاسم من الناحية الفنية . لأنه يرى أن ابن القاسم عاش في النصف الأول من القرن الثالث والستين كنه من أوله إلى آخره مسجوع متكلف السجع ، وأن هذا العصر عصر

(١) اقرأ مجلة (O. L. Z No 6, 1929, 430) (٢) ابن خلكان ص ١٨٨

(٣) المسعودي مروج ج ٧ ص ٢٩٤ وما بعدها .

الجامع لم يتكلف فيه السجع ولم تؤلف فيه كتب مسجوعة^(١) أما شكه في نسبتة لابن المقفع فالآن الأسلوب غير الأسلوب المعروف الذي يراه القارىء في كتاب الأدب الكبير والأدب الصغير ، ورسالة الصحابة ، وإنى لأرى هذا رأى ، فإن الفقرات التى أوردتها ابن القاسم لم تكن مسجوعة إلا فى القليل منها ، وأن الفكرة التى تقول إن ابن المقفع عارض القرآن بهذه الرسالة بعيدة كل البعد . فإن الاتجاه الذى اتجهه ابن المقفع لم يكن معارضة بل كان مهاجمة ونقداً . كما يظهر من هذه الفقرات التى اقتطف ابن القاسم بعضها وترك جلها « غفر الله له ذنبه » وأن أسلوب هذه الفقرات أسلوب لا يختلف عن أسلوب الأدب الكبير والأدب الصغير والوحدة فيها واضحة ، لا تخفى على الناظر .

أما السجع الذى ورد فى رد ابن القاسم فهو متكلف ظاهر التكلف ، وقد تقصد ذلك لأنه حاول أن يظهر رده بمظهر الأديب القوى الذى يمكنه أن يأتى بسجع مثل سجع القرآن فأخطأه الحظ ، ومع ذلك فإننى أقول للأستاذ أحمد أمين . متى كان السجع مختصاً بعصر دون عصر ؟ إنك تجد فى القرآن نثراً مسجوعاً ونثراً مرسلًا ، وتجد فى خطب الحجاج وزياد كلاماً موزوناً .

وكان المختار الثقفى يسجع فى كلامه^(٢) فقد قال ابن الفرق للحجاج : إن المختار يسجع وذكر له من عباراته ، فضحك . وقال كان المختار يقول — « ورافعة ذيلها ، وصايحة ويلها بدجلة أو حولها » .

وقد يؤيد ماقلته عن ابن القاسم الكتاب الذى يهزى إليه فى الرد على التصارى وهو كتاب مسجوع متكلف السجع لا يختلف عن كتابه فى الرد على ابن المقفع^(٣) .

(١) ضعى الإسلام ج ١ ص ٢٢٦ . (٢) البلاذرى أنساب الأشراف ص ٢١٦ .

(٣) برجستراسر اسلاميكا ج ٤ ص ٢٩٩ سنة ١٩٣١

ومن هنا نجد أن ابن المقفع لاقى حتمه في تهمة الزندقة تبساً للحركة
القوية التي قام بها ، وأن كلمة سفيان : « والله يا ابن الزندقة لأحرقنك
بنار الدنيا قبل نار الآخرة » كانت مطوية على قسط كبير من الحقيقة ،
وإذا قرأنا ترجمة حياة ابن الراوندي في كتاب الانتصار لابن الخطيب
نجد أن ابن الراوندي يسير تحت الألق الذي سار تحته ابن المقفع ،
ويمشى إلى الغاية التي مشى إليها .

٢ - الحلاج

اختلف علماء العرب وعلماء الاستشراق في هذه الشخصية اختلافا
كبيرا ، وكتب عنه في السنوات الأخيرة المستشرق ما سليون كتابا
ضخما ، سماه شهادة الحلاج ، عالج فيه ناحية التصوف ولم يتعرض للناحية
السياسية ، كأن الحلاج لم يكن له علاقة بالقرامطة ، وكأن الحلاج لم يكن
له شأن في السياسة . وهذا مالا أراه ! ويشاركني المستشرق هارتمن في
الرأي : فإنه لا يبرىء الحلاج في حركته من شائبة السياسة^(١) ولقد عده
المعري من الزنادقة وقال إنه مشعوذ^(٢) وقال عنه ابن النديم : إنه سياسي.
يروم قلب الدول^(٣) ويقول ابن خلسكان إنه كانت له جمعية سرية في
سوس حيث ألقى القبض عليه هناك^(٤) . ويقول البيروني إنه كان يدعو
للهدى أولا ، وزعم أنه يخرج من الطالقان بالديلم ، فأخذ وأدخل مدينة
السلام مشهراً وحبس فاحتال حتى تخلص من السجن^(٥) .

وجاء في رحلة ابن فضلان التي نشرها الأستاذ أحمد زكي الوليدي ،

(١) Hartman' O . L . Z . 205 ' 1925

(٢) رسالة الغفران ص ١٥٠ - ١٥٤ . (٣) الفهرست ص ١٩٠ - ١٩٣ .

(٤) ابن خلسكان ص ١٨٤ - البيروني . آثار ص ٢١١ .

(٥) الآثار الباقية ص ٢١١ - ٢١٢ .

لقد كان الخليفة المقتدر يخشاه لأن دعوته انتشرت بين حاشية المقتدر فانخدع به كثير .

وزاد البيروني في كتابه أنه كان رجلاً مشعبذا ، ومتصنعاً مازحاً نفسه بكل إنسان على حسب اعتقاده ومذهبه ، ثم ادعى حلول روح القدس فيه وتسمى بالإله ، وصارت له إلى أصحابه رقاع معنونة بهذه الألفاظ : من الهو هو الأزلي الأول النور الساطع اللامع ، والأصل الأصلي وحجة الجميع ورب الأرباب ، ومنشئ السحاب ، وهشكاة النور ورب الطور ، والمتصور في كل صورة إلى عبده فلان وكان أصحابه يفتتحون كتبهم إليه :

سبحانك يا ذات الذات ، ومنتهى غاية اللذات ، يا عظيم يا كبير ، أشهد أنك البارئ القديم المنير ، المتصور في كل زمان وأوان وفي زماننا هذا في صورة الحسين بن منصور . عبدك ومسكينك وفقيرك والمستجير بك والمنيب إليك . الراجي رحمتك يا علام الغيوب (١) .

كل هذه الأمور تجمعت على الحلاج فجاء به . وحوكم أمام جمع من الناس وسئل في أمره الفقهاء فأفتوا بقتله بالإجماع فقتل عام ٣٠٩ هـ ٩٢٢ م وأحرق .

٣ — حيدر بن كاووس الأقشيني

من أخطر الشخصيات السياسية الذين عالجوا قلب الحكم وتغيير الأوضاع كان قائداً المبعثم يظهر له الولاء ويبطن الشر ، ينمى إلى أصل فارسي ، من أهل أشروسنة شديد الحنق على العرب والإسلام ، كان يقول : إذا ظفرت بالعرب شذخت رءوس عظمائهم بالدبوس (٢) جيء

(١) الآثار الباقية ص ٢١٢ وما بعدها .

(٢) المقرئ ج ٢ ص ١٨٠ .

به إلى المعتصم فحوكم أمام جمع حافل وشهد عليه المازريان قائلاً : إنك كنت تقول لنا إن هذا الدين دين الإسلام إن اتفقنا أنا وأنتم محونا أثره ، ونعود إلى دين آبائنا العجم ، وظهرت عليه أمور كثيرة وكشف أمره فحكم عليه بالموت وقد قال فيه أبو تمام قصيدته المشهورة التي منها :

ما زال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سر الزناد الوارى
ويمكن أن يضاف إلى هذه الشخصيات الثلاثة شخصية أخرى ، من المفيد ذكرها لبيان وحدة الهدف وهي شخصية — يزيد بن أنيسة — أسس هذا فرقة سماها باسمه ونسبها إليه وادعى أن الله سيبعث رسولا من العجم وينزل عليه كتاباً جملة واحدة يفسخ به شريعة محمد صلى الله عليه وسلم .

الفصل السادس

الموالى والشعر العربى

تمهيد :

تركت حركة الموالى فى الترجمة ونشر العقائد والسير أثرا بينا فى الشعر العربى جعل له طابعا خاصا يميزه عن أصوله الأولى ، وأغراضه التى كان يقال فيها ، فإذا عرضنا صورة لأصول هذا الأدب أيام الجاهلية وصدر الإسلام وبنى أمية وضح هذا الطابع الجديد .

كان الشعر ديوان العرب وسجل وقائع حياتهم من آثار ومفاخر ، وكانت الذاكرة خزانة هذا الشعر ، وهى معروضة الآفات التى يتعرض لها الكائن الحى فلا عجب إذا وصلتنا أشعار العرب مربوكة غير متناسقة ، البيت الثانى لا يتعلق بمعنى البيت الأول والبيت الثالث لا يرتبط بمعنى البيت الثانى ، وليس غريبا أيضا أن يكون تدوين هذا الشعر ناقصا وأن تتولاه يد الرواة حذفًا وانتحالا كما فعل خلف الأحمر وصاحبه ، ومع ذلك فالجملة التى فى أيدينا كافية لإعطاء الصورة التى نريدها ، لأن الملاحظات مهما قيل فى كثرة المنحول فيها فإن فيها كثيرا من الصحيح الأصل ، وإن فى كثير من كتب الأدب ، مثل الكامل للبرد والعقد والحماسة وأمالى القالى والجمهرة والمفضليات وغيرها من أمهات الكتب مقطوعات صغيرة تمثل وقائع حياة الجاهلية خير تمثيل ، وإنك إذا استقرت ما جاء فى الملاحظات وفى هذه المقطوعات وجدت الشعر الجاهلى يدور على الاعتراف بالقبيلة والدم وإطاعة هذه القبيلة ضلت أو أهتدت .

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد
ويرتكز على الفتوة التي مظهرها العفة والسخاء والشجاعة والصبر
والحلم والكرم والعفو والصدق والوفاء والرحمة وعظم الهمة ورعاية
العهد ، وبعد كل ذلك تسجيل الحوادث .
يقول مقرن بن عائذ :

إني امرؤ أقنى الحياء وشيمتي كرم الطبيعة والتجنب للنخنا
من معشر فهم قروم سادة وليوث غاب حين تضطرم الوغى
ويصول بالأبدان كل مسعر مثل الشهاب إذا توقد لهغضا (١)
ويقول شاعر قيس بن ثعلبة :

دعوت بني قيس إلى قشمرت خناذيد من سعد طوال السواعد
إذا ما قلوب القوم طارت مخافة من الموت أرسوا بالنفوس المواجد (٢)
ويقول طرفة بن العبد :

إذا القوم قالوا من هو الفتى لكفاية المهم ، ودفع الشر ، ظننت
أنهم يعنونني فأجيبهم ، لا أكسل ولا أتخير ، ولا أنزل التلاع مخافة
الأضياف — فإذا استعانى القوم في قرى الأضياف أو قتال الأعداء
أعنتهم فيها .

ويوضح قيمة الحياة في ثلاثة أمور :

الخبرة ، وإغاثة المحتاجين ، والتمتع بجمال المرأة .

وتراه يجد في مقام الجد ، ويمزل في مقام الهزل ، فإذا فتشت عنه
في محافل القوم وجدته حيث الاستشارة لمهام الأمور ، وهو في حوانيت
الحجارة عند الفراغ واستجمام النشاط .

ويرى أن يكون الشاعر شجاعاً يدافع عن عشيرته بسيفه إذا هاجمها
الأعداء ، وإذا شتم الناس عرضه حماه بشعره ، وأن بقاء العشيرة موكل
بصلة القرابة ، وقطع هذه الصلة أشد من وقع السيوف .
وقيمة المرء في الحياة عند طرفة بإقدامه وصدق عزيمته وذكائه ،
ووضوح الأمر لديه على ألا يؤخر عمل يومه إلى غده بحيث يبقى متحيراً
فيذهب أمره سدى .

وتجد في لامية الشنفرى طبع الشباب على الرجولة ، وتعويدهم
الإباء والصبر والجد ونبذ الكسل ، وترك البيت للمرأة ، والاختيشان
في العيش ، فإن النعومة عنده ليست من طبيعة الرجال :

ولست بمهياف يعشى سوامه	مجدعة سقبانها وهى بهل
ولا جباً أكهى مرب بعرسه	يطالعه فى شأنه كيف يفعل
ولا خالف دارية متغزل	يروح ويغدو داهناً يتكحل
ولا تزدهى الأجهال حلى ولا أرى	سئولا بأعقاب الأقاويل أنمل

فإنى لمولى الصبر أجتأب بزه على مثل قلب السمع والحزم أنعل
أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
وأستف ترب الأرض كيلا يرى له على من الطول امرؤ متطول
وتقرأ فى معلقة زهير نوعاً آخر من الشعر يعالج فيه معضلة الحرب
وتسائجها ، ويمدح السلم ، ويعلم فتیان القبيلة أن معضلات الأمور تحل
بالسياسة والسيف ، وعلى المرء أن يكون مستعداً لدفع الأخطار مدججاً
بالسلاح كيلا يضيغ حقه ، فإن الناس إذا رأوا رجلاً لا يدافع عن
كرامته يضر سونه بأنبياءهم ويدوسونه بمناسمهم .

ويرى لبید أن من صفات الرجل العظيم ، أن يكون ضيفه مكرماً
وجاره سعيداً منعماً يسعد بقربه ، كما يسعد المرء بأيام الربيع ، ويفتخر

عشيرته وجمعها في الذمة من الشرف إذا تفاخرت العشائر . وإن منها
الحكام الذين ينفرون المظالم ويظهرون الحق ، وهم معروفون بالكرم
والوفاء والدفاع عن الشرف .

ويتحدث الحارث بن حلزة في معلقته عن بطولية عشيرته ويذكر
موافقتها بين القبائل الأخرى ، ويلقى على الناس نصائحه ويذكرهم أن
الطيش من آفات الإنسان ويذكرهم أن السلم والوفاء بالجهود من خير
ما يؤمن المعيشة في الحياة .

وعنزة يذكر شجاعته ومقارعة الأبطال ، ويفخر بنفسه ويجعل منها
مثالاً للمحارب الذي ينزل إلى الميدان للفوز بالرجولة لا لاكتساب
الغنيمة ، وأنه ملجأ قومه عند الشدائد .

ويعدد عمرو بن كلثوم في معلقته أسماء الآباء ، ويجعل من أعمالهم
قدوة للشباب ، ويمجد ما ورثته العشيرة عن هؤلاء الآباء ، ويصف وفاء
العشيرة وإتمام بنيتها العهد إلى غير ذلك . من الفخار الذي يقوى العزة
والكرامة في النفوس ويربها على الإباء والشمم .

ومن شعراء الجاهلية مضر بن ربيع الذي يخاطب قومه في التأخي ،
واجتماع الكلمة والصفح والوقوف أمام العدو (١) .

إنا لنصفح عن مجاهل قومنا	ونقيم سالفه العدو الأصيد
ومتى نخف يوماً فساد عشيرة	نصالح وإن نر صالحاً لا نفسد
ونعين فاعلنا على ما ناب	حتى نيسره لفعل السيد
وإذا نموا صعداً فليس عليهم	منا الخبال ولا نفوس الحسد
ونجيب داعية الصباح بشائب	عجل الركوب لدعوة المستنجد
ونقل شوكتها ونفشاً حميها	حتى تبسوخ وحمينا لم يبرد
ونحل في دار الحفاظ بيوتنا	رتع الخائل في الدرين الأسود

ونو الأصبغ العدواني يدعو ابنه أسيدا وهو على فراش الموت
فيقول له :

يا بني إن أباك قد فنى وهر حى ، وعاش حتى سئم العيش ، وإنى
موصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك ما بلغت فاحفظه عني^(١) .

ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم
وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك ، وأكرم صغارهم كما
تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك ،
واحرم حريمك ، وأعزز جارك ، وأعز من استعان بك ، وأكرم ضيفك ،
وأسرع النهضة فى الصريح فإن لك أجلا لا يعدوك ، وحسن وجهك عن
مسألة أحد شيئا فبذلك يتم سؤددك . ثم أنشأ يقول :

أسيد إن مالا ملكت فسر به سيرا جميلا
آخ الكرام إن استطعت إلى إخوانهم سيلا
أهن اللئام ولا تسكن لإخوانهم جملا ذلولا
وابذل لضيفك ذات رحلك مكرما حتى بزولا
واعزم إذا حاولت أمرا يفرج الهم الدخيلا
واحلل على الأيفاع للعافين واجتنب المسيلا
وانزل إلى الهيجاء إذا أبطأ لها كرها النزولا

ومن هؤلاء الشعراء المربين ربيعة بن مقروم الضبى ، نجد فى شعره
تربية الشباب على الفتوة والمروءة والرجولة ، وهو الذى يقول : « إننى
رجل أهين اللئيم ، وأحبو الكريم ، إننى من قوم إذا وقعت فى الناس
الجماعة بذلوا أموالهم ليحولوا دونها ، وإذا لبسوا دروعهم فى الحروب
وجدتهم سادة قروما ، إننى كريم أنزل المرتفع من الأماكن كى يرانى
السائرون فيأتونى أضيافا^(٢) .

وتشعر الجاهلية إلى جانب هذه التريبة القوية الفاضلة يصفون في شعرهم ما يقع عليه حسهم ويرتبط به وجدانهم ويصوغه خيالهم ، فيصفون مظاهر الطبيعة وصفا دقيقا . يصفون الرعد والبرق والسماء والسحب بأنواعها المختلفة ، وصورها في السماء ويصفون سقوط المطر وشدته ، والسيل وما يجرفه ، وما يتركه المطر من الغدران ، وشروق الشمس بعد المطر ، ثم قوس قزح ، وصفا بديعا تصورها الفاضلهم كما تصور ذلك ريشة الرسام ، كذلك يصفون السيف والرمح ، والقوس وآثارها ويشبهون لمعان السيف في الحرب كالمع ثغر الحبيب في السلم . ويصفون الديار والآثار والضعائن والجبال والوهاد والوديان ، وتخرج الرمال ، ومطاردة حمر الوحش في الصيد والغزلان ، والمها والسباع والطيور ، خاصة القطا ويصفون الناقة ويطنبون في وصفها ، لأنها تحمل أثقالهم وينتقلون عليها من محل إلى آخر ويقاثلون أعداءهم ، ويصفون الفرس ويذكرون جمالها وكرها وفرها إلى غير ذلك من هذه الأوصاف ، ويبعدون في وصف الخمر ، والمرأة تأخذ مركزا ممتازا في شعرهم ، وإذا ذكروا محاسنها ، ذكروها من الأدب من دون أن يضعوا لذة وصف هذا الجمال .

ولعل قصيدة امرئ القيس تعطينا شاهدا على ما قلناه في وصف الطبيعة

أصاح ترى برقاً أريك وميضه	كلع اليمين في حي مكال
يضىء سناه أو مصابيح راهب	أمال السليط بالذبال المفتل
على قطر بالشيم أيمن صوبه	وأيسره على الستار فيذبل
فأضحى يسح الماء فوق كثيفة	يكب على الأذقان دوح الكنهيل
ومر على القنان من نفيانه	فأنزل منه العصم من كل منزل
وتيماء لم يترك بها جذع نخلة	ولا أطما إلا مشيدا بجندل

كأن ثبيراً في عرازين وبله كبير أناس في بجاد مزمل
كأن ذرى رأس المجيمر غدوة من السيل والنشاء فلسكة مغزل

الشعر في صدر الإسلام وعصر بني أمية

لم تنطو صفحة الأدب الجاهلي فجأة بظهور الإسلام ، بل بقي محافظاً على طابعه في الأسلوب وكثير من الأغراض ، واستمر شعراء البادية ينظمون على طراز ما كان أسلافهم عليه حتى أواخر أيام الدولة العباسية ، وبعبارة أكمل حتى انقرض نظم الشعر واختفت معالمه الأصلية من بينهم .

وكل ما فعلت العقيدة في المدن ، أنها هذبت ألفاظه ووجهته وجهة أخرى إذ نقلت هؤلاء الشعراء من أفق القبيلة الضيق إلى أفق الأمة الواسع وأصبح الشاعر يزود عن العقيدة التي حملتها الأمة بدلاً من النعرة التي كانت القبيلة تعز بها . وأصبح الشعر في هذه الفترة يهدف إلى وصف الوقائع الحربية وإلى التكاثر والتفاخر أمام الوفود المناوئة ، وإلى الإشادة بهذا الدين الذي زلزل أصنام الجزيرة وفتح عيون أبنائها على ثغور العالم . وكان من أبرز الداخلين في هذا الدين من الشعراء حسان بن ثابت وكعب بن زهير وأخوه بجير ، وأبو خراش وأبو ذؤيب ، وعباس ابن مرداس . وحسان كان المجلي في هذه الحلبة فهو شاعر الدعوة وهو الذي يكثر ويعدد المآثر وينذكر شوكة الإسلام وعزته ، وحسبك أن ترى ذلك في رده على وفد بن تميم الذين وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم يعددون مآثرهم ويفاخرونه ويكاثرونه ، ولما قال شاعر هذا الوفد :

نحن الكرام فلا حي يعاذلنا فينا الملوك وفينا السادة الرفع

قام حسان بن ثابت وقال :

إن الذوائب من فهور وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع

يخشي بهم كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمم الذي شرعوا
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفاوت الأهواء والشيع
وسجل حسان بن ثابت وغيره من الشعراء أكثر الوقائع الحربية ،
وكان كثيراً ما يبدأ قصيده كما يبدو زهير بن أبي ساسي^(١) .

ثم هدأت سورة الشعر بتكاثر نزول آيات القرآن ، وأولع الناس
بدراسته وبسماع الحديث ، وصارت منزلة حفاظ القرآن والحديث أعلى
من منزلة الشاعر . وشرع الناس يفضلون رواية الحديث على رواية الشعر
وتلاوة السورة على تلاوة القصيدة واستمرت هذه الظاهرة في المدن إلى
خلافة عثمان . أما البادية فقد بقيت عامرة بشعرائها وبأساليهم وأغراضهم
السابقة

فلما جاءت دولة بني أمية ، واستروح الناس في ظلالها إلى النعيم
والدعة ، واتصلت البادية بالمدينة واتسع سلطان الأمة بالفتوح والنصر ،
وتدفقت خيرات الأمم إلى البلاد نبغ نوع من الشعر الرقيق الجميل سموه
الغزل العذري . مثله عدد من الشعراء فيهم عمر بن أبي ربيعة وجميل بن
معمر وكثير عزة وقيس بن الملوح وقيس بن ذريح وأضرابهم وكانت
المرأة يغبوع شعر هؤلاء ، يصنعون مجالسها ومحاسنها ، وأحاديثها ، وكانت
تشاركهم في الحديث ، وقرض الشعر ونقده واشتهر من بين النساء في
ذلك : سكينه بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وفاطمة بنت عبد الملك
وغيرهن .

بهر هؤلاء الناس أسلوب القرآن ، فتأثروه في شعرهم فرقت ألفاظه
وعذبت عباراته ، وسلسلت قوافيه ، فتميز في هذه الناحية عن الشعر
الجاهلي ، فإذا قرأت الصمة بن عبد الله ، وجدته سهلاً عذبا لا غرابة فيه

(١) السيرة ص ٩٣٤ ديوان حسان ص ٢٣ ، ٤٣ ، ٢٩ .

ولا تعقيد ، أنه يتنزل بحبيبه ويبيكي الأطلال والدمع مثلاً يفعل أى شاعر جاهلي ، غير أن السلسلة هنا أبين والتعقيد هناك أظهر^(١) ، واشتد هذا التأثير بأسلوب القرآن حتى أصبحت الآية تقبس لتقوم مقام بيت من الشعر — وحسبك أن ترى هذا في شعر أبي صخر الهذلي عندما يذكر حبيبه في قوله :

أما والذي أبكى وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أمره أمر
لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى اليفين منها لا يروعهما الذعر
فيا حبها زدني جوى كل ليلة ويا ساوة الأيام موعذك الحشر
عجبت لسعي الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
وما هو إلا أن أراها فجأة فاهت لا عرف لدى ولا نسكر^(٢)

وأمر شعراء هذه الخلية والمجلى فيها هو عمر بن أبي ربيعة ، قال الشعر والإسلام في الذروة من العزة والقوة ، وقد مر على عبد الله بن عباس فأنشده شعراً غزلياً فقال له عبد الله . أنت شاعر يا ابن أخي فقل ما شئت . برع عمر في هذا النوع من الغزل فأعجب به الشعراء والأدباء وتغنى به الفتيان والفتيات .

وكان الفرزدق يقول إذا سمع شعره : « هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار . ووقع هذا عليه ، ويقول جرير إن أنسب الناس المخزومي يعني عمر ، ولما سئل حماد الراوية عن شعر هذا الشاعر قال : ذاك الفستق المتشعر ، ويقول النصيب : إن عمر أوصفنا الرباب الجمال .

وشعر عمر عف نظيف لم يسلك فيه سبيلاً رديئاً ، كان يقول عن نفسه ، والله ما أعلم أتى ركبت فاحشة ، إنما أنا امرؤ موكل بالجمال

(١) حماسة ج ٢ ص ٦٠ .

(٢) حماسة ج ٢ ص ٦١ .

أخبرته (١) ، وكان يصرح : ما ألد ما فبجبالهم ويتحدث إليهم ويلبسون
 حديثهم وكان يسكنون إليه ويحبون شعره . حدثنا صاحب الأغاني : أن
 نسوة اجتمعن فذكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وظرافه ومجاملته ،
 وحديثه ، فقتشوقن إليه . فقالت سكيكة بنت الحسين أنا لسكن به ،
 فبعثت إليه رسولا أن يوافي الصوريين ليأخذ سميتها . فوافاهن تلى رواسته
 فحدثن حتى طلع الفجر . وحان انصرافهن فقال لمن : « والله اني لمحتاج
 إلى زيارة قبر النبي في مسجده ولكن لا أخطأ بزيارتك غيرها .
 ثم انصرف إلى مكة .

ومن روائع غزله في نهم قوله :

طال ليلى واعتادنى اليوم سقم وأصابت مقاتل القلب نهم
 حرة الوجه والشمالك والحوهر تكليمها لمن نال غنم
 وحديث بمثله تنزل العصم رخيم يشوب ذلك حلم
 هكذا وصف ما بدا لي منها ليس لي بالذى تنفيس علم
 إن تجودى أو تبخل فيحمد لست يا نهم ١ فيهما من يذم
 وفي وصف أخرى :

أبرزوها مثل المها تهادى بين خمس كواعب أتراب
 ثم قالوا تحبها ! قلت بهرا عدد القطر والحصا والتراب
 وهى مكنونة تحير منها فى أديم الخدين ماء الشراب
 وكان يزاحم جميلا ويباريه فى شعره ، فإذا قال جميل شعرا جاء عمر
 بمثله ، فقد نظم عمر رائيته على غرار رائيته جميل ، ولا مته على نحو
 ما نظم جميل (٢) .

ولما مات عمر جزع عليه أهل مكة فقالت جارية : دمن لمكة وشعابها
 وأباطحها ، ووصف نساءها وحسنهن وجمالهن ووصف ما فيها ، ؟ فقل لها

خففتي عليك فقد نشأ فتى من ولد عثمان يأخذ مأخذه ويسلك مسلكه
فقلت : أنشدوني من شعره ، فأنشدوها ، فمسحت عينيها وضحكت وقالت
الحمد لله الذي لم يضيع حرمه (١) . وهكذا أصبح العرجي خليفة لابن أبي
ربيعة وأفتتد مكانته في الفزل والوصف ، حادث النساء ووصفهن ووصف
بجالسهن وصارت له مهن حادثات تشبه حادثات ابن أبي ربيعة . حدثنا
مؤرخو الأدب أنه كان يهوى امرأة من بنى تميم ، وكان يتعرض لها فإذا
رأته رمت بنفسها وتسترت منه ، وفي يوم من الأيام بعصر بها في نسوة
يتحدثن فأحب أن يتأملها من قرب فعذل عنها ، وتنكر وجاء بوطب ابن
إلى النسوة فقلن له أعندك ابن ؟ فقال نعم ، ثم أعطاهن فأخذ النسوة
يشربن وحببته بجالسة لم تعرفه وهو ينظر إليها وينظر إلى الأرض كمثل
رجل أضاع شيئاً فسأله إحداهن ماذا أضعت أيها الفتى ؟ فقال قلبي ،
فشعرت حببته بذلك وعلمت أنه العرجي فاخفتت منه ، وقام النساء
فسترنها عنه وقلن له انصرف عنا لا حاجة بنا إلى ابنك فقام فيها قصيدة :

لحيني والبلاء لقيت ظهرا بأعلى النقع أخت بنى تميم
فلما رأيت عيناى منها أسيل الخد فى خلق عميم
وعيني جؤذر خرق وثرغرا تكون الأفحوان وجبدريم
حننا أترابها دونى عليها حنو العائدات على السقيم

ومن هؤلاء الشعراء ابن أذينة ، وهو شاعر فقيه ومحدث يصف
حببته وصفاً عفا جميلاً :

إن اتى زعمت فؤادك ملها خلقت هواءك كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها بليلقة فأدقها وأجلها
حببت تحيتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرها لنا وأقلها
وإذا وجدت لها وساوس سلوة شفع الضمير إلى الفؤاد فسألها

التشعر هذا النوع من الشعر ولها به كثير من الشعراء وشاركهم النساء المملوكة بأسمائهن كتب الأدب .

ونشأ إلى جانب هذا الشعر الرفيق العف شعراً سياسياً يمدح به الشعراء من يميلون إليه من الأمويين والعاويين . وشعر هجائي متذعقاً من قسم الشعراء حزبيين أحدهما ينحصر جريراً والآخر الفرزدق وأخذ مكانته في التعبير عن هذه الفترة في السلوك والحياة وله مثل واضح في نقائض جرير .

وموجز القول أن الشعر في هذه الفترة من صدر الإسلام إلى انتهاء أيام بني أمية كان طابعه في الدفاع عن العقيدة والدعوة لها وتسجيل الوقائع الحربية والحث على الجهاد في صدر الإسلام .
والنزل العفيف والمدح والانتصار للمتنازعين على الحكم والرياسة والهجو العنيف الذي بعثته خصومة جرير والفرزدق في أيام بني أمية .

اتجاه الشعر في صدر الدولة العباسية

أثر المانوية والمزدكية فيه

مهدنا في مستهل هذا الفصل بصورة بيّنة لأغراض الشعر وأساليبه أيام الجاهلية وصدر الإسلام وأيام بني أمية ، لتكوين هذه الصورة عوناً على معرفة ما تركته حركة الموالى من أثر في توجيه الشعر في صدر الدولة العباسية . وقد رأينا في تلك الأطوار الثلاثة ، أن الانتقال من طور إلى طور وإن كان فيه شدة ، إلا أنها شدة لم يصحبها عنف ، فلم يكن هناك اختلاف ظاهر إلا فيما اقتضته طبيعته هذا الانتقال .

أما انهيار الحكم الأموي ، وقيام الحكم العباسي ، فقد كان الانتقال فيه عنيفاً ، ولم يكن الصراع فيه بين أسرة وأسرة في أمة واحدة بل كان بين أمة غالبة وأمة مغلوقة ، وكان صراعاً طويلاً خفياً يظهر وميضه خلال

الرماد في الفينة بعد الفينة ، وكان حكام الأمويين في الأقاليم يعرفونه ، وكانوا يذنبون عليه فلم يسمع لهم مركز الدولة صوتاً .
والصراع إذا انتهى إلى غلب بعد طول مدة ، تنكشف بعد انتهائه الطبائع وتتغير النفوس وتتبدل آفاق التفكير . فتتحول قواعد الاجتماع شأن كل رجة عنيفة من رجات المجتمع تحدثها ثورات تسبقها آراء وأفكار تمهد لها .

فلما تم الأمر لبني العباس وتمكنت لهم دعائم الدولة وأسرع العمران إلى البلاد وأنشأوا بغداد عاصمة الخلافة شرع ينحدر إليها الشعراء والمغنون من البوادي والحواسر . وتدفقت موجة العناصر الجديدة الدائنة في الإسلام وكان أبرزها العنصر الفارسي المجاورته والمعاضدة العباسيين في انتقال الحكم إليهم من الأمويين فجلسوا في حقائبهم كتب حضارتهم وفي أفئدتهم عقائد أسلافهم .

والعراق بلاد الرافدين ، خصب الجوانب ، نبتت فيه الجنان وورفت فيه المتنزهات ، وشقت الترع والأنهار وشيدت القصور وأقيمت الحمامات ونظمت الشوارع ، واتخذت السفن شرعاً تنحدر وتعلو في دجلة تحمل الخلفاء والأمراء ، تحف بهم حاشيتهم من الوزراء والنداء والمغنين والمصنحين . وأصبحت بغداد سوقاً تباع فيه الجوارى الحسان ، ترد إليها من الشرق والغرب . والمرأة والطبيعة الخصبة منبعان للأدب ومادتان عظيمتان للشاعر تبعثان فيه روح الابتكار فإذا اتسع أفق الثقافة وزادت المعرفة من التجارب وتنوعت المحسوسات وتعددت الحوادث استطاعت مخيلة الشاعر أن تتصور وتتخيل وتلشى وتبدع بخلاف مخيلة أخرى لم تقع حواسها على ما وقعت عليه حواس الثانية ، وهنا يفرق عصر عن عصر ، وأخلاق جيل عن أخلاق جيل آخر ، بل إن الشعراء في عصر واحد يختلف أحدهم عن الآخر تبعاً لهذا القانون وتبعاً لاختلافهم

في العيشة والمزروعات التي تنمو دما الحواس . لذلك لم يكن عبثاً بجواب
ابن الروي حين قيل له : لم لا تشبه تشبيهات ابن الهيثم ؟ فقال : من أين
لي ذلك ؟ إنه ابن خليفة يرى ما عنده فيصنعه ، وأرى ما يقع تحت
عيني فأصنعه .

اتسعت دائرة الترجمة العلمية على اختلاف أهدافها . وانصرف الخلفاء
إلى تشجيع الناس في تدوين العلم ونقله عن كتب السريان واليونان والهند
والفرس ، وساهم البرامكة مساهمتهم المخروفة ، فنقلت كتب كثيرة في
المنطق والفلسفة والزهد والطب والسير والتواريخ والعقائد والأدب
والقصص والشعر وما إلى ذلك مما امتلأت به خزانات الحكمة ، ومكتبات
الأدباء والعلماء . فإذا رأينا في دراسة الشعر الجاهلي مجموعة من الشعراء
والأدباء يعلون الناس الأدب وينشئون الفتيان على الرجولة بما يقصدون
من القصائد ويقصون من القصص ، وما ينثرونه في مجالس الحديث ،
ورأينا في صدر الإسلام وعصر بني أمية فريقاً يدافع عن عقيدة محمد
ويصف الوقائع ويحرض على ارتداء الفضائل والتدح بهذه الشريعة الغراء
وفريقاً غزلاً يفتح صدور الفتيان للحب العذري ويفسح في مجالس
الأدب مكاناً للفتيات يتنادرن مع الفتيان فإننا نرى في العصر العباسي
شيئاً آخر مبيناً لكثير مما ذكرناه في الأيام السالفة .

هنا فريقان من الشعراء . فريق ظل وفياً للبادية ، لازم قوة لهجته .
ونشامة أسلوبه وصراحة تفكيره ووضوحه واستمداد خياله مما تقع
عليه حواسه من مرئيات باديته ، وفريق درج في هذه الحضارة ثقف
العربية ودرس القرآن والحديث وقرأ ما ترجم من علوم الأمم المتحضرة
أو جاء بما كان عند أمته من ثقافة عامة ، ومن هذا الفريق جماعة مبرزة
من دخلوا في دين الإسلام ظلت تتردد بين جوانحهم عقائد أسلافهم
من المزدكية والماسونية زحرت بهم أسواق الأدب ومجالس الأمراء

وقصود الخلفاء ، وانبشوا في الحانات والأديرة والأندية يستغنون بشعرهم وينشرون آراءهم دون تحفظ أو خجل وكان من خصائصهم تأليف جماعات دعيت جماعات المجان وسموا الزنادقة ، وقد عرف من هؤلاء أنهم يستهزئون بالقرآن والصلاة والحج وينسكرون البعث والحساب والملائكة والجن ويعتقدون بتناسخ الأرواح وإرجاع الأشياء إلى أصلين اثنين : النور والظلمة وهما مصدر كل مادة ، لذلك لا يعتقدون إلا بما تقع عليه الحواس ومنهم من يميل إلى أكل النبات ويمتنع عن أكل اللحوم وما إلى ذلك من الأمور التي عرفت عن المانوية والمزدكية .

وقد كانوا يجهرون بالإباحة المطلقة ، وكانت آرائهم هذه مثار جدل وتعب للخلفاء الذين يريدون توطيد أركان الدولة في ظلال من الطمأنينة ، فلما اشتدت حركتهم وانتشر أدبهم وكثر أتباعهم والمتغنون بمأثورهم لم ير الخلفاء بداً من عقابهم ، فوكلوا بهم صاحب الزنادقة لأن من كان يعرف بمثل هذه الآراء كان يسمى زنديقاً ، وحكم على بعض المشهورين منهم بالقتل وعلى البعض الآخر بالحبس ، ومن مشاهير أدباء الزندقة عبد الله بن المقفع وحماد عجرد ، وأبان بن عبد الحميد اللاحق ووالبة بن الحباب وأضرابهم من الكتاب ، وبشار بن برد وأبو الغنمية وأبونواس وأمثالهم من الشعراء .

وقد أثر الأدباء والكتاب تأثيراً بليغاً في نشر الآراء وإثارة الشك كما أثر الشعراء بمثل ذلك في توجيه النظم والغناء وطبعه بطابع خاص ، ولعل هؤلاء الشعراء الثلاثة خير مثل يوضح ما ذهبنا إليه في هذه الرسالة ، وقد اخترتهم لأنهم كانوا من كبار أصحاب النظم الذين يتأثر بهم غيرهم ويقلدونهم في أساليبهم وآرائهم .

١ - بشار بن برد

يُتَبَرَأُ بِشَارُ بْنُ بَرْدٍ الْمَكَانَ الْأَوَّلَ بَيْنَ الشُّعْرَاءِ فِي الزُّنْدَقَةِ وَهُوَ مِنْ عَجَمِ طَخَارِسْتَانَ^(١) وَكَانَ بِلَاؤُهُ لِسُنًى عَقِيلًا ، نَشَأَ بَيْنَهُمْ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ ، وَقَالَ الشُّعْرَ وَهُوَ صَغِيرُ السِّنِّ ، فَلَمَّا كَبُرَ حَسَنَ شَعْرَهُ وَانْتَشَرَ بَيْنَ النَّاسِ ، وَكَانَ يَقُولُ عَنْ نَفْسِهِ إِنَّ لِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ بَيْتٍ مِنْ جِيَادِ الشُّعْرِ . فَقِيلَ لَهُ : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : لِي اثْنَتَا عَشْرَةَ أَلْفَ قَصِيدَةٍ ! أَمَا فِي كُلِّ قَصِيدَةٍ مِنْهَا بَيْتٌ جَيِّدٌ ؟

بَيَدُ أَنْ هَذِهِ السَّكْثَةُ لَمْ تَصِلْنَا مِنْ شَعْرِ بِشَارٍ ، وَمَا وَصَلْنَا مِنْهَا فَهُوَ قَلِيلٌ مَتَنَاسِرٌ فِي كُتُبِ الْأَدَبِ وَالتَّارِيخِ ، قَدْ جُمِعَ فِي دِيْوَانِ صَغِيرٍ لَا يَتَّفِقُ حَجْمُهُ مَعَ هَذَا الْعَدَدِ الْكَثِيرِ الَّذِي أَثْبَتَهُ بِشَارٌ لِنَفْسِهِ .

وَبِشَارٌ شَاعِرٌ ، وَخَطِيبٌ صَاحِبُ مَنْشُورٍ وَجَمْعٍ وَرِسَائِلٍ ، وَهُوَ مِنَ الْمَطْبُوعِينَ أَصْحَابِ الْإِبْدَاعِ وَالْإِخْتِرَاعِ الْمُتَغَنِّينَ فِي الشُّعْرِ ، الْقَائِلِينَ فِي أَكْثَرِ أَجْنَاسِهِ وَضُرُوبِهِ^(٢) وَهُوَ مِنْ طَرَازِ الْأَعَشَى وَالنَّابِغَةِ بَيْنَ الشُّعْرَاءِ مِنْ حَيْثُ الْأَسَاوِبُ وَالْجَزَالَةُ . وَقَدْ انْتَشَرَ شَعْرُهُ بَيْنَ النَّاسِ فَلَمْ يَبْقَ غَزَلٌ وَلَا غَزَلَةٌ إِلَّا يَرُوى شَعْرُهُ وَلَا نَائِثَةٌ وَلَا مَضْنِيَّةٌ إِلَّا تَتَكَسَّبُ بِشَعْرِهِ وَلَا ذُو شَرَفٍ إِلَّا وَهُوَ يَهَابُهُ وَيَخَافُ مَعْرَةَ لِسَانِهِ^(٣) .

يُذِينَ بِالرَّجْمَةِ وَيَكْفُرُ جَمِيعَ الْأُمَّةِ وَيَصُوبُ رَأْيَ إِبْلِيسَ فِي تَقْدِيمِ النَّارِ عَلَى الطِّينِ فَالْأَرْضُ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ وَالنَّارُ مَشْرُوقَةٌ وَالنَّارُ مَعْبُودَةٌ مِنْذُ^(٤) وَجُودِهَا وَإِبْلِيسُ فِي رَأْيِهِ خَيْرٌ مِنْ آدَمَ لِأَنَّ إِبْلِيسَ خَلَقَ مِنَ النَّارِ وَآدَمَ صُورَ مِنَ الطِّينِ وَلَا يُمْكِنُ لِلطِّينِ أَنْ يَسْمُوَ سَمَوِ النَّارِ .

(١) أغانى ج ٣ ص ١٣٨ - ١٤٥

(٢) أغانى ١٤٥ - ١٤٩

(٣) الأغانى ص ١٤٩

(٤) أغانى ص ٢٢٧

ويهنأ بشار بالإسلام وبالأذان وينسكرك البعث والحساب ويفضل شعره على القرآن وقد سمع مغنية تغنى بشعره فأعجبه صوته وغناؤها فقال هذا والله أحسن من سورة الحشر^(١)

قال فايدا Vaida في معرض كلامه عن الزنادقة لو صدقنا التمازي التهكمية التي وجهها بشار بعد موت حماد بن عمار إلى صاحبه حبيب لو جئنا أن الزندقة هي الاعتقاد بالاثني وإباحة النساء . وكان حماد بن عمار يقول : إنما يغيضني من بشار تجاهله بالزندقة وهو والله أعلم بالزندقة من ماني^(٢) .

وكان مجلس بشار مثابة الماجنين والخاليين يجتمعون عنده فيستمعون إلى قصائدهم ويقولون إن هذه القصيدة أو تلك خير من سورة كذا . وقد حاوره أحمد بن خالد في ميله إلى الإلحاد فكان يقول لأعرف إلا ما عاينته أو عاينت مثله وختم مناقشته بهذه الآيات التي لا تدل إلا على رأى ينسكرك الحرية ويعترف بالعجز أمام المخيمات ويضرب عن فهم تقلبات الحياة قال :

طبعتم على ماني غير مخير هـواي ولو خيرت كنت المهذبا أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد وقصر على أن أنال المنى فأصرف عن قصدي وعلى مقصر وأمسى وما أعقبت إلا التعجبا وكان بشار إباحي النزعة ، يقال إن له مجلسا يدعى البردان وكانت النساء يحضرنه فإذا تكلمت امرأة سمع صوتها فعشقتها . وبعث إليها غلامه يكلمها ، فإذا أبت ذلك بعث إليها بشعر فاحش^(٣) .

قال سوار بن عبد الله ومالك بن دينار ، ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة من الفسق من أشعار هذا الأعشى ، وقال واصل بن عطاء إن من

(١) أغاني ص ٢١١

(٢) أغاني ص ٣٠٦ راجع عن زندقته رسالة الغفران ص ١٣٩ ، Rivista studi orientali, XVII 173-229

(٣) أغاني ج ٣ ص ٢٠٢ .

أنتاح سبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الملحد الأعشى ، ويقول
أبو عبيدة : - أي حرة - حسان تسمع قول بشار فلا يؤثر في قلبها فكيف
بالمرأة الغزاة والنشاة التي لا هم لها إلا الرجال ، ثم ذكر قصيدته الرائية (١)

وكان يحرض النشيان على ملاحقة النساء ويقول طير لا تياسوا منهن
قاس المسموم تنل بها نجيها والليل ان وراءه صبيها
لا يئس منك من مخبأة قول تغلفه وإن جرحا
عسر النساء إلى مياسرة والصعب يمكن بعد ما جهجا (٢)

فلما سمع المهدي بذلك قال له تملك أمك ! تحض الناس على الفجور
وتقذف المحصنات المحبات والله لأن قلت بعد هذا بيتاً واحداً لا تين
على روحك .

وأما من الناحية السياسية فقد كان بشار متعصباً لقومه يكره العرب
ويشتمهم شتما مقذعاً ويرى أن الموالي أفضل من العرب (٣) ويرغبهم في
الرجوع إلى أصولهم وتركهم الولاء ، حدثنا صاحب الأغاني أن رجلاً
شريعياً من بني زيد وقف على بشار فقال له : يا بشار لقد أفسدت علينا
موالينا تدعوهم إلى الانتفاء منا وترغبهم إلى الرجوع إلى أصولهم وترك
الولاء وأنت غير زاكي الفرع ولا معروف الأصل ، فقال بشار : والله
لأصلي أكرم من الذهب ولفرعي أزكى من عمل الأبرار وما في الأرض
كلب يود أن نسبك له بنسبه ولو شئت أن أجعل جواب كلامك شعراً
لفعلت ولكن موعدك غداً بالمربد ، فرجع الرجل إلى منزله وهو يتوهم
أن بشاراً يحضر معه المربد ليفاخره ، فخرج من الغد يريد المربد فإذا
رجل ينشد قصيدة كلها خش وشم ، فسأل عن هذا فقيل له : هذا
بشار فيك ، فرجع إلى منزله ولم يدخل المربد أبداً (٤) .

(٢) أغاني ج ٣ ص ٢٤٠ .

(٤) أغاني ص ٢٠٣ .

(١) أغاني ج ٣ ص ١٨٠ .

(٣) أغاني ص ١٦١ .

ولما قتل أبو مسلم الخراساني اغتساظ بشار بن برد فأنشد قصيدة يتوعد فيها أبا جعفر المنصور .

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم
كأنك لم تسمع بقتل متوج عظيم ولم تسمع بقتلك الأعاجم
ومروان قد دارت على رأسه الرخي وكان لما أكرمت نؤر الجرائم
فأصبحت تجري سادر آفي طريقهم ولا تتقي أشباه تلك النقايم
وقد حفظ سياسيو الفرس لبشار هذه اليد في ثورتهم الأدبية ، فلما انتصر المأمون على الأمين وجاء طاهر بن الحسين إلى بغداد أخذ يسأل عن أولاد بشار كي يساعدهم على شؤون الحياة . أحدث بشار ثورة أدبية كبرى وانتشر أدبه في البلاد لأن شعره جميل سهل الحفظ جزل الأسلوب تقبله الأسماع وتناثر به الفرائز ، تجدد فيه مظهرين واضحين الإباحة المطلقة والدعوة إلى النار والنور وهي مبادئ جاءت بها المزدكية والمناوية وهذه لا تلائم طبيعة العربي وعقيدته فإذا كان بشار بن برد يقدر النور فإن المتنبي يستخف به وبالمناوية ويقول :

وكم لظلام الليل عندك من يد تحدث أن المناوية تكذب
وإذا كان بشار يدعو إلى الإباحة المطلقة فإن غيره الخلفاء وتقاليده المجتمع وتعاليم الدين تخالف ما يدعو إليه .

كان بشار رجلاً أعمى لا يجد في نفسه حرجاً فيما يقوله ولا يخاف أحداً وإذا أراد شيئاً بلغه بسهولة ، وإذا امتنع عليه أحد هجاه هجاء مقذعاً . اجتمعت على بشار كل هذه العوامل السياسية والاجتماعية والدينية فكان مآله إلى ما يشول إليه كل زنديق متطرف في ذلك الزمن ، فأمر الخليفة المهدي صاحب الزنادقة أن يقتل بشاراً فقتله . فلما مات لم يبق شريف بالبصرة إلا بعث لصاحب الزنادقة بالفرش والكسوة والهدايا . مات بشار بالبصرة وقد بلغ نيفاً وسبعين عاماً من العمر^(١) .

(١) الأغاني ج ٣ ص ٢٤٩ ، بروكلمان ج ١ ص ١١٠ ، كزيمر مقتطفات من تاريخ الثقافة ص ٣٥ . ويقال أن بشار بن برد قتل انتقاماً ليعقوب بن داود لأنه هجاه .

٢ — أبو نواس

عرف بين عامة الناس أن أبا نواس شاعر هزلي مضحك ، ونديم للخليفة في البلاط يدفع عنه بمزاجه ونكاته وشعره هموم الحياة ومتعب أعباء الحكم .

وعرف بين الناقدين من العلماء أنه شاعر من أكبر شعراء العربية في العصر العباسي الأول . فالعامة يرددون ما سمع من نكاته وما وضع عليه منها يلهون بها فيظرف مجلسهم ويشيع فيه الضحك والمرح . والنقاد من العلماء يضعونه في بحوثهم فيجدونه وصافا للخمرة من الطراز الأول مبتدعا انزل يخالف سنة الطبيعة ، وهو في هذين النوعين من النظم مجلي في حلبة أقرانه لا يتقدم عليه واحد منهم .

فهو إذن في عرف هؤلاء جميعاً رجل شغل نفسه بوصف الخمر والغلمان ونادم الخلفاء يمدحهم ويضحكهم ويدخل السرور على أنفسهم . ولكن لأبي نواس ناحية أخرى غير هذه الناحية ، وهدفاً في الحياة أبعد من هذا الهدف ، فهو راوية ناقد ذكي الفؤاد ، ثبت الفهم ، متكلم ، عالم بأخبار العرب وأيامهم وغريب اللغة . اتصل بخلف الأحمر يروي عنه ويسأله عن الشعر ومعانيه ، وبأبي عبيدة يسأله عن أخبار العرب وأيام الناس ، درس نحو سيبويه ، وأخذ عن أبي زيد غريب الألفاظ^(١) ، وجالس الفقهاء واستمع إلى أصحاب الكلام وتعلم منهم واتصل بالشاعر الماجن والبة بن الحباب فتأثر به وأخذ عنه^(٢) .

واحتضنه الموالي وأشادوا بذكره ومدحوه أمام الرشيد حتى اتخذ المقام الأول بين الندامى في بلاط الخليفة^(٣) ، وقابلهم مدحا بمدح

(٢) أغاني ج ١٦ ص ١٥٠

(١) أخبار أبو نواس ص ٢٣ — ٢٧

(٣) أخبار ص ٢١٦

وإشادة بإشادة ، فأبو عبيدة في رأى ابن أبي نواس أديم طوى على علم
وخلف الأحمر جمع علم الناس وفهمهم ، والأصمعي بلبل في قفص^(١) .
وتقدم أبو نواس في هذه الحياة حتى صار قطبا من أقطاب جمعية
البرامكة التي كانت تشغل في قلب نظام الحكم وتوجيه العلم والأدب .
فكانوا له ظلا ، وكان لهم ردها يدفع عنهم غضب الرشيد وينشر محاسنهم
بين الناس ، ويكفونه مؤنة الحياة ، قال المستشرق كريم ناشر ديوان
أبي نواس — لقد كان أثر أبي نواس على الرشيد كبيرا ، فكان يكفي أن
يقول البيهقيين يفتأ بهما غضبه عن البرامكة أو يقلله . وقد مدحهم بقصائد
خلدت ذكراهم^(٢) .

لقد كان ذكيا واسع الحيلة يعرف كيف يجد ، ويعرف كيف يهزل ،
ولو لم تكن له هذه القدرة لكان نصيبه القتل مثلما كان نصيب صاحبيه
ابن المقفع وبشار بن برد ، وبهذه القدرة استطاع أبو نواس كما يقول
كريم أن يستخف بالعقيدة وينشر الضلال والزندقة ويتكلم ما يريد دون
حياء أو خجل^(٣) .

اتهم أبو نواس بالزندقة وعد بين كبار الشيعة وشهد عليه كثير
أمام الأمين فحبسه في حبس الزنادقة ، وقال عن نفسه : كنت أتوهم أن
حماد مجرد إنما يرى بالزندقة لمجونه في شعره حتى حبست في حبس
الزنادقة ، فإذا حماد مجرد إمام من أئمتهم . وإذا له شعر مزاج بيتين ،
يقرءونه في صلاتهم^(٤) .

وما من شك في أنه متأثر بالمانونة والمزدكية ، فهو لم يخرج عن
سبيل غيره من عرفوا بهذا الميل فإنه يرى في العقيدة الجديدة قيда من

(١) أخبار ص ٢١٦

(٢) كريم — ديوان أبي نواس ص ١٥ ، ١٧ ، ٢٠ (٣) المصدر نفسه .

(٤) راجع الأغاني ترجمة حماد مجرد .

قيود الحياة ويرى أن يتكرر المرء من هذه القيود ويتمتع بالذات ولا يؤمن إلا بما يقع عليه الحس ، وينسكز البعث وهو في نظره خيال أمره مظلّم وعلى المرء أن يغنم هذه الفرصة ويستفيد من الموجود لأن الغائب لا علم له به ، ولم يأت أحد يخبره في جنة من مات أو في نار .

ومن مبادئ المانوية إثارة الشك في العقيدة ومهاجمة جميع الأديان لتغلب عليها أما الغزل بالذكر فإنه ينحدر من أصولها ؛ قال البيروني في تاريخه (ص ٢٨) عند الكلام على المانوية : أن كل مانوي يصطحب غلاماً أمرد ويستخدمه في شئونه ، ولم يكن هذا الغزل مألوفاً في شعر العرب^(١) وقال حمزة الأصبهاني ، جامع ديوان أبي نواس إن أبا نواس هو الذي ابتدع غزل المذكر وإذا لم يكن هو البادى فإن هذا النوع لم يحدث إلا في العصر العباسي لأننا لم نر ذلك في شعر الجاهليين والإسلاميين إلا أيام بني أمية ، وشعراء العرب لم يغنوا إلا بالمرأة ، فلما قدم جيش المسودة من خراسان لنصرة بني العباس كان يصحبهم الغلمان يستخدمونهم فلدشاً عن ذلك هذا النوع من الغزل وانتشر بين شعراء هذا العصر .

وزعم الجاحظ في صحيفة بقيت من كتاب المعلمين ، أن هذه العادة بدأت بين جند خراسان حين قدموا إلى العراق واصطحبوا معهم الغلمان ، بخلاف ما كان عليه جند المسلمين في الحرب إذ كانوا يصحبون نساءهم معهم ، ثم قال الجاحظ ولو كان هذا النوع من الغزل منتشرًا بين العرب لوصلنا منهم الشعر الكثير كما وصلنا من شعرهم في المرأة^(٢) .

(١) Reseher arab. Lit, S. 16, Ahlwardt, Uber Poesie and Poetik, S 56.

(٢) Eugen Mittwoch' die literarische tatigkait Hamza al gsbahani:—

Mitt. sem. or. sprache XII (1909) westas. st. 137 ff.

وتقنن أبو نواس في غزله ووصف غلمانته بأنواع الوصف الذي
تساعد عليه اللغة العربية ، ومنعهم الأوصاف التي توصف بها الحسان
فالجميل في نظره ، أحور العينين ذو صدغ ، له حاجب كالنون وهو خوط
بان منور ، وله لشفة وكشح مخضر ، أو هو البدر يمشى في قراطقه ،
أو دعس من رمل في غصن البان ، ويعجبه من غلمانته الأمرد الطير
ذو الكفل الأهيف ، فإذا نبئت لحيته زوى أبو نواس وجهه عنه وولى
ويسدر في غلوائه حتى يهوى السماء بغلمانته^(١) ولا يدع معنى من المعاني
التي تثير هذه الغريزة إلا أتى به في إسراف لا تقبله الطبيعة التي تريد
التوازن بين جميع الفرائض فإن الطبيعة جهزت الكائن الإنساني بقوى
كافية لبقائه واستمراره في الحياة . فإذا أسرف في قوة من قواه اختل
هذا التوازن وناء هذا الكائن بعبء هذا الاختلال ، والغريزة الابتدائية
إذا سيطرت وحدها لتشبع نهمها بشدة وعنف أثرت أثراً بالغاً في إخفاء
المواهب وإضعاف الطموح ، وهو ما تريده المأنوية .

أما الخمرة فقد كانت عنوان قصائده ، وغرر شعره ، فإذا كان العرب
قبلاً يفتتحون قصائدهم بذكر الأطلال والدمن والظمائن والأوطان ،
فإن أبا نواس جعل الخمرة فاتحة القصيدة ووصفها بأنواع الأوصاف
وشبهها بالتشبيهات الواضحة وحجبها إلى الناس وأغرامها بها ، فهو يشبهها
بالنور إذا حلت بالزجاجة ، ورغوتها أو زبدتها بالنجوم تارة وأخرى
بالعضة أو الدر ولعانها بلمعان البرق ، وجعلها معبودة تسجد لها الملوك ،
وإذا دارت كنوسها حسبتها النجوم في السماء وإنها في دن نسج العنكبوت
عليه بيوته وقد عمقت فيه ورقته حتى أصبحت في رقة دين أبي نواس
كما يقول ذلك عن نفسه . كالدمع صفاء وحسنا ، وكقطر الطل في الرخام

(١) راجع ديوان أبي نواس ص ٢٠٣ وما بعدها .

الإنسان ، ولا تقول الأعران ساحتها ، وإذا مسها حجر طرب وتهلل
بالفرح والبشر وهكذا يعرى أبو نواس بمعاقرة بنت الدنان ويطلب
منهم ألا يتأخروا عن ذلك ، إذا حل الربيع وربت الأرض وزهت
وأنبئت من كل زوج بهيج^(١) .

انحدر أبو نواس من أصل فارسي كما يقول الأصمعي وادعى النين
وتولاهم^(٢) واستقبل ضياء الشمس بالأهواز ونشأ بالبصرة . وهو يعتز
بفارسيته في شعره ويفخر بأجداده ويقول :

بلينا على كسرى سماء مدامة مكللة حافتها بنجوم
فلورد في كسرى بن ساسان روحه إذن لاصطفاني دون كل نديم^(٣)

تراث أبي ساسان كسرى ولم تكن مواريث ما أبقت تميم ولا بكر^(٤)

تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها مها تديرها بالقسي الفوارس^(٥)

فاسقنيها وغن صوتاً — لك الخير أعجا
ليس في نعت دمنة لا ولا زجر أشأما^(٦)
إننا نجد في شعر أبي نواس مظهراً واضحاً من مبادئ المانوية والمزدكية
من حيث إثارة الشك في العقيدة ومهاجمة الدين والإباحة المطلقة والفزل
بالمذكر ونرى إلى جانب ذلك تعصبة لقومه والإشادة بهم والخط من
شأن الدين والأدب العربي وأساليبه .

(٢) أخبار أبي نواس ص ٩

(٤) ديوان ص ١٦٦

(٦) ديوان ٢٠٢ .

(١) اقرأ ديوان أبي نواس

(٣) أخبار ص ٧٥

(٥) ديوان ١٨٢

وتحضرني في هذه الوجهة مقارنة موجزة بين أبي نواس شاعر
العباسيين وبين هاينرش هاينه شاعر الراين فقد انحدر هاينرش هاينه
من أصل يهودى إلى مجتمع جرمانى وثقف ثقافة ألمانية واعتنق الدين
المسيحى كما انحدر أبو نواس من أصل فارسى إلى مجتمع عربى وثقف
ثقافة عربية واعتنق الدين الإسلامى .

ولد شاعر الألمان فى دسلدورف عام ١٧٩٧ ودخل فى الدين
المسيحى عام ١٨٢٥ وتوفى عام ١٨٥٦ فى باريس وعلا صيته فى الشعر
حتى أصبح يلقب « شاعر الراين » والراين نهر يجرى فى مقاطعة شعرية جميلة
من أجل البقاع فى ألمانيا ، بها ترعرع هاينه وثقف ونظم الشعر وكان
يقبل النظم بنسب الأسلوب ، يتخير الألفاظ الغنائية والتشبيه الواضحة .
وهو فى أسارىه وساوكة يشبه كثيراً أبا نواس ، فهو حاد السكتة كثير
الطزل ، يتكلم ويصف فى غزله وهزله دون حياء أو خجل ، ليس للرديلة
عنده قيود أو حدود ، بل هى عنده جماع الفضيلة . وكان أثر شهره
الغنائى شديداً على الفتيان والفتيات ، ويرى أن الحياة لا تعرف على
حقيقتها إلا إذا نزل المرء إلى الحمأة — أى إن الإنسان لا يعرف أخاه
الإنسان ، أو أن الفتى لا يعرف حقيقة فتاته إلا إذا هتك كل ستر
ومزق كل حجاب وتكشفت الفرائز بعضها لبعض . هناك فى هذه الحمأة
النتنة ، تتلاقى الفرائز وتتعارف فتتجاذن ، وهذه الأفكار الخسبة كان
هاينه يكلم شعباً له تقاليد وعاداته ، له تكوين أسرته ، له دينه وعقائده .
ولم يقف هاينه عند هذا الحد ، بل أخذ يمزأ بهذا الشعب ويهجو ويصغر
فى عين نفسه . واستمر شعر هاينه يقرأ القرون الطوال ، ولم ينج من
تأثيره فتى ولا فتاة ، وقد سعى لإفساد كل عقيدة ، وهتك كل ستر ،
والقضاء على كل تقليد . وقد أحرقت كتب هاينه فى ظرف من ظروف
ألمانيا ، وبقي ديوان أبي نواس وأخبار أبي نواس فى مبادله ومفاسده وميوعته .

٢ - أبو العتاهية

نشأ بالكوفة ربها تشققت وتعلم نظم الشعر وبرع به ، حتى أنه كان يقول الشعر كما يقول النثر . وشعره من الطراز الأول ، سهل الألفاظ لطيف المعاني . بدأ بالفزل واستمر عليه حيناً من الدهر ، ثم تركه ومال إلى الزهد فاشبهه الناس بالزندقة^(١) . وقد ترجع هذه التهمة إلى ما انتشر في تضعيف شعره من المعاني الدالة على الاثنية وإلى هذا الزهد الذي هو مبدأ أصيل في مبادئ المانوية وإلى ما كان يقال عنه إنه لا يذكر البعث في شعره ، وأن شأنه شأن الزنادقة من شعراء هذا العصر الذين لا يؤمنون إلا بما تقع عليه الحواس ، وأنه كان يقول : إذا كنت تشك فيمن تراه فكيف بمن لا تقع عينك عليه^(٢) .

وقال بروكلمن إن ما قيل عن أبي العتاهية أنه لا يذكر البعث في شعره ولا يتكلم إلا عن الموت قول لا يستند إلى أصل^(٣) .

ودافع عنه صديقه أحمد بن حرب وقال ، كان مذهب أبي العتاهية القول بالتروحيد وأن الله خلق جوهرين متضادين لا من شيء ، ثم إنه بنى العالم هذه البنية منهما ، وأن العالم حديث العين والصنعة لا يحدث له إلا الله ، وكان يزعم أن الله سيرد كل شيء إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفتى الأعيان^(٤) .

ودافع ابن حرب هذا ليس في صالح أبي العتاهية لأن أثر الاثنية في قول أبي العتاهية ظاهر .

ويلفت فليدا نظر الباحث إلى أرجوزة أبي العتاهية ويستدل بها على ما كان يحول في ذهن هذا الشاعر من الرأي في الكون والخلقة .

(١) بروكلمن ملحق ج ١ ص ١١٩ أغاني ج ٤ ص ٢ . (٢) فليدا ص ٢١٧

(٣) بروكلمن ١١٩ (٤) فليدا ٢١٩ . أغاني ج ٤ ص ٥

وإتنا نورد الآيات التالية في هذه الأرجوزة على سبيل الإيضاح :

لكل شيء ممدن وجوهر وأوسط وأصغر وأكبر
من لك بالمحض وكل عتزع وساوس في المصادر منها تحتاج
وكل شيء لاحق بجوهره أصغره متصل بأكبره
ما زالت الدنيا لك دار أذى مزوجة الصغر بألوان التندى
الخير والشر بهما أزواج لنا نتاج ولنا نتاج
من لك بالمحض ولبس محض يخبث بعض ويطيب بعض
لكل إنسان طبيعتان خير وشر رهما ضدان
والخير والشر إذا ما عدا بينهما بون بعيد جدا
كذا قضى الله فكيف أصنع الصمت إن ضاق الكلام أوسع

ربكشف فابدا في هذه الآيات عن مبطلون الأتليسية في الخير والشر
والصغر والكبر والمحض والمعتزع وما يتولد من المعاني التي ترجع
إلى النور والظلمة اللذين تدين بهما المانوية والمزدكية . ثم يترك الفصل
في الحكم على أبي العتاهية ويقول إننا لا نعلم أكان أبو العتاهية موحدا
فأخذ نظرية الأثنية من المانوية ليستعين بها على توضيح العالم في وجهتي
الخير والشر حيث تنوء أحيانا بالآلام وأخرى تسر بالمباهج ، أم أن
توحيد هذا كان قناعا يتستر به لنشر مبادئ المانوية كما هي طبيعة أهل
هذه النحلة^(١) . إنني أميل إلى الرأي الثاني وإلى الفصل بالحكم بدلالة ما جاء
في هذه الآيات وما انتشر من الآراء في شعر أبي العتاهية . وقد اتهم
أبو العتاهية فعلا بهذا التستر انظر (ماسنيون — استشهاد الحلاج ص ١٤٩
وما بعدها) وهذا التستر وسيلة تعرف بها المانوية في محاربة الأديان^(٢)
بقي علينا أن نبحث في زهد أبي العتاهية ، لنرى هل هو أصيل في طبيعة
شعره أم هو طارئ متعمد ؟ . .

إننا نعرف أبا العتاهية شاعراً غزلاً متبهاً في عشيقته فكيف زك
هذا الغزل وإنه يبتخل على بطنه أن تشبع فسكيف يجتمع الزهد والبخل
والزهد والعشق ؟ . وقد سمعنا عنه يقول : إن الناس لا يحترمون الفقير
بل يحترمون النفي ويخشون بأس ذي القوة . فهو زاهد وهو بخيل . وهو
يحب المال ويرى فيه القوة والاحترام ولقد خاب في عشقه فترك الغزل ،
وشهد مصرع أسياذه البرامكة فذل بعد عز ونزل سجن الزنادقة بين
المتهمين ، فماذا يصنع أبو العتاهية ، أيجاهر الحاكمين بالعداء أم يتستر
وينشر من آرائه ما يشاء ويختار ؟ . . أيدعو للخير والشر أم للظلمة والنور
وهو يعرف أن رأسه بين النطع والسيوف إن نطق بذلك . لقد اعتصم
أبو العتاهية بالصمت ولسكنه وجد لنفسه مخرجاً . حين طلب إليه الرشيد
أن ينظم شعراً ولم يأمر بإخراجه من السجن . فلم يقن كما يريد الرشيد
بل قال شعراً من نوع آخر تعمد به واستمر عليه ، ونوى فيه الانتقام
كما يقول . وقد حدثنا عن ذلك صاحب الأغاني ، قال : كان الرشيد
يعجبه غناء الملاحين وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم فقال قولوا لمن
معنا من الشعراء يعمدون طوؤلاء شعرا يغنون فيه فقيل له ليس أقدر على
هذا من أبي العتاهية وهو في الحبس ، قال أبو العتاهية فوجه إلى الرشيد
قل شعراً حتى أسمعه ، ولم يأمر بإطلاقه فهاضني ذلك فقلت والله لأقولن
شعراً يحزنه ولا يسر به فعمات شعراً ودفعته إلى من حفظه من الملاحين
فلما ركب الحراقة سمعه وهو :

خانك الطرف الطموح أيها القلب الجموح
لدواعي الخير والشر دنو ونزوح
هل لمطلوب بذنب توبة منه نصوح
سيصير المرء يوماً جسداً ما فيه روح
كل نطاح من الدهر له يوم نطوح

نح على نفسك يا مسكين إن سكنت تنوح
نموتن وإن عشت ما عمر نوح^(١)

وقال الأصمعي : صنع الرشيد طعاما وزخرف مجلسه وأحضر
أبا العتاهية ، وقال له صف ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا فقال أبو العتاهية :
عش ما بدا لك سالما في ظل شاهقة القصور
يسمى إليك بما اشتيت لذي الروح أو البكور
فإذا النفوس تفتحت في ظل حشرة الصدور
فهناك تعلم موقنا ما كنت إلا في غرور^(٢)
قال فبكى الرشيد حتى بل كفه .

وأشهر المسعري والماوردي والشرشبي عن الأصمعي أنه قال : دخلت
على الرشيد وهو ينظر في كتابه ودموعه تنحدر على خديه فضاللت قائما
حتى سكن وحانت منه التفاتة فقال لي اجلس يا أصمعي . جلست فقال لي :
أرأيت ما كان ؟ قلت نعم يا أمير المؤمنين قال : أما والله لو كان لأمر
الدنيا ما رأيت دموعي ، ثم رمى إلى بالقرطاس فإذا فيه شعر
لأبي العتاهية بخط جليل وهو :

يا من يريد الموت مهيجته — لا شك — مالك لا تبادره
هل أنت معتبر بمن خربت منه — غداة قضى — دساكره .
قال الرشيد كائن والله أخاطب بذلك دون الناس ولم يلبث بعد ذلك
قليلًا حتى مات^(٣)

وسواء أئسرت أبو العتاهية لنشر مبادئ المانوية بالانتقام من الرشيد
أم أن حالته كانت تستدعي ذلك فقد وجد أسلم الطرق لبلوغ المانوية
مرامها في صرف النفوس عن الطموح واستكانتها للخوف والذعر ،

(٢) ديوان ص ١٣٢

(١) أغاني ج ٤ ص ١٠٣

(٣) ديوان ص ١٢٣

راكيف لا تسمع النفوس إلى الخوف ونهى تسمع منه أنها لم تولد إلا
للبرت ، ولا تبنى إلا للخراب ، وأن مصيرنا إلى تراب ، لأننا خلقنا
من التراب ، وأن البرت لا مفر منه لا يحيا أسداً ولا يظلمه ، وأن القبور
في صمت ، عميق لا تسمع ولا تسمع فنادها ما شئت فإن تحييك واسألتها عن
الملوك وآبائهم وأبنائهم أين ذهبوا وإلى أى شيء استحالوا فلا تسمع
شيئاً ولا تعلم عنهم غير أنهم صاروا رفانا في التراب ، وينادى أبو العتاهية
الموت ويعاتبه ويقول له أيها الموت كلفتني أن أغمض عيون أصدقائي
فما أقساك ؟ ، إنك لا تريد أن تبقى على أحد من الخلق ، ثم يلتفت إلى
الإنسان ويهمس في آذان الناس ينذرهم بقصر مدتهم فلا يخفوا عن
الموت قاطع المدد^(١) .

وهذا الشعر يملأ ديوانه ولولا التطويل لذكرت الشيء الكثير ،
فإذا كان أبو نواس فتح للناس باباً جديداً في الغزل والإباحة والبراعة
في وصف المرأة فإن أبا العتاهية فتح لهم باباً آخر في الزهد والكف عن
الحياة وأصبح أثر شعره واضحاً في كثير من تعاليم النحل التي نبهت في
الحياة العربية . وليس الضرر الذي يصل من شعر أبي نواس إلى النفوس
فيحملها بأكثر من هذا الضرر يقتل الطموح ويصرف الأنفس عن الحياة
وينقل الأمة من أفقها الواسع الذي ينتظم الإنسانية إلى أفق ضيق فيه
عكوف وانطواء تسعى المأوىة إليه .

أما عن بخله الذي لا يتفق مع طبيعة الزهد . فقد جاءتنا بطرائفه
كتب الأدب ومن طريف ذلك ، ما حدثنا به صاحب الأغاني : أن
سائلاً وقف على أبي العتاهية وجماعة من جيرانه حوله فسأله ، فقال
أبو العتاهية . صنع الله لك . فأعاد السؤال . فأعاده عليه ثانية فأعاد عليه

ثالثة فرد عليه، مثل ذلك . فغضب فقال له السائل ألسنت القائل :

كل حى عند ميتته حظه من ماله الكفن

ثم قال : فبالله عليك ، أتريد أن تعد مالك كله لمن كفنك ، قال لا ، قال : فبالله كم قدرت لكفنك ؟ . قال خمسة دنانير . قال فهى إذن حظك من كله . قال : « نعم قال فتصدق على من غير حظك ب درهم واحد ، قال لو تصدقت عليك لكان حظى . قال السائل : إن القبور تحفر بثلاثة دراهم ، فأعطى درهما وأفيم لك كفيلا بأنى أحضر لك قبرك به متى مت وترج درهمين لم يكونا بحسبانك فإن لم أحضر رددته على ورثتك أو رده كفيلى عليهم ، فخبجل أبو العتاهية وقال أغرب لعنك الله ، وغضب عليه فضحك جميع من حضر ومر السائل يضحك ، فالتفت أبو العتاهية إلى جيرانه وقال من أجل هذا وأمثاله حرمت الصدقة فقلنا له ومن حرما ومتى حرمت (١) ؟

وذكر أيضاً أن أبا العتاهية بحث إلى خزيمة بقصيدة منها :

أراك امرأ ترجو من الله عفوهُ وأنت على مالا تحب مقيم
فقال خزيمة والله إن المعروف فى هذا الممتوه المالحف ضائع فقيل
له وكيف ذلك ؟ . فقال لأنه من الذين يكتزون الذهب والفضة
ولا ينفقونها فى سبيل الله (٢) .

إن الشعر قوة خفية تقع على مواقع الحس من النفس فتملؤها
انشراحاً وتشيرها حماسة وتغمرها لينا ورحمة ، فالنفس طوع بئان الشعر
تأرجح بين يديه فى القسوة والشدة والخجل والتواضع ، والصلابة
والإقدام والإحجام والطاعة والعصيان وما إلى غير ذلك من أنواع
الوجدان . والشعر أقوى من صولجان الحاكم وأنفذ من قوانين الدولة
لأن الساطة تعتمد فى تنفيذ قوانينها على الرهبة والهيبة وتجعل مظهر

مدين الوجدانين الجيش والشرطة واسكن الشعر قوة وحده وفيه الهيبة
وفيهِ الرهبة وهكذا دب شعر هؤلاء الثلاثة : بشار وأبي نواس
وأبي العتاهية في حياة الأدب العربي ورجعه توجيهها خاصا ، فاندفع
الشعراء يفسحون على منوالهم ويتأثرون أساليبه ومعانيه ردحا من الزمن
وطفق الفتيان والفتيات يتغنون بشعر أبي نواس وبشار وغزل أبي العتاهية
وانحدر زهده إلى زوايا المساجد والمعابد ، فتخذته الملل والنحل وجماعات
الزهاد سبيل سلوكها ، وهكذا لم يخل مجتمعا ولم تنج زاوية من زواياه
من شعر هؤلاء الثلاثة الذي أثقل كاهل هذه الأمة وتركها تنوء بأعباء
التحليل أو الانطواء ، فتحلل مجتمعا وفتحت ثغرات عظيمة في كيانهما
للطامعين والفاطحين ولم تقم لها قائمة مذ دب هذا الانحلال في جسمها
في غمرة هذا الصراع . إن الشعراء الذين يوجدون الأمم هم الذين يقدمون
لحياتها ما يبدعونه لها . أما هؤلاء الثلاثة وأضرابهم فقد كان همهم
أن يأخذوا من الحياة وليس الذي يأخذ كالذي يعطى ، وهم في انتهاب
الذات أو الانصراف عنها إلى غيرها يتجاهلون سر التكوين ، وكل أمة
تنصرف عن معرفة سر تكوينها لا يختلف وجودها عن الزبد الذي
يقذف به التيار إلى أثباج البحر فتبتلع أمواجه .

في غمرة هذا العامل وغيره من العوامل التي ذكرنا وما سندكر لحب
الطريق لا تنصرار الموالى فتدهورت الخلافة العباسية : وصارت ريشة
في مهب ريح نكباء .

كان أبو العتاهية مولى لبني عنزة . انحدر من أصل فارسي ، وتطورت
به الحياة ، حتى صار شاعر البلاط ، ثم توالى عليه التهم ، فأفلت من يد
حمدويه صاحب الزنادقة بهروبه من الشعر واتخاذ الحجابة مهنة له كما أفلت
أبو نواس بهزله ونسكاته ومدحه واستعطافه وإظهار توبته .

مات أبو العتاهية في اليوم الثامن من شهر جمادى الأولى أو الثانية
لسنة ٢١٠ أو ٢١١ هـ .

الفصل السابع

تطور حركة الموالي واتساع سلطانهم وانهيار البلاد

أسفار — مرداويج — البويهيون

كان الأتقلام والآراء التي بثها الموالي في أرجاء الدولة أثر عظيم
أنهك جسمها فاستسلمت إلى الدعة والراحة ، وسدرت في اللهو ومات فيها
كل طموح ، وكان من وراء ذلك أن خارت قوى جيوشها وضعفت
ثغورها ، فطامع فيها كل طامع ، ونبئت قرون الفتن في أماكن عديدة ،
وتطلع قواد الموالي إلى إعادة عروش آبائهم تارة أخرى . وكان من
أشدّهم بأساً أسفار الذي دوخ الدولة العباسية ردحاً من الزمن . وكان
لأسفار هذا قائد قوى الشكيمة اسمه مرداويج أراد أن ينفرد بالزعامة
فشق عصا الطاعة على سيده وألب عليه قواد جيشه ، وفي عاصفة هذا
العصيان قتل أسفار نخلاً الجو لمرداويج الذي تزعم حركة الموالي العسكرية
وزحف بجيشه وتم له الاستيلاء على الرى وطبرستان وبلاد الجبل
عام ٣١٩ هـ ، ٩٣١ م ثم طلب من الخليفة المقتدر أن يعترف له في هذه
البلاد فأقطعه إياها على مائة ألف درهم في كل عام . ولكن مرداويج رجل
طامح لم يتركه طموحه أن يقف عند هذا الحد بل دفعه إلى التفكير في
استئصال شأفة العرب ليعيد دولة الأكاسرة . ولذلك أخذ يقلد ملوك
الفرس الأقدمين بمظاهرهم ، فلبس التاج المرصع بالجواهر والياقوت ،
وصنع له عرشاً من الذهب ، ومجالساً مفضضاً منخبطاً بالسجاد الموشى ،
وصفّف حوله الكراسى المذهبة ليجلس عليها عظماء المملكة ، وفكر

من قبح بذا، وبتجديد الإيمان ، وإرجاعه إلى سالف عهده ، وكان يرجو أن يجعل بغداد عاصمة ملكه منها يحكم العالم جميعه ، ولكن خاب ظنه ، كان هذا القائد قاسياً جباراً ينظر إلى الناس نظر من لم يدخل الإيمان قلبه ، فاستبد بهم ، وعامل الرجال والنساء معاملة العبيد . وعرض أهل همدان على السيف كأنهم كنار . فأثر ذلك تأثيراً سيئاً في الناس فتظاهر الإيرانيون أمام قصر الخليفة وقالوا : لماذا تؤدي ضريبة إلى بيت المال إذا لم تحفظ الدولة المسلمين من عوادي الظالمين .

وذهب وفد من العلماء إلى قائده في دينور يحملون القرآن ، فلما وضعه إمامهم بين يديه وسأله أن يتق الله ويرفع السيف عن رقاب المسلمين ، غضب وأخذته العزة بالإثم فتناول القرآن وضرب به وجه الإمام وأمر أحد جنوده أن يذبحه ففعل .

وكان مرداويج هذا ما يقرب من ٥٠٠٠٠ جندي من الديلم ، ٤٠٠٠ جندي من الترك وكان يقسو أيضاً على جنده فلما اشتط يوماً من الأيام على جند الترك غضبوا عليه وحفظوها له حتى حانت فرصة فقتلوه وذبحوه في عام ٣٢٣ هـ ، ٩٣٥ م^(١) غير أن ما أخطأه قصد مرداويج أصاب بعضه بنو بويه^(٢) .

البويهيون

بعث سلطان هذه الأسرة ثلاثة أخوة : هم علي والحسن وأحمد أولاد بويه . جاءوا إلى مرداويج فأكرم مشواهم ، وخالع علي الحسن وعلي ، ثم ولي عليا بلاد الكرج فلما سار إلى عمله ندم مرداويج على فعلته فأراد أن ينقض عهده ، فحالت دون ذلك الصداقة التي توثقت عراها بين علي والعميد (وزير مرداويج) حيث أعلم علياً ما ينويه له صاحبه . فأمرع

(١) راجع ١٦ - ٧١ metz (٢) راجع دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ٢٩٧

إلى بلاد السكرج فقال الوزير مرداويج . إن الأمر جاء متأخراً . وخير لنا أن ندعه يبدأ حمله حتى لا يتخير علينا ويشق عصا الطاعة ، وهكذا تمت الحيلة على مرداويج وبدأ نجم بن بويه يظهر في الأفق ثم اتسعت الشقة بين الإثنين وتأهب كل منهما لقتال خصمه ، وسار مرداويج وأخوه وشمكير على رأس جيش قوى لمقاتلة خصميهما وكاد التاريخ يكتب صفحة جديدة لولا مؤامرة الأتراك التي خر فيها مرداويج صريخاً .

صفا الجو لآل بويه بعد هذا وشرعوا يضعون الخطط لامتداد السلطان وحدثت عليا نفسه أن يستولى على بغداد ثم على العراق عامة لما عرفه من ضعف سلطان الخليفة والتفكك والانحلال في قوى الشعب ، ثم عزم على الأمر وجهز أخاه الأصغر أحمد بن بويه بجيش قوى فسار أحمد يقصد بغداد ومر بواسطة ففتحها ثم كاتبه قواد بغداد فتقدم إليها ووصلها في اليوم الحادى عشر من جمادى الأولى سنة ٣٣٤ هـ والخليفة فيها يومئذ المستكفي بالله . فرحب به الخليفة وبايعه أحمد وحلف كل لصاحبه هذا بالخلافة وذاك بالسلطنة ، بل سماه الخليفة أمير الأمراء ولقبه بلقب من الدولة فكان هذا اليوم يوم تحول تاريخ الخلافة العربية والسلطنة بن يوم الفصل في مصير الأمة . فقد تمكن بنو بويه من صولجان الحكم وطفقوا يلعبون بالخلفاء لعب الأطفال بالدمية يعينون هذا ويعزلون ذاك واستمر سلطانهم على العراق وإيران مدة غير قليلة نابت البلاد منهم نواب كان لها أثر عظيم في كيانها ومستقبلها . ولعل هذه المقتطفات من تاريخ ابن مسكويه والذرأورى وغيرهما تعطيك صورة مصغرة عما آلت إليه الحالة أيام الحكم البويهى وما هو مركز الخلافة في بغداد أيام بنى بويه .

أمير الأمراء معز الدولة

أحمد بن بويه

توطدت له أكناف المملكة وصار حاكماً بأمره وأجرى له الخليفة مراسيم الاحترام جميعها غير أنه اشتط في حكمه ونقض عهده ولم يهل الخليفة أياماً معدودات . فأرسل إليه رجلين من أعوانه في شهر جمادى الآخر من عام ٣٣٤ فلما دخلا عليه علا صوتهما برطانة أعجمية ظن الخليفة أنهما يريدان تقبيل يديه فدهما فجذباه وطرماه أرضاً ووضعاه عمامة في عنقه وجراه إليهما فاضطرب المجلس وشاعت الفوضى . وساق الديلمان الخليفة المستكن في باقة ماشياً إل دار أمير الأمراء معز الدولة ، فاعتقل فيها ونهبت داره ولم يبق فيها شيء . وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أن معز الدولة سمل عيني هذا الخليفة وباع بالخلافة واحداً من أولاد المقتدر وهو أبو القاسم الفضل وسماه المطيع (١) .

ويحدثنا ابن مسكويه أن الديلم شغبوا في هذا العام على معز الدولة شغباً قبيحاً وكأشفوه بالأسباع « وخرقوا عليه بالسفح الكثير » فضمن إطلاق أموالهم في مدة ضربها لهم ، فاضطر إلى ضبط الناس ، واستخراج الأموال من غير وجوهها ، فأقطع قواده وخواصه ، وأتراكه ، ضياع السلطان وضياع بني شيرزاد ، وحق بيت المال في ضياع الرعية . . . وصار أكثر السواد معلقاً وزالت أيدي العمال عنه وبقى اليسير منه من المحاول فضمن ، واستغنى عن أكثر الدواوين فبطلت وبطلت أزمته وجمعت الأعمال كلها في ديوان واحد (٢) .

(١) تجارب الأمم ج ٢ ص ٨٦ وما بعدها . راجع دائرة المعارف الإسلامية . المقرئ

ج ٤ ص ١٨١ .

(٢) تجارب الأمم ج ٢ ص ٦٦

ومن ذلك أيضا أنه أقطع أكثر أعمال السواد على حال خرابه
ونقصان ارتفاعه وقبل عودته إلى عمارته . وساعده على عمله هذا
وزراؤه فساحوا المقطعين وقبأوا منهم الرشا ، وأخذوا المصانع في
البعض ، وقبأوا الشفاعات في البعض ، فحصلت الاقطاعات لهم بغير
متفاوتة فلما أنت السنون وعمرت النواحي وزاد الارتفاع في بعضها
بزيادة الغرت ونقص بعضها بانحطاط الأسعار وذلك أن الوقت الذي
أقطع فيه الجند الاقطاعات كان السعر مغرط الغلاء للقطط الذي ذكرناه
فتمسك الرابحون بما حصل في أيديهم من اقطاعاتهم ولم يمكن الاستقصاء
عليهم في العبرة . ورد الخاسرون اقطاعاتهم فعوضوا عنها وتمت لهم
نقائسها ، وانسع الخرق حتى صار الرسم جاريا بأن يخرب الجند اقطاعاتهم
ثم يردوها ، ويعتاضوا عنها من حيث يختارون ويتوصلون إلى حصول
الفضل والفوز بالرجح ، وقلدت الاقطاعات المرتجعة من كان غرضه تناول
ما يجده فيها ورفع الحساب ببعضه وترك الشروع في عمارتها ، ثم صار
المقطعون يعودون إلى تلك الاقطاعات ، وقد اختلط بعضها ببعض
فبستقطعونها بالموجود بعد تناهيا في الاضمحلال والانحطاط . وكانت
الأصول تذوب على مر السنين ودرست العبر القديمة وفسدت المشارب ،
وبطلت المصالح ، وأنت الجوائح على الفناء ، ورقت أحوالهم فن بين
هارب جال وبين مظلوم صابر لا ينصف ، وبين مستريح إلى تسليم ضيعته
إلى المقطع ليأمن شره ويوافقه . فبطلت العمارات وأغلقت الدواوين
وأحجى أثر الكتابة والعمالة ومات من كان يحسنها ونشأ قوم لا يعرفونها
ومتى تولى أحدهم شيئا كان فيه دخيلا متجلفا . واقتصر المقطعون على
تدبير نواحيهم بغلبانهم ووكلائهم فلا يضبطون ما يجري على أيديهم
ولا يهتدون إلى وجه تسمير ومصلحة ، ويقطعون أموالهم بضروب الإفساد .
واعراض أصحابهم مما يذهب من أموالهم بمصادرتهم . وبالحيف على
معاملهم وانصرف عمال المصالح عنها لخروج الأعمال عن يد السلطان

والتي لا روي في الانتصار في سبلها على أن يقدر ما يحتاج إليه ، رية سبط
على المتعلمين تشييدت بقتاع دون بها وبأدائها ، وإن أدومها وقمت الحياة
فيها لم تنصرف إلى وجوهها وقب حقل الناظرين بالحوادث تمويلا على
أخذ ما صنف وترك ما كدر والرجوع على السلطان بالمطالبة ورد ما تخرب
على أيديهم من الاقطاعات ، وفرض تدبير كل ناحية إلى بعض الوجوه
من خواص الديلم ، فاتخذة سكنا وطعمة والتحف عليهم المتصرفون الخونة
وصار غرض أسددهم الترجية والتشية والدفع من سنة إلى سنة وعقدت
النواحي الخارجة عن الاقطاعات على طبقتين من الناس أحدهما أكابر
القواد والجند ، والآخرى أصحاب الدرايع والمتصرفون ، فأما القواد
فإنهم حرصوا على جمع الأموال وحيازة الأرباح ودعوى المظالم والتماس
الخطايط ، فإن استقصى عليهم صاروا أعداءهم ، ولما كثرت أموالهم
وانفتحت بهم الفتوق خرج منهم الخوارج ، وإن سوحوا استشرى
طمعهم ولم يقفوا منه عند غاية .

أما أصحاب الدرايع فكانوا أمضى من الجند إلى تهريم السلطان
والحيلة عليه في كسب الأموال ونظر بعضهم إلى بعض فيما تجرى عليه
معاملاتهم وبذلوا المرافق واعتصموا بالوسائل ووجب أن يجمع الناس
حكم واحد . وتوالت السنون عليهم فتفردوا بنواحيهم وخلو بمعاملهم
فمن مستضعف يصادر ويغير رسمه وتنقص معاملته على قدر حاله وماله ،
ومن مانع جانبه فيخفف عند الرسوم ويرتفع على ذلك منه بالأموال
ويتخذ الضامن عضداً في شدائده وعند مناظرة سلطانه ، ويصطلم
المستضعفين ، فبطل أن ترفع إلى الدواوين جماعة ، أو تعمل لعمل
مؤامرة ، أو يسمع لأحد ظلامة ، أو يقبل من كاتب نصيحة ، وواقعة
في محاسبة الضمفاء على ذكر أصول العمد وما صح منه وما بقي من غير
تفتيش عما عولمت به الرعية وأجريت عليه أحوالها من جور أو نصفة

من غير أشرف على احتراس من الخراب أو خراب يعاد إلى العماره ،
وجبايات تحدث على غير رسم ، ومصادرات ترفع على محض الظلم ،
راضافات إلى الارتفاعات ليست بهرة وحسابات في النفقات لا حقيقة
شيء منها ، ومتى تكلم كاتب من الكتاب في شيء من ذلك وكان ذا حال
عظيم ونكس واجتبيح وقتل وباعه السلطان بالتطفيف ، وإن كان ذا فاقة
وسيلة أرضى باليسير فأنقلب وصار عوناً للخصم ولم يكن بذلك بلوم لأن
سلطانه لا يحميه إذا خاف ولا ينصره إذا قال .

فهذه جملة الحال في ضياع الدخل . فأما الخراج ، فإن النفقات
تضاعفت وسوق الدواوين أزيلت . والألزامة بطأت إلى غير ذلك من
أمر يتسع فيها القول ويقتضى بعضها سياقة بعض فاقصصنا على الإشارة .
ثم ركب معز الدولة الهوى في أمر غلمانه فتوسع في اقتطاعاتهم
وزياداتهم ، وأسرف في تمويلهم ، فاعتذر عليه أن يدخر ذخيرة لنوابه
أو أن يستفضل شيئاً من ارتفاع ولم تزل مؤنته تزيد وموارده تنقص
حتى حصل عليه عجز لم يكن واقفاً على حده منه ، بل يتضاعف تضاعفاً
متفاقماً وأدى ذلك على مر السنين إلى الإخلال بالدبل فيما يستحقون من
أموالهم . وداخلتهم المنافسة للأتراك من أجل حسن أحوالهم . وقادت
الضرورة إلى ارتباط الأتراك بزيادة تقييدهم والاستظهار بهم على الديلم ،
وبحسب انصراف العناية إلى هؤلاء ووقوع التقصير في أمور أولئك
فسدت البيات وفسد الفريقان ، أما الأتراك فبالطمع والضاووة ،
وأما الديلم فبالضرر والمسكنة واشربوا إلى الفتن وصارت هذه المعاملة
لها ما وسبباً لوقوع ما وقع فيها مما سنذكر جملاً منه في موضعها
إنشاء الله (١) .

هذه جملة الحال، أثرت نقاتها وعرضها لأننى وجدت أى تلخيص.
أو إيجاز يخل إخلالاً بيننا فى إعطاء هذه الصورة الواخضة المبينة للحال
التي كان عليها الزمن أيام معز الدولة الذى نقض العهد وملك زمام
السلطان بيده .

ولقد كان هذا المعز قويا خشنا قاسيا وثب على الخليفة ولم يرع
إلا ولا ذمة وكان إلى جانب ذلك ضعيفا جزوعا إذا اشتد عليه المرض
بكى وندب على نفسه ، وكان سريع الغضب ، بذىء اللسان يشتم وجوه
الناس ويسب وزراءه إذا أخذه الغضب ، وقد أمر أن يكتب على مساجد
بغداد سنة إحدى وخمسين وثلثمائة ما يسب به صحابة رسول الله وكان
الناس يحكونها إذا جن الليل^(١) وفى سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة عاشر
الحرم أمر أن تغلق الأسواق ويقف القصابون عن الذبح ولا يطبخ
الطباخون وأن يظاهر الناس خارج المدينة وأن يخرج النساء منشورات
الشعور مسودات الوجوه فد شقن ثيابهن يدرن بالبلد بالنوائح . وفى
اليوم الثامن عشر من ذى الحجة فى هذا العام نفسه أمر معز الدولة أن يعم
السور باظهار الزينة وأن تضرب الخيام وتعلق السجاجيد وتعرض
الأشياء الثمينة ويلعب بالطبول والأبواق وأن تشعل النيران فى مقر
صاحب الشرطة وقد ذبحت الذبائح فى الصباح الباكر وذهبت الوفود
تزور مقبرة قریش .

بختیار « عز الدولة »

وما آلت إليه الحالة فى أيامه

كان وزراء هذا الأمير همّة أحدهم فى تناول شهواته والوصول
إلى لذاته ، أما الأمير فقد كن متشاغلا بالصيد واللهو عن جميع مهام

(١) المقرئى ج ٤ ص ١٨١

المملكة نخرج إليه أهل بغداد وهو بالكوفة وأنكروا عليه اشتغاله عن مصالح المسلمين^(١) .

وأما الخليفة فقد أصبح لا حول له ولا قوة كما يتبين من الرسائل بينه وبين عز الدولة حين كتب إليه الخليفة يطلب منه مالا يقوم به في الغزو فأجابه الخليفة المطيع لله : إن الغزو يلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وإلى تدبير الأموال والرجال ، وأما الآن وليس لي منها إلا القوات القاصر عن كفاي ، وهو في أيديكم ، وأيدي أصحاب الأطراف ، فما يلزمني غزو ولا حج ، ولا شيء مما تنظر الأئمة فيه وإنما لكم مني هذا الاسم الذي يخطب به على منابركم تسكنون به رعاياكم ، فإن أحببتم أن أعزل اعتزلت عن هذا المقدار وتركتمكم والأمركم .

وتعددت المراسلات والمخاطبات حتى خرجت إلى طرف من أطراف الوعيد واضطر إلى التزام أربعمئة ألف درهم باع بها ثيابه ، وبعض أنقاض داره وشاع الخبر ببغداد بين الخاص والعام وأبناء الأقطار أن الخليفة صودر ، وكثرت الشائعات^(٢) .

وزاد صاحب تاريخ الإسلام^(٣) أنهم شددوا على المطيع لله حتى باع قماشه وحمل أربعمئة ألف درهم إلى بختیار ، فأنفقها هذا في أغراضه وأهمل الغزو ، وشاع في الألسنة أن الخليفة صودر كما شاع قبله أن القاهر بالله كدى يوم جمعة فانظر إلى تقلبات الدهر .

وعول أبو الفضل « وزير بختیار ، فيما يحتاج إليه من مال الجند والاقامات التي تلزم للأتباع والحاشية على مصادرات الرعية والتجار والتأويل عليهم بالمحال ، وابتدأ بأهل الذمة ، ثم ترقى إلى أهل الملة ، فأخذ

(١) تجارب ج ٢ ص ٣٠٢ ، ٣٠٤

(٢) تجارب ج ٢ ص ٣٠٧

(٣) هامش هذا الجزء نفسه ص ٣٠٨

أموال الشهود ويرجوه البلد من أهل الثراء وبث السعاة والغايزين وسماهم
العمال ، وأجرى عليهم الأرزاق وكثر الدعاء عليه في المساجد الجامعة
وفي الكنائس والبيع وفي المحافل والمجالس ، وزادت العامة على ما ذكرت
من حالها في الاغارة والإقدام على النهب والحرق وأسرفت في ذلك
حتى بطأت الأسواق وانقطعت المعاش وتعذر على أكثر الناس الوصول
إلى ماء دجلة حتى شربوا ماء الآبار . وحصلوا في شبه حصار ، ورأى
الوزير تسكينهم فتعذر عليه حتى أركب إليهم طائفة من الجيش فواقعهم
وكسروهم ، ونقصت الهيبة أكثر مما كانت عليه وركب أبو الفضل بنفسه
لقتال العيارين وواقعهم فلم يقدر عليهم .

اعتل المطيع بالفالج فدعاه سبكتكين وطلب إليه تسليم الأمر إلى
ولده الطائع لله وبرىء من الخلافة ، وخلعها وأشهد على نفسه في يوم
الأربعاء لثلاث عشرة خلت من ذى القعدة من سنة ثلثمائة وثلاث وستين^(١)

عند الدولة

وأطاع البويهيين في الخلافة

تمكن عند الدولة من أخذ زمام الملك بيده بعد الخلاف الطويل
الذى نشأ بين أفراد أسرة بنى بويه وبعد ذلك الفساد الذى عم المملكة ،
وتوحدت أطراف الملك تحت صولجانه وتحرك فيه طموحه إلى أفق
أوسع إذ أصبح يفكر فى ضم لقب الخلافة إلى لقب الإمارة . فدبر أن
يقع بينه وبين الطائع لله وصلة بابنته الكبرى ففعل ذلك وعقد العقد ،
بحضور هذا الخليفة وبمشهد من أعيان الدولة والتضادة على صداق قدره مائة
ألف دينار ، وبني الأمر فيه أن يرزق ولدا ذكر أمها فيولى العهد وتصير

الخلافة في بيت بني بويه ويصير الملك والخلافة مشتملين على الدولة الديلية^(١) . ولكنّه قدر فضحكك من تقديره الأقدار وتطورت أمور الدولة وأحوالها إلى ما سنذكره .

بهاء الدولة

وخلع الطائع لله

مشى بهاء الدولة بين جماعة من خواصه إلى الطائع لله فلما وصل إليه وجده جالسا في الرواق متقلدا سيفه ولما قرب منه قبل الأرض بين يديه وجلس على كرسي . ثم تقدم أصحابه فجذبوا الخليفة بحائل سيفه من سريره وتسكاث عليه الديلم فلنفوه في كساء وحمل وأصعد إلى دار المملكة فاضطرب حبل الأمن وقدر أكثر الجند أن القبض على بهاء الدولة ، فوقعوا في النهب وشلح من حضر من الأشراف والعدول و . . .

ولما أنصرف بهاء الدولة إلى داره أظهر أمر الخليفة القادر بالله أبي العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر بالله ، ونادى بشعاره في البلد وكتب على الطائع كتابا بالخلع وسلم الأمر إلى القادر بالله وشهد الشهود فيه عليه ، وكانت خلافة الطائع سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام ، وانحدر إلى حضرة القادر بالله من خواص بهاء الدولة من يهنئه بالخلافة ويصعد في خدمته إلى مدينة السلام . وشغب الديلم والآتراك ، يطالبون برسم البيعة وبرزوا إلى ظاهر بغداد وترددت الرسل منهم إلى بهاء الدولة ومنعوا من الخطبة للقادر ثم أرضوهم فسكتوا . وحول من دار الخلافة جميع ما فيها حتى الخشب الساج والرخام ثم أبيعحت للخاصة والعامة . فقلعت

(١) تجارب ج ٢ ص ٤١٤ .

شبابيكها^(١) وكانت نهاية الطائع أن حمل إلى القادر فأكرم مشواه وبقى عنده حتى مات ، ويقول الرذراورى فأما شرح ما جرت عليه الحال يوم القبض على الطائع فلم تذكره ، إذ لا سياسة فيه فتعجلى ولا فضيلة فتروى إلا أبياتا للرضى أبى الحسن الموسوى رحمه الله ، فإنه كان فى جملة من حضر ، قلما أحس بالفتنة أخذ بالحزم وبأدر بالخروج من الدار ، وتلوم من تلوم من الأمثال وسلبت ثيابهم وسلم هو فقال :

أعجب لمسكة نفسى بعد ما رميت	من النوائب بالابكار والعون
ومن نجاتى يوم الدار حين هوى	غبرى ولم أخل من حزم ينجيني
مرقت منها مروق النجم منكدرأ	وقد تلاقت مصاريع الردى دونى
وكننت أول طلاع ثنيتها	ومن ورائى شر غير مأمون
من بعد ما كان رب الملك مبتسما	إلى أدنيه فى النجوى ويدننى
أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه	لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكنى	يا قرب ما عاد بالضراء يبكينى
هيات أغتر بالسلطان ثانية	قد ضل ولاج أبواب السلاطين

انهيار بغداد

فى وسط هذه الفوضى وفى هذه الاستهانة بالتقاليد والنظم والشرائع ما بعثته هذه الأسرة ، أخذ نجم عاصمة الخلافة يحنج إلى الأفول وصوح زهر العراق الاقتصادى وتبدلات خضرته الزاهية إلى قاع بلقع ورمال سافية وتحولت أنهار الوادى التى كانت تتدفق بالخير والبركة وتمتد امتداد الشرايين فى جسم الشباب الحى إلى أودية غائرة وعيون مطموسة فأقفرت الجيوب وشاع الفقر وتفككت عرى الأخلاق وفشت الجرائم وتمزقت

أوصال الأمة في وحدتها الروحية وشاع الانشقاق في الصفوف بما فشا من مذاهب الاعتزال بالعراق وخراسان وما وراء النهر ، وقويت دعوة الباطنية بأفريقية وبلاد المغرب ، وبشوا دعايتهم بأرض مصر ، فاستجاب لهم خلق كبير ، ثم ملكوها سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وبعثوا بعساكرهم إلى الشام ، فانتشرت الفرق في عامة بلاد المغرب ومصر والشام وديار بكر والكوفة والبصرة وجميع العراق وبلاد خراسان وما وراء النهر مع بلاد الحجاز واليمن والبحرين ، وقطاحت هذه الفرق طحان الرحي ، وكان أشهر هذه الفرق القدرية والمعتزلة والسكرامية والقرامطة والباطنية^(١).

ويقول ابن مسكويه : إن سبب انهيار بغداد يعود إلى العصبية وهو أن حزبين كانا يتنازعا على السلطان ، بختيار والديلم من جهة وسبكتكين والأتراك من جهة أخرى ، وكل من الفريقين ينتمى إلى مذهب من المذاهب الإسلامية فأدى ذلك إلى صراع كانت نتيجته انهيار عاصمة الخلافة. هكذا كانت نتيجة ذلك الصراع العنيف التي أوضحنا بواعثه وأشرنا إلى عناصره وبيننا مراميها وغاياتها . مما كان له بالغ الأثر على هذا الشرق الأوسط في حضارته وسلطانه .

أصبحت الأمة مشخنة الجراح تنوء بالبدع والفتن والإحن ، وقد تناثرت أطراف تلك الإمبراطورية المترامية تتناهبها الآراء والمؤامرات ويعلو في آفاقها الشغب وهي تميل إلى الانهيار ركناً بعد ركن تفتك فيها تلك العلل التي أمتعتها تعبئة الموالى في حركاتهم فيما فصلنا فيه البحث قبلاً فقد كانت هذه العلل كمثل دودة الخشب تأكل في مجتمع هذه الأمة وتنخر فيه ، تنتقل من منطقة إلى أخرى كلما ساعدتها الطبيعة وهيأت لها رطوبة تعيث في دائرتها .

وفي هذه الغمرة المتعاطربة من أيام الخلافة نبطت في ما وراء النهر قوة جديدة في قبيلة من قبائل الترك تدعى السلاجقة ، قوى شأنها حين تولى زعامتها طغرل بك الذي التحم بالغزنويين واستولى على بلادهم وكتب بذلك إلى الخليفة القائم بأمر الله طالباً منه أن يقره على ما فعل ويأذن له بالحكم فيما استولى عليه فأجابه الخليفة إلى ما طلب .

نظر الخليفة إلى ما وصلت إليه البلاد من سوء التدبير والتعمير وشهد الفوضى تنتشر والأمن يضطرب والسيد البويهى فيروز خسرو الملقب بالملك الرحيم قد أثقلت كاهله هذه الفوضى المنتشرة في جميع نواحي الحياة ، وصار لا ينهض بها ولا يقدر على تدبيرها ، حتى أخذ بماليكه من الأتراك يضطهدونه ويضطهدون الخليفة ، فخف طغرل بجيشه ودخل بغداد عام ٤٤٧ هـ ١٠٥٥ م وألقى القبض على الملك الرحيم آخر البويهيين الذين تعاقب منهم على السلطان في بغداد اثنا عشر رجلاً بين ملقب بملك وملقب بسلطان وبذلك انتهت سلطتهم وبدأت سلطنة جديدة سلطنة السلاجقة . وعلى الرغم من دخول هذه القوة الجديدة في جسم الخلافة فإنها ظلت في بدئها ضعيفة لا تقوى على رد عادية ، فالفاطميون^(١) في مصر وشمال أفريقيا أعلنوا خلافتهم وصار يخطب بأسمائهم على المنابر في بغداد ومكة والمدينة وأطراف البلاد ، وكادوا يستولون على العراق . فلما اشتد ساعد السلاجقة أعادوا بعضاً من عزة الخلافة وشرع الخطباء يذكرون اسم الخليفة العباسى على منابر بغداد ، واسترجعوا بلاد الشام من الدولة الفاطمية وطفق سلطان الخلافة يمتد رويداً رويداً حتى وصل مكة والمدينة وبلاد المغرب والأندلس .

ومع ذلك ظلت هذه الفئة التركية الحاكمة تتأرجح بين القوة والضعف والخلافة يهددها الصليبيون الذين ثبتت أقدامهم في الشام .

(١) انظر ص ٥٧ .

أخيراً والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	ون
٥	٧	تسم	تسم	على
٩٠	٤	مضامينها	مضامينها	بلاع
١٢	١٦	القائد أن	القائد أن	من
١٣	٢٠	سلطنة	سلطنة	بما
١٤	١٧	كثود لبحوره	كثود لبحوره	لك
٢٠	١٤	فاسط	فاسط	ع
٢٨	١٢	وارث	وارث	ون
٢٩	١٠	وامادناه	وامادناه	ايام
٢٩	١٤	سمد	عمرو بن سعد	تم
٣١	١٠	العلم	العلم	تتار
٣٣	١٢	إن المؤمنون إخوة	المؤمنون إخوة	رب
٣٩	١٧	مزوجة	زوجة	
٤٢	١	كتاب	كتب	
٤٣	١٤	الأشراق	الأشراف	
٥٦	١٧	وبدا تعاليمه	وبدا المقنع تعاليمه	
٥٨	٢١	اشتد	استند	
٥٨	٢١	افادة	أفاده	نارة
٥٨	٢١	فهى	فهيأ	ولى
٥٩	١٧	ألهوا	ألهوا	جت
٧١	١٧	الأقسين	الأفشين	إرد
٨٠	١٦	ذرخ	ذرخ	
١٢٢	١	تقلب	تلقب	
١٢٠	١٧	عينية	عينية	
١٥٨	١١	رسالتهم	رسالتهم	شهم
١٦٠	١٢	مقصود	مقصود	كذا
١٦٠	١٨	تخير	تخير	ناعة
١٦٣	٦	الجابة	الجابة	ما ،
١٧٥	١٠	تفاورت	تعاورت	لللب
١٧٦	٨	فتا	فتاء	
١٧٦	٨	حره	شرة	
٢٠٦	٧	الغوا	الغوا	نموة

والذين لم يستطيع الخليفة دفع عاديتهن ، والموالى الباطنيون المعروفون بالحشاشين ينشرون في جسم الدولة يغيرون على أطرافها ويستولون على المدن والقلاع إلى أن استيقظت الخلافة العباسية من غفوتها فاستطاع المقتدى لأمر الله أن يستقل بالأمر دونهم ، ثم أتم نعمة الاستقلال من بعده الخليفة الناصر لدين الله حيث قضى على سلطانهم عام ٥٩٠ هـ تماماً .
جلس هذا الخليفة اليقظ على كرسي الخلافة عام ٥٧٥ هـ فشرع يدبر الملك تدبير الحكيم وأعاد للخلافة مكانتها وهيبتها ، ولما اشتد ساعده شرع يساعد صلاح الدين الأيوبي في حربه مع الصليبيين وخفف الباطنيون من غلوئهم استجابة لدعوته ، وجددوا على يديه إسلامهم ، وكادت أيام العباسيين الأولى تعود ، لولا أن عين الدهر التي لا تريد لهم ذلك لم تنم فبعثت للعالم الإسلامي مصيبة من مصائب الأيام بلشوء دولة للتتار في أواسط آسيا بقيادة رئيسهم جنكيز خان وأخذوا يزحفون نحو الغرب لغزو البلاد الإسلامية .

وبعد موت الناصر أخذت الخلافة تتأرجح بين القوة والضعف تارة أخرى نتيجة تغلب الموالى والمماليك على سياسة البلاط ، حتى ولى المستعصم أمور الدولة ، فازدادت البلاد اضطراباً وكثرت الفتن وماجت بغداد بالمشعوذين ، ونبتت رؤوس الناقمين من الموالى ، وقلت موارد الدولة ، وصرف المستعصم جنده لقلّة الموارد واقتصاداً بالنفقات .

في هذه الحنة التي كانت تضر بغداد كان المغول يجمعون جيوشهم ويتأهبون للاستيلاء على البلاد الإسلامية وعلى عاصمة الخلافة وهكذا سار هولاكو بجيش لجب لا يبق ولا يذر ، وقد سعى في طريقه جماعة الباطنيين الاسماعيليين الذين اتعبوا الدولة العباسية ، وانكروا قواها ، وتقدم إلى بغداد لتصفية حساب عقيدة التوحيد ، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه الطاعة فأبى أكثر الناس ، عند ذلك صمم هولاكو أن يفتحها عنوة

فأحصرها وشدد الحصار عليها ، وجعلت عاصمة العروبة والإسلام تحتضر . فخرج المولى مؤيد الدين محمد بن العلقمي وزير بلاط المستعصم بعد حصار بدأ في اليوم الثاني عشر من شهر محرم الحرام وانتهى في اليوم الثامن والعشرين منه لعام ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م وسلم مفاتيح الأبواب لأيد المغول فأنحدروا إليها من كل حذب وصوب وأخذت أيديهم تفتك قتلاً ونهباً وإحراقاً وقتلوا الخليفة ، واستأصلوا أهل بيته إلا ولده الصغير وأعملوا السيف في أبناء العباسيين لا يستثنون امرأة ولا طفلاً ولا شيخاً كبيراً .
هكذا تلاشت بغداد العالم وراء الأفق ، وأسدل الستار على قوة الدنيا والدين .

كادت تلتهم القضية العربية عند هذا الحد لولا أن المملوك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ٧٧) علق في ذهنه أنه لا يقوى على حمل أعباء الحكم في هذه الموقعة المضطربة من الزمان إلا إذا استعان بسلطة روحية تعينه على تثبيت ملكه ، فدعا أبا القاسم كبير العباسيين الذين قدروا على الإفلات من يد التتار ، فأقامه خليفة له السلطة الروحية وللظاهر بيبرس السلطة الزمنية . واستمر الخلفاء العباسيون يتمتعون بهذا المظهر حتى فتح السلطان سليم العثماني بلاد الشام وتوجه إلى مصر وغلب المماليك ودخل القاهرة فاتحاً عام ١٥١٧ . وعاد إلى الأستانة ومعه المتوكل آخر خليفة عباسي حيث نزل لسليم عن حق الخلافة كما يزعمون ومنذ ذلك اليوم أخذ آل عثمان يلقبون بالخلفاء ومع أنهم لم يكونوا من قریش فقد أطاعهم العالم الإسلامي الذي أنهكته فتن الأعاجم وحروب الصليبيين ، وبذلك أسدل آخر ستار على القضية العربية وبدأ تاريخ جديد للعالم الإسلامي لم يكن للعرب اليد الأولى فيه كما كانوا قبلاً قادة الأمة وحماة العقيدة .

الفصل الثامن

المحاولة العربية

في هذه الحياة المنتشرة والتدخل الأجنبي المتغلغل في البلاد ، والاستئثار بالسلطان من قبل غير أهله ، كانت تظهر في الفينة بعد الفينة حركات عربية تحاول إرجاع الحالة السابقة ولكن ذلك لم يجد نفعا . فقد كان في شمال العراق في القرن الرابع الهجري والقرن العاشر الميلادي حكومة للحميدانيين في الموصل وفي حلب ، وكان بلطاس سيف الدولة يومئذ يجمع العلماء ومجلس الأدباء والشعراء لا يماثله في ازدهار العلم إلا بلطاس الرشيد أيام ازدهار ملكه . غير أن الظروف لم تسمح لهذا الأمير العربي أن يمد سلطانه ويقضى على هذا التغلغل الأجنبي الذي بعثته حركات الموالى . فقد كان يحمى ثغوره من هجمات الروم وكانت الحرب بينه وبينهم سجالا ، وطالما أوقع بهم وفرق صفوفهم وقد خلده المتنبي بقصائده لا تزال الآلىء في عقد الأدب العربي .

كان المتنبي يحرض القوم ويستحث أمثال هذا الأمير على إعادة المجد العربي فهو يرى أن أقاليم الخلافة قد مزقت أوصالها تلك المؤامرات وانفصل بعضها عن بعض وتولى أمورها ملوك تنزل بهم صفاتهم عن مصاف الملوك .

وإنما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهد لهم ولا ذمم
بكل أرض وطئتها أئم ترعى بعبد كأنها غنم
وفي الفرات الأوسط من سهول الراقدين قامت دولة المزيديين ،

ونكادت تستولي على جميع العراق ، اتخذت مدينة الحلة عاصمة لها وتقلب رئيس الأسيرة ملك العرب ، ولو قدر النجاح لهذه الحركة لكان للتاريخ العربي صفحة أخرى غير هذه الصفحة وقد خلد الحريري في المقامة التاسعة والثلاثين اسم الأمير سيف الدولة ديبس بن يزيد الأسدي بمدح يدل على شعور الناس بالتحول ومال حكم الغرباء .

استولت هذه الأسيرة على واسط وعلى البصرة وامتد حكمها زمنا قصيرا ، ولكن لم تستطع تثبيت قدمها في أرجاء المملكة .

لقد أدرك العرب أن سر انهيار سلطانهم لم يكن في الناحية السياسية فحسب . فأخذوا يتجهون إلى نواحي أخرى : إلى بعث جديد يعيد التراث القديم الصافي من شوائب البدع التي أدخلها المندسون في صفوف الإسلام ورءوا في الرجوع إلى ذلك الصفاء ابتداء عهد جديد يعيد إلى الأمة أمجادها الأولى التي بعثها بطاح مكة والمدينة وفي الرجوع إلى تلك العقيدة الصافية إعادة قوة الأمة وسلطانها الزماني الذي فقدته فانهارت بغداد وتبعها العالم العربي ، وكان طليعة هؤلاء المفكرين فقيه عربي نابغة هو ابن تيمية .

ابن تيمية وتلامذته

نجح خصوم الإسلام والعرب بما أودعوا هذه العقيدة من شوائب البدع والضلالة واستطاع أتباع مزدك والسبائية اليهودية ومن على شاكلتهم من أرباب العقائد الذين دخلوا في الإسلام للكيد به أن يبثوا عقائدهم ، ويدسوا ما يريدون ، وقد ذكرنا آنفا أنهم اتخذوا السياسيين والشعراء والأدباء والعلماء من يدين بتلك العقائد والذين انتحلوا الإسلام لا للإسلام وإنما لهدمه وسائل لتنفيذ مقاصدهم ، وكان أشد هؤلاء كيدا فرق الباطنية وأتباع قرمط وغيرهم من الفرق المتقاربة مع مبادئهم والتي كانت امتدادا

لحركة أبي مسلم الخراساني والسبائية اليهودية . وظلت محاول هؤلاء الهدامين تعمل حتى انهار هذا الصرح الممرد العظيم ووهنت تلك القوة التي كانت تمد شباب العالم بالمرّة والشدة ، وتبعث فيه العدل والاخاء والمساواة ، فسهل على التانار أن ينحدروا انحدار السيل لا يبقون ولا يذرون ، حتى بلغوا بغداد عاصمة الخلافة وموطن الثقافة والسلطان ، فأتوا عليها وأزالوا حضارتها من الوجود ومزقوا وهدموا وأحرقوا ومثلوا وقد نجما من هذه الكارثة ثمن فر بدينه وبدنه وذل من بقي قتلا وأسراً .

كان أثر الذين حاربوا عقيدة الإسلام بالغاً أشده حتى صارت بدعهم مألوفة تمارس وتدرس بل صارت أصولاً تتفرع منها فروع وافتن هؤلاء الهدامون في بث عقائدهم وتسهيلها على الناس وموافقتها لرغبة كل سامع لها فاستطاعوا أن يجلبوا العامة إليها فكثير بذلك أتباعهم وازداد خطرهم وجعلوا يوجهون الناس للمشر ويؤهلونهم للفوضى ومحاربة السلطان .

ويل أمة تفسد أصولها بالبدع الأجنبية عنها ، إنها تمسخ مسخاً دون أن تشعر بالمسخ ، وتهون دون أن تحس بالهوان حتى يقيض الله لها من ينفخ الصور في أذنها فيبيعها بعثاً جديداً .

وهكذا فقد قبيض الله لهذه الأمة عقلاً واضح العقيدة قوى الحجّة نافذ الرأى في النقيض الأديب العربي تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن عبد الله ابن محمد ابن تيمية الحراني العربي .

ولد هذا المصلح في يوم الإثنين في العاشر من ربيع الأول عام ٦٦١ هـ الموافق ٢٢ كانون الثاني عام ١٢٦٣ في أول النصف الثاني من القرن الثالث عشر .

فر أبوه به وبأسرته من حران إلى دمشق خوفاً من بربرية التانار فحكف وهو غلام صغير على دراسة الفقه فحضر على أبيه كما حضر على

كثير من العلماء وأتم دراسته وهو في سن العشرين واقتعد مكان أبيه بعد وفاته وشرع يفسر للناس القرآن يوم الجمعة من كل أسبوع .

وحج إلى مكة عام ١٢٩٢ ورجاء إلى القاهرة عام ١٢٩٩ ثم أخذ يتردد عليها في الفينة بعد الفينة على حسب ما تقتضيه ظروفه التي تحيط به .

كان ابن تيمية صافي العقيدة واضح الرأي وضوح الصحراء العربية لا تجد فيها دغلاً ولا شجراً متأشباً . وكان يصحب هذا الصفاء منطق مستقيم وفلسفة متوشجة بعقل الحوادث وأسبابها أخذها عن فلسفة اليونان والعرب ومزجها بما درسه من أصول التشريع والفقه الإسلامي وزاد على ذلك ما تفرد به في دراسة القرآن والحديث .

كان يغمر ابن تيمية شعور بالحزن عميق على ما وصلت إليه الأمة من الضلالة والهوان ، وعز عليه أن يرى عقيدة التوحيد تتأرجح بين الشك والوهم بما أصابها وانحدر إليها من مبادئ الباطنية وأفعال القرامطة وآراء مزدك وماني وابن سبأ ومن لف لفهم من الناقمين على الإيمان .

فإن الإشراق الإلهي الذي كان ركناً ركيناً في مبادئ الباطنية والذي فيه تشرق المعرفة على الأئمة فتسموا بهم إلى مرتبة لا ينالها غيرهم ، كان سبباً لتأويل الشريعة حسب أهواء هذه الفرقة ووفق ميولها ، وإن تأليه البشر الذي ابتدعة السبائية وثبته الباطنية قد بعث فرقة الاتحادية بأوسع معانيها في الوجود ، وحسبنا أن نذكر بعضاً مما فصله ابن تيمية في رسالته : « الرد الأقوم على ما في كتاب فصوص الحكم » . قال ابن تيمية إن ما تضمنه هذا الكتاب وما شاكلة من الكلام فإنه كفر باطناً وظاهراً وباطنه أقبح من ظاهره وهذا يسمى مذهب أهل الوحدة وأهل الحلول وأهل الاتحاد وهم يسمون أنفسهم المحققين ، وهؤلاء نوعان : نوع يقول بذلك مطلقاً كما هو صاحب الفصوص ابن عربي وأمثاله مثل ابن سبعين وابن الفارض والقونوي والششتري والغلساني

وأما ملهم بمن يقول إن الوجود واحد ، ويقولون إن وجود المخلوق هو وجود الخالق ، لا يثبتون موجودين خلق أحدهما الآخر . بل يقولون : الخالق هو المخلوق ، والمخلوق هو الخالق ويقولون إن وجود الأصنام هو وجود الله ، وإن عباد الأصنام ما عبدوا شيئاً إلا الله ، ويقولون إن الخالق يوصف بجميع ما يوصف ؛ المخلوق من صفات النقص والذم .

ويقولون إن عباد العجل ما عبدوا إلا الله ، وإن موسى أنكر على هرون لكون هرون أنكر عليهم عبادة العجل ، وإن موسى بزعمهم كان من العارفين الذين يرون الحق في كل شيء ، بل يرونه عين كل شيء ، وإن فرعون كان صادقاً في قوله : « أنا ربكم الأعلى » ، بل هو عين الحق ، ونحو ذلك مما يقوله صاحب الفصوص . ويقول أعظم محققهم : إن القرآن كله شرك لأنه فرق بين الرب والعبد وليس التوحيد إلا في كلامنا — ففيل له فإذا كان الوجود واحداً فلم كانت الزوجة حلالاً والأُم حراماً ؟ فقال الكل عندنا واحد ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام فقلنا حرام عليكم .

ويستمر بن تسمية في رده ويقول : « إن التلسماني كان من أعظمهم كفراً وفسقاً وكان من أعرفهم لهذا المذهب وأخبرهم بحقيقته فأخرجهم ذلك إلى الفعل » .

ويقول إنه كان يستحل المحرمات ويصنف للنصيرية كتباً على مذهبهم يقرهم فيها على عقيدته الشركية ، ويقول إن ابن سبعين كان من أئمة هؤلاء وكان له من الكفر والسحر الذي يسمى السيمياء والموافقة للمسيحية والقرامطة والرافضة ما يناسب أصوله .

وهو يشبههم بالجهمية ، ويقول إن هؤلاء من جنس الجهمية الذين يقولون إن الله بذاته حال في كل مكان ، ولكن أهل وحدة الوجود حققوا هذا المذهب أعظم من تحقيق غيرهم من الجهمية .

وأما النوع الثاني فهو قول من يقول بالحلول والاتحاد في معين كالخامية الذين يقولون بذلك في الحاكم ، والحلاجية الذين يقولون بذلك في الحلاج ، واليونسية الذين يقولون بذلك في يونس ، وأمثال هؤلاء من يقول بالوهية البشر وبالحلول والاتحاد فيه ، ولا نجعل ذلك مطلقاً في كل شيء ومن هؤلاء من يقول بذلك في الذسوان والمردان أو بعض الملوك وغيرهم ، انتهى ما أخذناه من كلام ابن تيمية .

ويكفي للمرء أن ينظر نظرة عابرة إلى هذه الأمثلة ثم يرجع إلى ما أثبتناه في فصولنا السابقة ليرى كيف انحدرت هذه المبادئ في أصلاب الزمن لتنتقل في الأشخاص والنحل وتتطور حتى لبست ثوبها الأخير المهلهل الذي تهللت به أخلاق الأمة وتقاليدها فأخذت تسبح في هذا الفساد المزدي المتحلل من كل قيد والذي تستر بستر الدين ومعرفة الكشف عن الحقيقة فضل به الجهال الذين يحسنون الظن بأقوال أولئك فتأهوا وطفقوا يمشون في يهماء من الضلال والفي يرتعون بما تشتهيه لذاتهم وغرائزهم ثم ينسجون ذلك كله إلى وحدة الوجود .

ونشأ عن هذا النوع من التأليه تقديس البشر والأحجار ونصب الأصنام وعبادة النقوش فقد نقشت على الصخور آثار قدم زعم ناقشوها أنها قدم النبي (ص) ونقشت كف زعم الدجالون أنها كف الرسول (ص) وأخذوا يطوفون بها على البيوت يخدعون العامة ويأخذون منهم الأموال ويدعون أن من نذر لها أو تبرك بها شفى وطفق من على شاكاة هؤلاء يبنون المشاهد والمساجد على قبر من القبور يزعم أحدهم أنه رأى في المنام أن هذا المكان مرقد لولي أو لرجل صالح وأنه شم عبيراً منتشراً من هذا المكان وأن هذه الرائحة ما هي إلا دلالة على صلاح صاحب هذا المكان وولايته ، ثم يشرعون يدعون الناس للتبرك به والتوسل إليه ، وليس من شك في أن هذه الوثنية يقصد بها صرف الناس عن التوحيد وعن

حج بيت الله اكتفاء يمثل هذه الزيارات ، ولقد مر بنا كيف خطف القرامطة الحجر الأسود من مكة ووضعوه عندهم ليضعضعوا عقيدة الناس في أول بيت وضع لهم .

لقد اطمأن كثير إلى هذه المبادئ وصارت أصولاً في عقائدهم يدافعون عنها ويحاربون من أجلها حتى لقد ساعد النصيرية التاتار على اغتيال الإسلام ، هال ابن تيمية فساد مجتمعه بهذه المبادئ الهدامة فنزل يدفع عن عقيدة التوحيد بقلبه وفمه وسيفه وطفق . يحرر الرسائل في الرد على هؤلاء المبتدعة ويعظ الناس وحرّض السلطان على مقاتلة النصيرية مع التاتار فنجح وكسر النصيرية شر كسرة وكم مرة نزل ابن تيمية يحمل فأسه يحطم الأصنام كما حطم ابن الوليد اللات والعزى . وكان عبدة الأصنام يفرون منه إشفافاً عليه وخوفاً أن يناله عقابها ، وكان يبتسم ضاحكاً منهم ويعجب لأمر هذه الأمة التي رفع التوحيد مكاتها إلى السماء كيف انحدرت بالشرك تتمرغ على أقدام الأحجار تستنزل النصر من القبور بدل أن تطلبه من خالق الخلاق ، أراد ابن تيمية أن يهذب النفوس ويبعث فيها العزة والقوة ويربطها بالسماء فكتب لهم رسالته في الرد على الاتحادية يدلل رده بالمعقول والمنقول ، ويكفي أن ننقل إليك ما جاء في أدلته المنقولة فإن العقل مع ابن تيمية والنوق . إذ لا يعقل أن يحول في الذهن اتحاد خالق بمخلوق فإن تجرى عليه نواقص الحياة وزياداتها جميعها قال ابن تيمية مقتبساً من القرآن : لا ريب في أن الله رب العالمين ، رب السموات والأرضين وما بينهما ورب العرش العظيم رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً ، ربكم ورب آبائكم الأولين ، رب الناس ملك الناس إله الناس . وهو خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ، وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ، وهو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم .

فهذه المعاني وما أشبهها من معاني ربوبيته وملكوته وخلقته ورزقه وهداياته ، ونصره وإحسانه ، وبره وتدييره ، وصنعه ، ثم ما يتصل بذلك من أنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه سميع بصير ، لا يشغله سميع عن سميع ، لا تغلظه المسائل ، ولا يتبرم بالحاح الملحّين ، يبصر ديب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء . فهذا كله حق ، وهو المحض توحيد الربوبية ، وهو مع هذا قد أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، وأحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين . ومن هنا نرى ابن تيمية يؤكد على عقيدة التوحيد وينزه الإله عما يريد به الضالون من البشر . لأن الإله يجب أن يكون منزهاً عن هذه النواقص التي تحيط بالإنسان ، وأن الإنسان لا يمكن أن يقيس الإله بمقاييسه الصغيرة الضيقة . وكتب رسالة في زيارة القبور والاستنجاد بالموتى ، واعتمد في أدلته على ما جاء من الآيات في القرآن الكريم وما جاء في أحاديث النبوة ، قال تعالى : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ، إلا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ، ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم يوم القيامة فيما هم فيه يختلفون » .

وقال تعالى « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » وقال « قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وأدعوه مخلصين له الدين ، وقال « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً » .

« أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا » .

وقال تعالى : « أفسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دوفى أولياء إنا اعتدنا جهنم للكافرين نزلاً » .

وقال تعالى : « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » .

وقال : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيا أمركم بالكفر بعد أن كنتم مسلمون » .

وقال تعالى : « فلا تخشوا الناس واخشوني » .

وقال : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني » .

وجاء في الحديث ، أن الصحابة كانوا في سفر وكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فأنكم لا تدعون أصم ولا غائباً بل تدعون سميعاً قريباً أقرب إليكم أو إلى أحدكم من عنق راحلته » .

لقد جاء الإسلام قوياً شديداً يملأ القلوب نوراً ويحرر النفوس من الذلة فخطم الأصنام وبعث في الناس العزة والكرامة وسأواهم وجعلهم أخوة وارتفع بهم من ذلة الأرض إلى عزة السماء لكيلا يتمرغوا تحت قدم صنم ولا يسجدون للنصب ولا يخشون عبداً من عباد الله مهما كانت منزلته ، فالخشية لله وحده والرابطة به وحده أيضاً . وفي هذه الرابطة المقدسة تعزز النفوس وتسمو الكرامة وتبدو الحرية مجلوة ، وفي ظلال الحرية المجلوة يمدح الإنسان في عمله ويشق بنفسه ، وليس أحلى من الثقة بالنفس إذا كانت معيزة بعقيدة سامية . وهذه هي المثل العليا للأمم في تكوين الفرد والأسرة والمجتمع ، وإذا كان الفرد عزيزاً عزت الأسرة وإذا عزت الأسرة عز المجتمع وإذا كان المجتمع عزيزاً عزت الدولة ، وصارت مرهوبة الجانب وهذا ما كان يريد ابن تيمية لأمته في ذلك

الزمن الذي، ذلك به النفوس فأصبحت هذه الأمة نهياً مقسماً يقتسمها الطامعون بعد أن كانت عزيزة الجانب .

إن النفوس الضعيفة تتعاقب بخيوط العنكبوت وتتشتت بأضعف الوسائل وتتمسك بالأوهام ، فأراد ابن تيمية أن يرتفع بها من ساحة الأوهام إلى الحقائق ويبعد سمياً مظلمة غشيت عيونهم فذكرهم بعقيدتهم الغراء ، عقيدة التوحيد ، وجاءهم بآيات واضحات تحدد مكانة الإنسان بالنسبة لأخيه الإنسان وبالنسبة خالقه .

إن التوحيد ميزة الأمم الراشدة العاقلة التي يصل بها منطقها إلى وجود قوة خارقة فوق الطبيعة وفوق الممكنات ، وفوق مقاييس البشر ، هذه القوة هي رب واحد قديم غنى عما سواه ، لا شريك له في الوجود ، وأن العباد مهما سميت منزلتهم لن يصلوا إلى منزلة الربوبية . ولن تصح عبادتهم والتوسل إليهم ، لأنهم عباد الله لا يضررون ولا ينفعون ، وإن الإنسان لن يسمو إلى منزلة ربه .

قال تعالى : « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله » . فالقوة في كشف الضر وإرادة الخير أن تكون لبشر ، وإنما تكون لله وحده ، ومن يلجأ إلى بشر في رأى ابن تيمية فقد أشرك ، ومن أشرك فقد ضل ، ومن ضل فقد ذل ، ومن يذل يسهل الهوان عليه ، وهكذا أصاب الأمة الإسلامية ذلك الضعف حين ألهمت الضعفاء واستكانت إلى الأصنام .

وناقش ابن تيمية أهل الفرق في ذات الله وصفاته ، فقال : « الأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله نفيًا وإثباتًا فيثبت لله ما أثبتته لنفسه وينفي عنه ما نفاه عن نفسه وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبتته من الصفات من غير تسكييف ولا تمثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل ، وكذلك ينفون عنه ما نفاه

عن نفسه مع إثبات ما أثبتته من الصفات من غير الحاد لا في أسمائه ولا في آياته .

ثم قال : « وطريقتهم في ذلك تتضمن اثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات اثباتاً بلا تشبيه وتنزيهاً بلا تعطيل ، كما قال تعالى : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » . ففي قوله ليس كمثله شيء رد للتشبيه والتمثيل وقوله وهو السميع البصير ، رد للإلحاد والتعطيل ، والله سبحانه بعث رسوله بإثبات مفصل ونفي مجمل ، فأثبتوا لله الصفات على وجه التفصيل ، ونفو عنه ما لا يصح له من التشبيه والتمثيل كما قال تعالى : « فاعبدوه واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً . »

وقال تعالى : « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » . وقال تعالى : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » . وقال تعالى : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله » وقال تعالى : « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ، يديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم » .

وقال تعالى : « فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ، ألا إنهم من أفكهم ليقولون ولد الله ، وإنهم لكاذبون ، اصطفى البنات على البنين ، مالكم ، كيف تحكمون ، أفلا تذكرون ، أم لكم سلطان مبين ، فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ، وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ، ولقد علمت الجنة أنهم لمحضرون ، سبحانه الله عما يصفون وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين » .

وقال ابن تيمية ، وأما الإثبات المفصل ، فإنه ذكر من أسمائه وصفاته ما أنزله في محكم آياته كقوله تعالى : « الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، بكاملها . وقوله : « قل هو الله أحد الله الصمد .. السورة » .

وقوله : وهو العليم الحكيم ، وهو العليم القدير ، وهو السميع البصير
وهو العزيز الحكيم ، وهو الغفور الرحيم ، وهو الغفور الودود
ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد .

هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم هو الذي
خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج
في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم
أيما كنتم والله بما تعملون بصير .

وقوله : « ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ، فاحبط
أعمالهم ، وقوله فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين .
أعزة على الكافرين » .

وقوله رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه . وقوله :
« ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها و غضب الله عليه ولعنه ،
وقوله : « إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم
إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون » ...

إلى أمثال هذه الآيات والأحاديث الثابتة عن النبي في أسماء الله تعالى
وصفاته ، فإن ذلك من إثبات ذاته وصفاته على وجه التفصيل ، وإثبات
وحدانيته بنفى التشثيل ما هدى الله به عباده إلى سواء السبيل ، فهذه طريقة
الرسل صلوات الله عليه وسلامه أجمعين .

وقال ابن تيمية : وأما من زاعغ وحاد عن سبيلهم من الكفار والمشركين
الذين أوتوا الكتاب ومن دخل في هؤلاء من الصائبة والمتفلسفة والجهمية
والقرامطة والباطنية ونحوهم فإنهم على ضد ذلك ، يصفون بالصفات
السالبة على وجه التفصيل ولا يثبتون إلا وجوداً مطلقاً لا حقيقة له عند
التحصيل ، وإنما يرجع إلى وجود في الأذهان يمتنع تحققه في الأعيان
فقولهم يستلزم غاية التعطيل وغاية التشليل ، فإنهم يمثلونه بالممتنعات

والمعدومات ، والجمادات ويعطون الأسماء والصفات تعطيلًا يستلزم نفى الذات ، فغلاتهم يسلبون عنه النقيضين ، فيقولون لا موجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت ، ولا عالم ولا جاهل ، لأنهم يزعمون أنهم إذا وصفوه بالإثبات شهوه بالموجودات وإذا وصفوه بالنفي شهوه بالمعدومات فسلبوا النقيضين ، وهذا ممتنع في بداهة العقول ، وحر فوا ما أنزل الله من الكتاب وما جاء به الرسل ، فوقعوا في شر مما فروا منه ، فإنهم شهوه بالممتنعات إذ سلب النقيضين كجمع النقيضين كلاهما من الممتنعات وقد علم من الاضطرار أن الوجود لا بد له من موجد واجب بذاته غنى عما سواه قديم أزلي ، لا يجوز عليه الحدوث ولا العدم فوصفوه بما يمتنع وجوده فضلًا عن الوجوب أو الوجود أو القدم ، وقاربهم طائفة من الفلاسفة وأتباعهم فوصفوه بالسلب والإضافات ، دون صفات الإثبات ، وجعلوه هو الوجود المطابق بشرط الإطلاق وقد علم بصريح العقل أن هذا لا يكون إلا في الذهن ، لا فيما خرج عنه من الموجودات ، فجعلوا الصفة هي الموصوف ، فجعلوا العلم عين العالم مكابرة للقضايا البديهيات ، وجعلوا هذه الصفة هي الأخرى ، فلم يميزوا بين العلم والقدرة والمشية جهداً للعلوم الضروريات ، وقاربهم طائفة ثالثة من أهل الكلام من المعتزلة ومن اتبعهم ، فأثبتوا لله الأسماء دون ما تتضمنه من الصفات فنهى من جعل العليم والقدير والسميع والبصير كالأعلام المحضة المترادفات ، ومنهم من قال عليم بلا علم ، قدير بلا قدرة ، سميع بصير ، بلا سميع ولا بصير . فأثبتوا الاسم دون ما تضمنه من الصفات ، والكلام على فساد مقالة هؤلاء وبيان تناقضها بصريح المعقول المطابق لصحيح المنقول المذكور في غير هؤلاء الكلمات .

وهؤلاء جميعهم يفرون من شيء فيقعون في نظيره وفي شر منه مع ما يلزمهم من التحريف والتعطيل ، ولو أمعنوا النظر لسووا بين المتماثلات

وفرقو بين المخلفات كما تقتضيه المعقولات ولكانوا من الذين أوتوا العلم الذين يرون أنما أنزل إلى الرسول هو الحق من ربه ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ، وليكنهم من أهل المجهولات المشبهة بالمعقولات يسفستون في العقلیات ويقرمطون في السمعيات ، وذلك أنه قد علم بضرورة العقل أنه لا بد من موجود قديم غنى عما سواه إذ نحن نشاهد حدوث الحوادث كالحيوان والمعدن والنبات ، والحوادث ممكن ليس بواجب ولا ممتنع وقد علم بالاضطرار أن المحدث لا بد له من محدث والممكن لا بد له من موجود كما قال تعالى : « أم خلقتوا من غير شيء أم هم الخالقون » .

فإذا لم يكونوا خلقوا من غير خالق ولا هم الخالقون لأنفسهم تعين أن لهم خالقاً خلقهم .

يتبين من هذه الأمثلة التي اقتبسناها من الرسالة التدمرية لابن تيمية أن هناك صراعاً عنيفاً في الآراء بينه وبين القرامطة الباطنية ومن اشتق منهم والفلاسفة والمعتزلة في بعض آرائهم ولقد أوضح ابن تيمية بعض ما جاءوا به وأورد رايه .

وصفوة ما جاء في آرائه في هذا الباب : أن ما ورد في القرآن الكريم من الأسماء والصفات في ذات الله وصفاته مقرر ثابت لا ينكر ولكنها لا تخضع لمقايستنا نحن البشر ، فله استواء معلوم وله سميع ليس كسمعنا وبصر ليس كبصرنا وقدرة لا تشبه قدرتنا ، ومقتته وغضبه وحبه وانتقامه ورضاه أمور على غير ما هو معروف بيننا ، فهو قديم غنى عن سواه ، وأن الضرورة تقتضى ذلك وتقتضى هذه القاعدة المنطقية بمقدماتها ونتائجها ، وهو : أن الممكن لا بد له من موجد ، والله واجب الوجود هو موجد هذا الكون وإذا سمي الله نفسه سميعاً بصيراً في قوله : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعماء يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً ، وسمى بعض عباده سميعاً بصيراً في

قوله : إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ، فإنه ليس السميع كالسميع ولا البصير كالبصير ، كذلك ليس المتكبر كالمتكبر والجبار كالجبار في الآيات التي سمي الله نفسه بذلك وسمى عباده بها .

لم يوجه ابن تيمية إصلاحه إلى العقيدة فقط بل اتجه إلى إصلاح اجتماعي خطير إلى مكانة المرأة في بيتها فاختلف مع علماء عصره في شأن الطلاق إذا كان يميناً وذلك إذا قال الرجل : « الطلاق يلزمني لأفعلن كذا أو لأفعلن كذا فيحلف به على حض لنفسه أو لغيره أو تصديق خبر أو نفيه . فإن ابن تيمية يجعله من قبيل الأيمان التي لا تعقد بالله ولا لله وإنما تعقد بمخلوق أو لمخلوق مثل أن يحلف بالطواغيت أو بأبيه أو السكبة أو غير ذلك فهذه يمين غير محترمة فلا تنعقد ولا كفارة بالحنث فيها بانفاق العلماء (١) .

ويستدل على ذلك بالأحاديث النبوية والآيات القرآنية ولا يجعلها تدخل في أيمان المسلمين لقوله صلى الله عليه وسلم (من حلف بغير الله فقد أشرك) وقد اشتد الخلاف بينه وبين علماء عصره حتى طالبوا من السلطان أن يأمر بمنعه من الافتاء بمثل هذه المسائل ، ولما لم يخضع لهذا الأمر حكم عليه بالسجن في أغسطس عام ١٩٢٠ وسجن في قلعة دمشق ولبث في السجن خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً .

ولم ينس ابن تيمية في إصلاحاته وصيحاته سياسة الملك فكتب رسالته السياسية الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ، وجعل الإمارة قوام الأمة وواجباً من واجبات الدين لا يقوم إلا بها ، لأن المجتمع يقتضى ذلك في رأيه ، ولأن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بالقوة والإمارة ، ولذلك قيل إن السلطان ظل الله في الأرض كما قيل : « سنة من إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان » .

ويرى ابن تيمية أن الإمارة دين وقربة يتقرب بها إلى الله فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعته رسوله من أفضل القربات وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لا بتضاء الرياسة أو المال بها .

وينكر على الإمارة الاستبداد واحتيجان السلطان والمال ، وينذر بما أنذر الله به عباده في قوله : « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق ، وقال تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » .

ويعنى بذلك رؤساء الدول الذين يستبدون بالملك ويفسدون في الأرض ويقول إنهم شرار الخلق ، قال تعالى : « إن فرعون علواً في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين » .

ويجب الإطاعة من الرعية والمشورة من الراعي .

قال تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً » .

وقال تعالى : « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » .

وقوله تعالى : « وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم وما رزقناهم ينفقون » .

وأولو الأمر الذين ذكرهم فيما مر صنفان عنده : الأمراء والعلماء

وهم الذين إذا صلحوا صلح الناس ، فعلى كل منهم أن يتشعري ما يقوله ويفعله طاعة لله ولرسوله واتباع كتاب الله ، ومتى أمكن في الحوادث المشكلة معرفة ما دل عليه الكتاب والسنة كان هو الواجب ، وإن لم يمكن ذلك لضيق الوقت أو عجز الطالب ، أو تكافؤ الأدلة عنده أو غير ذلك فله أن يقلد من يرتضى علمه ودينه .

ويفتتح ابن تيمية هذه الرسالة بأداء الأمانات ويقسمها قسمين يدبر بأحدهما الولاية والثاني الأمانات من الأموال ، ويبدوها بالحديث : « من ولي من أمر المؤمنين شيئاً وهو يجد من هو أصلح المسلمين منه فقد خان الله ورسوله » .

وقال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) : « من ولي من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلاً لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين » . وبذلك يحارب ابن تيمية المحسوبية ، ولا يريد للولاية إلا الكفو القدير المستحق للولاية الذى ينوب عن الخليفة أو السلطان فى الأمصار لكيلا يستذلوا الناس ولا يحكموا بالعدل بينهم . والولاية كما قدم عنده أمانة بدليل قوله تعالى : « يأيا الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » . وينصح ابن تيمية أولى الأمر أن يختاروا الأمثل فالأمثل فى كل منصب بحسبه . وإذا فعلوا ذلك بعد التحرى والتدقيق فقد أدوا الإمارة حقها وقاموا بالواجب .

ويستمر ابن تيمية فى هذه الرسالة ، يفصل واجبات الإمارة ، وواجبات الولاية ، وواجبات الرعية حتى يستوفى الحاجة التى كانت أيامه تحتاج إليها ، ويفصل بعد ذلك الحدود والحقوق وصلات الناس بإمامهم وخالقهم وبأمشالهم من الناس يستمد ذلك من القرآن الكريم والحديث وأقوال السلف الصالح . وبوجز القول : ما ترك هذا العربى المصلح باباً

من أبواب الفساد المنتشر في أيامه إلا أوصده ووقف قلبه ولسانه وسيفه
للمخلص منه

كانت التهم تكال له جزافاً وكان حساده يؤلبون عليه السلطان وولاة
الأمور في كل حين ، وكان السجن والحرمان من بعض وظائفه وتقييد
حريته ومنعه من الكلام جزاء هذه التهم ، لقد اتهم بمشايعة مذهب التجسيم
ظلماً لحكم عليه بأن يلقى هو وأخوه في الجب بقلعة الجبل في القاهرة فبقى
فيه سنة ونصف سنة وخرج منه عام ١٣٠٨ م وبعد أيام قلائل من
خروجه اعتقل مرة أخرى ، وحبس في برج الإسكندرية فلبث فيه
ثمانية أشهر فلما أدخل سبيله عاد إلى القاهرة فعين مدرساً في مدرسة أسسها
السلطان ناصر وقد امتنع عن الفتيا للسلطان بما يجيز له الانتقام من
أعدائه ، وكيف يفعل ذلك ابن تيمية وهو حر أبي ، وفي أغسطس
عام ١٣١٨ منع بأمر من السلطان أن يفتي في مسألة الحلف بالطلاق ،
ولما لم يخضع لهذا الأمر حكم عليه في أغسطس عام ١٣٢٠ بالسجن
في قلعة دمشق وأفرج عنه بعد أن لبث فيها خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً
بأمر من السلطان ثم أعيد إلى السجن عام ١٣٢٦ بعد أن ظفر أعداؤه
بفتواه في مسألة شد الرحال إلى القبور التي كان أصدرها عام ١٣١٠
وقد أحليت له في هذه المرة غرفة كان يخدمه فيها أخوه . وفيها أقبل
على تفسير القرآن وكتابة الرسائل للرد على الخصوم وكتابة المؤلفات
حول ما حبس من أجله ، فلما علم خصومه خبر هذه المؤلفات ، وشوا به
فجرد من كتبه وأوراقه ومداده ، فكانت صدمة شديدة لم تخففها كثرة
الصلاة وقراءة القرآن فرض عشرين يوماً وتوفي في الليلة الثانية والعشرين
من شهر ذي القعدة عام ٧٢٨ الموافق ٢٦ - ٢٧ سبتمبر سنة ١٣٢٨ .

وقال الذهبي : وفي هذه السنة سنة ثمان وعشرين ومبعمائة هـ في ليلة
الثنين وعشرين من شعبان مات الشيخ الإمام العلامة الحافظ الزاهد

القدوة شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن المفقى شهاب الدين عبد الحليم
ابن شيخ الإسلام محمد الدين أبي البركات عبد السلام بن عبد الله
ابن أبي القاسم بن تيمية الحراني ثم الدمشقي معتمداً بالقلعة وغسل وكفن
فأخرج وقد اجتمع خلق كثير بالطرق وامتلاً الجامع والكلاسة
والخوانيت كيوم الجمعة أو أكثر وصلى عليه أولاً بالقلعة الشيخ محمد بن
تمام ، ثم بجامع دمشق بعد الظهر واشتد الزحام ، وألقى الناس عليه عمامتهم
ومناديلهم للتبرك وارتص الناس تحت النعش وشيعه الخلائق في جوار
من أبواب البلد ومعظمهم كان من باب الفرج مع الجنائز وعظم الأمر
بسوق الخيل ، وتقدم في الصلاة عليه هناك أخوه وانتشر الناس والنسوان
على الأسطحة وإلى قبلي مقابر الصوفية فدفن إلى جانب أخيه الشيخ عبد الله
وحزر النساء بخمسة عشر ألفاً ، وأما الرجال فحزروا بستين ألفاً وأكثر
إلى مائتي ألف وأكثر البكاء حوله وختمت له عدة ختم ، وتردد الناس إلى
زيارة قبره أياماً ورويت له منامات صالحة ورثاه جماعة ، وكان مولده
بحران عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة ، وطالب الحديث
وقرأ الكثير ، ووجدت بخط الشيخ كمال الدين بن الزملكاني أنه اجتمعت
فيه شروط الاجتهاد على وجهها ، وكان آية في الذكاء وسرعة الإدلاء
بحراً في القضايا ، رأساً في معرفة الكتاب والسنة ، هو في زمانه فريد
عصره علماً وزهداً وشجاعة وسخاء وأمرأ بالمعروف ونهيأ عن المنكر
وكثرة التضيف ، وما رأت عيناى مثله ولا رأى مثل نفسه في العلم .
ترك ابن تيمية الحياة الدنيا وهو مؤمن أن تعاليمه ستأخذ مكانتها
في قلوب الناس ، ولكنه لم يدر أن الناس يجتمعون على نعشه يرمون
عمامتهم ومناديلهم للتبرك به ويتخذون قبره مزاراً ، وتروى عنه المنامات
الصالحة وغير ذلك من الأمور التي كان يحاربها في حياته . لقد كان هذا
الشيخ عظيماً في أعين الناس ، عظيماً برأيه وشجاعته وقوة إيمانه عظيماً بثقته
بالله الواحد القهار .

لقد حدث المؤرخون أن ابن تيمية صنف خمسمائة مؤلف ولكن
والأسف لم يصل إلينا إلا نيف وستون كتاباً انتشر القليل منها .
وتكاد تكون هذه المؤلفات دفاعاً عن وحدة العقيدة وتبياناً لشأن
الإسلام في قلوب حملته وفي هذا العدد الضخم من المؤلفات دلالة على
جهد هذا العلامة الكبير والمصالح العظيم ودلالة على مبلغ حرصه على
مكانة هذه الأمة التي تقسمتها الأهواء وتنازعها ميول الموالى واتجاهاتهم
لإضعاف شوكتها والقضاء عليها . ولا شك في أن كثيراً من مؤلفاته التي
فقدت إنما فقدت عن طريق الخصوم الذين سعوا في إتلافها وإخفائها .
أخذ صوت هذا العالم الجليل يدوى في أنحاء الجزيرة العربية وفي
البلاد التي يظلمها القرآن فتمكن من قلوب المؤمنين وأثر تأثيراً كبيراً .
وقد خلفه تلميذه ابن القيم الجوزية وسار على نهجه فكتب وألف وظلت
تعاليمهما معاً تنتقل في أصلاب الحياة من طور إلى طور ، والزمن شحيح
لا يلد المصلحين والعباقرة إلا بمقدار ، وإذا انفلت من حضنه مصلح
تنسرك له وأدار له ظهر المجن وهياً الخصوم . وما كان ابن تيمية يدرى
أن يهيء الله لتعاليمه رجلاً من قلب الصحراء يدرسها فيهدى بهديها وينسج
على منوالها فلقد أتاح لتعاليمه محمد بن عبد الوهاب ، ولد ابن عبد الوهاب
عام ١١١٥ هـ ودرج في بلدة صغيرة تسمى عينية من أعمال نجد وتعلم دروسه
على شيوخ الحنابلة ، ومنها ذهب إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم
ليكمل علومه ، ولما عرض على قارحة الكمال حمل عصا التسيار وشرع يطوف
في أرجاء العالم الإسلامي فوصل البصرة وأقام بها وتركها إلى بغداد وأقام
بها ، وكان مجموع الإقامة بال عراق تسع سنين ، ثم ذهب إلى كردستان ،
وإلى همدان وأصفهان فألقى عصا التسيار فدرس فلسفة الأشراق
والتصوف ، وذهب إلى قم ومنها عاد إلى بلاده ، وانزوى في داره مدة
من الزمن وخرج بعد ذلك إلى الناس يدعوهم يبشرهم وينذرهم ويستهنىء

بأفعالهم وأعمالهم الوثنية ، ويدعوهم إلى التوحيد وإلى كلمة لا إله إلا الله يستبدل بالقرآن والحديث ويشرح أدلته شرحاً وافياً ، يحاول فيه صدق الحجة والإقناع . ولكنك لا تبصر في ثنايا شرحه وحججه ما كنت تراه في كتب ابن تيمية ، مما يدل على أن ثقافة ابن عبد الوهاب لم تصل إلى ذلك الأفق الواسع الذي كان ينبسط أمام ابن تيمية ، ومع ذلك فقد أدرك سر انهيار هذه الأمة . ووجد مفتاح السر في تبديل العقيدة « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . لقد وجد التوحيد تحيط به الأشواك والعوسج وتأشب حوله أدغال لا يستطيع أحد أن ينفذ إليه إلا بساطان . وأن المانوية والمزدكية والباطنية والقرامطة والسبائية تركت آثاراً امتد بها الزمن وطال حتى تمكنت من النفوس واستقرت في قراراتها وأصبحت عقائد لا يمكن تحويل الناس عنها ورأى الأوثان والأصنام التي حطمتها عقيدة التوحيد عادت ثانية فصارع بقوله تعالى « اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » . وقوله تعالى : « قل تعالوا أتتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً » . « فلا تدعوا مع الله أحداً » . « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء » . « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويفقر ما دون ذلك لمن يشاء » . « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون . »

ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون . « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » ، وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين « وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا » . قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون ، إن كنتم صادقين !

بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسئون ما تشركون .
وإذا مس الإنسان ضرر دعا ربه ، منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي
ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً قل تمتع بكفرك قليلاً إنك
من أصحاب النار .

بمثل هذه الآيات البينات سلك ابن عبد الوهاب سبيل أساتذته ابن تيمية
في توجيه الناس إلى عقيدة التوحيد التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه
وسلم إلى النهوض بأنفسهم من حضيض الذلة إلى العزة والقوة إلى الإيمان
الصافي إلى الارتباط بالله وحده . وفي هذه الفكرة وحدها معنى السمو
والرفعة ومعنى الاعتصام بحبل متين لا ينقطع والنفس التي ترتبط بالله
لا تذلل ولا تخضع لأحد ، ولا ترجد نفس أذل من النفس التي تتمرغ
أمام صنم ضخم منحوت من حجارة أو شجرة نابتة ، ولا توجد نفس
أذل من النفس التي تتخذ أحبارها ورهبانها أرباباً من دون الله أو تتخذ
أنداداً تحبهم كحبها لله ساء ابن عبد الوهاب هذه الذلة ورأى الناس قد
علقوا آمالهم وأعمالهم على غير الله واطمأنوا إلى المخلوقات يستشفون بها
من أمراضهم وعللهم ويجعلونها وسائل لأعمالهم وأرزاقهم وطفق الناس في
البلادياً كل بعضهم بعضاً لفساد العقيدة وضعف الإيمان فلم يربدا من أن يهزم
هذا ولم يجد شيئاً يبعث فيهم الحياة الصالحة والحياة العزيزة إلا الرجوع
إلى عقيدة التوحيد إلى الإيمان بالله إلى المبادئ التي جاء بها الإسلام

في أوله . ووجد العودة إلى هذه الفكرة وحدها كفيلاً بـرجوع القوة
والعزة التي كانت للإسلام في سالف عهده ، وللمؤمن المخلص الذي كان
لا يهرب أحداً إلا الله في نصير المنكر والدعوة إلى الحق .

فأرذى بدعوته وحورب في بلده . ثم هجرها إلى الدرعية حيث وجد
القوة تعين الدعوة والسيوف يحرس مبادئه . فقامت شوكته وانتشرت
دعوته . وسار في عرض بلاده يعلم ويصلح حتى اكتمل له العدد والعدة

ومشى إلى مكة والمدينة فاستولى عليهما . فأصبحت دعوته في هذا الاستيلاء
بنكسة قوية . فقد اهتز العالم الإسلامي واهتز عرش الخلافة في الأستانة
لأمرين اثنين أولهما أن أتباعه هدموا القباب وأزالوا ما كان على قبر
الرسول صلى الله عليه وسلم من الحلي والزينة فانتفض المسلمون في مشارق
الأرض ومغاربها لهذه الجرأة ورموا أصحاب هذه الحركة بالزندقة
وأنهموهم بالكفر .

وثانيهما خوف الخلافة في الأستانة من هذه الحركة التي تؤذن بقيام
دولة عربية تناوى الخلافة التركية .

وعلى ذينك نبط عداء شديد لها وأخذت السلطنة التركية تعمل
لقبرها في مكانها قبل أن تتسع ، فأحكمت الدعاية ضدها وشرعت تعد
العدة لمقاومتها . فلم ير السلطان محمود بداً من الاستنجاد بعامله على مصر
محمد علي باشا أن يسير الجند للقضاء عايرها في مهدا . سحب هذا الإذن
دعاية واسعة النطاق قام بها علماء المسلمين فألفوا الكتب ووضعوا
الرسائل ونشروها بين الناس يحذرونهم وينذرونهم من البلاء المؤكد الذي
سيصيب الإسلام إذا نجحت دعوة ابن عبد الوهاب .

جهز محمد علي جنده بإمرة ولده طوسون وكتب إلى الشريف غالب
شريف مكة يعلمه إعداد هذه الحملة ، وعلم إتياع ابن عبد الوهاب ما عزم
عليه عامل مصر فتجمعوا له ، ولما التقى الجمعان اهزم جند طوسون تاركين
وراءهم المؤن والذخائر ، ثم جاء طوسون المدد من أبيه فأعاد الكرة على
جند ابن عبد الوهاب وهزمهم واستعاد المدينة ومكة .

وفي صيف ١٨١٢ م أعاد إتياع ابن عبد الوهاب الكرة على جند
طوسون فاستولوا على مكة وكادوا يأخذون المدينة ، فبلغ الخبر محمد علي
فسار بنفسه بجند لجب عام ١٨١٣ ونزل جدة وحدث أن مات قائد الوهابيين
في درعية عام ١٨١٤ فاهارت قواهم ولم يسمدوا الجنود محمد علي وسار

طوسون إلى نجد ، ثم اضطرتة قلة المؤن إلى الرجوع عن عاصمتها ، وعاد كذلك محمد علي بعد أن فتح طريق الحج للحجاج ، ثم عاد طوسون ولم يلبث قليلا حتى توفي .

وبعد أن استقر محمد علي في ولايته خشي أن تعود الوهابيين قوتهم تارة أخرى فكتب إلى عاهلهم عبد الله أن يأتي إليه ومعه جميع الأموال التي أخذها جنده من السكبة فاعتذر عن المجيء . وأخبر أن الأموال قد ذهبت إلى أيدي الناس أيام أبيه .

فهدده محمد علي وجهز عليه حملة بقيادة ابنه إبراهيم باشا ، فأوغل هذا في بلاد الحجاز ونجد وقبض على عبد الله وأرسله إلى أبيه في القاهرة . ومن ثم أرسلوه إلى الآستانة فطافوا به ثلاثة أيام في شوارعها ثم قتلوه وبهذه الحملة قضى على الحركة السياسية نهائياً وخلع السلطان على إبراهيم باشا خلعة الشرف وعهد إليه بالولاية على مكة وأنعم على محمد علي بلقب « خان » مكافأة له على إخلاصه وشجاعته في وأد هذه الحركة العربية في مهابها . وإذا كانت هذه الحركة قد أخذت ، فإن أفكار ابن تيمية لم تلتها واستمرت تفتق أذهان النباه من طلاب العلم والإصلاح ، واعتنقها كثيرون ممن يرون في عودة التوحيد وخلص العقيدة من الشرك عزة ومنعة .

وكان من هؤلاء الشوكاني أخذ تعاليم ابن تيمية ودرسها وشرح بعضها وعلق عليها وطفق يحارب البدع في بلاد اليمن فثارت عليه حرب شعواء ورموه بالزندقة والخروج على العقائد ذلك لأنه ندد بالناس الذين يرون النفع والضرر منوطين بالمشاهد وهو يرى أن الله وحده هو النافع والضرار ، فتصدى له العلماء في صنعاء ونازلوه بالجدل والمرء فصمد لهم ودافع دفاعا مجيدا عن عقيدة المسلمين في كتابه « نيل الأوطار » الذي شرح به كتاب ابن تيمية « منتقى الأخبار » .

وأخذ عن ابن تيمية وعن ابن عبد الوهاب كثير من فظاهر المصلحون في الهند والعراق وبلاد المغرب يبشرون ببادي التوحيد ويدعون الناس إلى نبذ البدع والخرافات والتمسك بأصول الدين الصحيحة حباً بعزة الإسلام وخلاصه من شوائب البدع ولم تقتصر هذه الحركة الإصلاحية على بلاد العرب بل طفرت إلى الهند ونشأت حركة خطيرة اتخذت سبيل السياسة سبيلاً لها مع الوعظ والإرشاد وأخذت تهدد قوة المستعمر ولكن هذه القوة تصدت لها فأخضعتها وأمنت شرها .

جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر استقبل العالم الإسلامي باعثاً ومبدعاً هو السيد جمال الدين الأفغاني ، ولد في عام ١٢٥٤ هـ ، ١٨٣٩ م وتوفي عام ١٣١٢ هـ ، ١٨٩٧ م من بيت في الذروة من قریش ، فهو ينتمي إلى السيد علي الترمذی المحدث المشهور ، ويرتفع بهذا النسب صعداً حتى يصل إلى الحسين بن علي رضي الله عنه . ودرج بين عشيرة قوية الجانب محترمة الأرومة يجلبها الأفغانيون لصلة النسب برسول الله صلى الله عليه وسلم ويهابونها لكثرتها وشدة شكيמתها ، وكانت لها سيادة على قسم من أراضى الأفغان ظلت تستقل في الحكم بها إلى أن سلب الإمارة منها دوست محمد خان ، فذهب والد جمال الدين وبعض أعمامه إلى مدينة كابل ، أخذه أبوه بالعلم والأدب ، فدرس العربية والتاريخ وعلوم الشريعة في التفسير والحديث ، والفقه وأصول الفقه والكلام والمنطق والسياسة ودرس الرياضيات : الحساب والهندسة والجبر ، وهيئة الأفلاك ، ونظريات الطب والتشريح وبعد أن اكتمل شبابه أخذ يطوف في العالم ، فحذق العربية والفارسية والتركية والفرنسية وعرف طرفاً من الإنكليزية والروسية .

في هذه المسرفة والتجارب ، تسكوت هذه الشخصية الجبارة ، ولقد ظهرت
بوادرها في براعة موقفة من اختلاف الأسرة الحاكمة في الأفغان
وحذات ثقة محمد أعظم خان به فأسأله محل الوزير الأول ياجا إليه في عظام
الأمور وحل المشكلات . وكادت تخلص حكومة الأفغان لمحمد أعظم بتدبير
جمال الدين لولا انشقاق حدث في صفوف الأسرة أدى إلى هزيمة
أعظم ، وبقي جمال لم تمسه يد سوء لقوة العشيرة وهيبتها ، وبداله أن يسافر
إلى الهند ، فعز على حكومة الهند أن تراه يحول في الهند وحده حراً .
فأرادت أن تحد من ذلك فحددت له مكاناً ينزل فيه ومع هذا فقد استقبل
على الحدود استقبالا منقطع النظير — وأخذت الوفود تفتد عليه .
فوفد في اليوم الأول عشرات من المعجبين به . ثم صارت العشرات
مئات حتى صار المستفيدون من فضله يسعون إليه بالجمهير المجمعرة
ينصتون إلى أقواله ودروسه فارتجت أقطار الهند وهرع أكابر العلماء
والراجات ومن بين هؤلاء من لا يستطيع الحكومة منعه من الاجتماع
بجمال الدين وعرفت الحكومة آراءه وما يبشه في جماعات الأمة ، فقصرت
الحكومة الإقامة على ماتم منها وطلبت منه أن يغادر الهند حالا ، فهاجت
الجموع وماجت من هذا الأمر ووقف جمال الدين بينهم خطيباً وقال :
« يا أهل الهند ، وعزة الحق لو كنتم وأنتم تعدون بمئات الملايين ذباباً
لاصم ظنينكم آذان بريطانيا العظمى ولجعل في أذن كبيرها غلادستون وقرأ :
« ولو انقلبت ملايينكم سلاحف وخضتم البحر وأحطتم بجزر بريطانيا
لجرتموها إلى القعر وعدتم إلى الهند أحراراً » .

فما أتم جمال الدين كلامه حتى أذرف الحاضرون الدموع ، فقال لهم :
« اعلّموا أن الهكاء للنساء ، ولم يأت السلطان محمود الغزنوي الهند باكياً
بل أتى شاكياً سلاحه ، ولا حياة لقوم لا يستقبلون الموت في سبيل
الاستقلال بشعر باسم » .

هز نفوس الهنود وأيقظها من رقادها ، رارت تعدت فرائض المستعمر
فرقا من هذه الظاهرة العجيبة في أقوال هذه الشخصية الجبارة فلم تتركها
في المناد إلا يوماً واحداً بعد هذه الخطبة ، سار جمال الدين متجهاً إلى
الآستانة إلى مركز الخلافة الإسلامية لعله يجد فيها أرضاً خصبة ينمو بها
زرعه ، فلما رآه الصدر الأعظم عرف فضله وأنزله نزل الكرامة ، وأجمعت
قلوب الأمراء والوزراء على حبه ، وتناقلوا المدح والثناء على علمه وأدبه
فعمين عضواً في مجلس المعارف ورأى آراء لم تعجب رفاقه في هذا المجلس
ومنهم شيخ الإسلام خاصة . وهو الذي حفظها حتى وجد فرصة فأوقع
فيه وادعى عليه باطلاً من القول وزوراً وظل يلاحقه حتى صار باطل
شيخ حقا على جمال الدين . فاضطر إلى ترك الآستانة . بعد أن أنب ونبه
وأذهر وأوضح : أن الأمة هي مصدر القوة ، ومصدر الحكم ، وإرادة
الشعب الحر هي القانون المتبع للشعب ، والقانون الذي يجب على كل
حاكم أن يكون خادماً له وأميناً ، وكل شعب تلعب به الأهواء ويتفرق
شيعة وأحزاباً وتستحكم في أفراده محبة الذات والأنانية فيتجرون باسم
الأمة تجاه الفرد المسلط ، ويستنزفون ثروة المجموع إرضاء له لينالوا
بلذته من العيش ، مثل هذا الشعب كمثل الأنعام السائمة أر أضل سبيلاً ،
ومثل هذا الشعب تصدق عليه قاعدة جور ، أوجدتها المستبدون وهي
القول السابق : « مشيئة الملك قانون المملكة »^(١) .

خرج جمال الدين من الآستانة فجاء مصر تتقدمه كوكبة من المديح
والثناء ووصلها في أول محرم الحرام ١٢٨٨ هـ و ٢٢ آذار ١٨٧١ فاستقبله
رياض باشا فأكرمه ونعمه ، وصار بيت جمال الدين مثابة يفد إليه طلاب
العلم ، وشرع يعلم ويوجه ، وفي كل يوم يعظم قدره في نفوس طلابه
حتى ملأت سمعته سمع العالم وكان لشخصيته وعبقريته المبدعة أثر كبير

في تكوين الشخصيات وتنشيط العقول ، وحل عقد الأوهام من الإسلام ،
جعل طلابه على التفكير والكتابة فنشطوا لمسا أراد ، وبرعوا وتقدموا
في مضمار الحياة ، فكان تقدم فن الكتابة من إبداعه والتفكير الحر من
خلقه وإيجاده .

خلق في مصر جواً تسبح فيه كلمات عن الحرية والاستقلال والتكوين
والإنشاء والإدارة والشعب والشورى والحاكم ، فدار في أذهان الإنكليز
أن هذا الرجل سوف ييقظ الرقود وينبه الغافلين وزينوا للتخديوى
أن يخرجهم من مصر ، فاتخذ من مناقشته في حكم الشعب وسيلة وحفظها
له حتى تهيأت الفرصة فأخرج من البلاد .

رأى جمال أن يذهب إلى الهند ، ولما وصل إلى السويس جاءه قنصل
إيران وبعض التجار وجماعة من تلامذته يحمل كل منهم مقداراً من المال
ولما عرضوه عليه أجابهم أنهم أتم إلى هذا المال أحوج ، فإن الليث لا يعدم
فريسته حيثما ذهب . . وصل حيدر آباد الدكن واتخذها مقراً ، ثم حدد
له المقر أثناء ثورة عراقى فلما انتهت هذه الثورة سمح له بالذهاب حيث
يشاء . فقصد جمال الدين أوربا ووصل إلى لندن فأقام فيها مدة ثم سافر
إلى باريس فاستدعى صديقه وتلميذه الشيخ محمد عبده وأخرجاً معاً جريدة
« العروة الوثقى » ، لسان حال جمعية العروة الوثقى التى تألفت من خيار
القوم ، وكادت هذه الجريدة تفتح آفاق العالم الإسلامى فى الهند ومصر
والبلاد العربية والإسلامية الأخرى لولا كيد المستعمرين الذين وقفوا
لها بالمرصاد ، فمنعت من دخول الهند ومصر ، وقد كتبت الجريدة بعد
هذا المنع ما جاء فيه : « نلتهمس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح
التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضواري التى فحرت
أفواهها لالتهاهم ، ومن رأينا أن الاشتغال بداخل البيت إنما يكون بعد
الآمن من طروق الناهب » .

ولما ظهرت حركة المهدي في السودان كتب جمال الدين يحذر الإنكليز عاقبة سوء فعلهم ، وثابر على الكتابة بعدد خطباتهم ويفند حجج وزرائهم ، فاضطروا أن يرسلوا إليه يستدعونه ، فلما قدم لندن أثنى عليه اللورد سالسبوري وقال له : « إن بريطانيا تعلم مقدرتك ونحن نقدر رأيك قدره ، ويجب أن نسير مع حكومات الإسلام بمودة وولاء على قدر ما تسمح به ظروفنا ، لذلك رأينا أن نرسلك إلى السودان سلطاناً عليه لتستأصل جذور الفتنة وتمهد السبيل لإصلاحات بريطانيا » .

فأجاب جمال الدين : تكليف غريب وسفه في السياسة ما بعده سفه أسمح لي يا حضرة اللورد أن أسألك . هل تملكون السودان حتى تريدوا أن تبعثوا إليه بسلطان ؟ .

أخذ جمال الدين يحث الناس على تفهم القرآن والتعن بمعانيه ومقاصده وحضهم على الترفع عن التقليد وقال : إن من يفهم القرآن فهماً صحيحاً ويعرف صحيح الحديث ويشقف ثقافة تعينه على صحة الحكم بمنطق واضح يتمكن به من الاستنتاج فذلك هو المجتهد الذي يعرف الأحكام . ثم قال « ما معنى باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأي نص سد باب الاجتهاد وقال ، إنني لا أرتاب بأنه لو فسح في أجل أبي حنيفة ، ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل ، وعاشوا إلى اليوم لداموا مجدين مجتهدين ، يستنبطون لكل قضية حكماً من القرآن والحديث وكلما زاد تعمقهم وتمعنهم ازدادوا فهماً وتدقيقاً ، لقد اجتهدوا ، وأحسنوا جزاءهم الله عن الأمة خيراً ، ولكن لا يصح أن تعتقد أنهم أحاطوا بأسرار القرآن كلها ، أو تمكنوا من تدوينها بكتبهم ، والحقيقة أنهم مع ما وصلنا من علمهم الباهر وتحقيقاتهم واجتهادهم إن هو بالنسبة إلى ما حواه القرآن من العلوم والحديث الصحيح من السنن والتوضيح إلا كقطرة من بحر أو ثمانية من دهر والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده ، وعلمهم مالم يكونوا يعلمون » .

كان جمال الدين محمد في القرآن عاشقاً للأسم الإسلامية من الفرقة والخير والصفى وكان يرى فيه بشاً للجنة والمنة والشجاعة ، ويرى الجبن عاراً ما بعده عار ويبسط القول فيه ويقول : « ماذا يحمل الخائنين على الخيانة في الحروب الوطنية ؟ أليس هو الجبن ؟ ماذا يبسط أيدي الأذنياء لدنيئة الارتشاء ؟ أليس هو الجبن ؟ إن أبناء الأمة الإسلامية ينبغي أن يكونوا بمتنصّي أصول دينهم أبعاد الناس عن هذه الصفة المهينة فإنها أشد الموانع عن أداء ما يرضى الله ، وإنهم بما يعملونه إنما يتبعون رضاه ، ويعلم من في القرآن هدايته أن الله قد جعل حب الموت علامة الإيمان ، وامتنح الله به قلوب المعاندين ، ويقول في ذم من ليسوا بمؤمنين : « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله ، أو أشد خشية ، وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرنا إلى أجل قريب . . الخ الآية .

ثم يقول لا يظن أحد أنه يمكن الجمع بين الدين الإسلامي وبين الجبن في قلب واحد ، كيف يمكن هذا ؟ وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصدر الإقدام .

كان يدعو الناس أن يرجعوا إلى عقيدة الرعيل الأول من السلف الصالح ، تلك العقيدة الصافية التي لم تشبها أخلاط الفرق الناشئة بعد الصدر الأول من الإسلام التي توزعت أصوله وأخطأت فهمها واتبعت ما يبثه الزنادقة والباطنيون من البدع ، وما وضعه الناقون على الإسلام من الأحاديث الكاذبة التي حورت الإسلام تحويراً شديداً ، وأبعدته عن أصوله ، ففرقت شمل هذه الأمة وأضعفت كيانها وأضعفت أركانها بالتواكل الذي جاءها من أهل الحلول والتصوف وأهل الزهد وأهل الإباحة .

وبينما كان السيد جمال الدين يدعو الناس إلى سبيل الرشاد ويهيب بهم أن ينفضوا عن رؤوسهم غبار الماضي السحيق ويفيقوا من نومهم العميق ويتمسكوا بحبل الله ويعتصموا بالتوحيد ، كان يقف بالمرصاد لأعداء الإسلام الذين عبأهم الاستعمار فأخذوا يشنون عليه حرباً شعواء فألف رسالة يرد بها على الدهريين تدل على منطق واضح وفكر صادق الحكم ومما جاء في هذه الرسالة :

« إن الدين أ كسب عقول البشر ثلاث عقائد . وأودع نفوسهم ثلاث خصال كل منها ركن لوجود الأمم وعماد لبناء الهيئة الاجتماعية . العقيدة الأولى : التصديق بأن الإنسان ملك أرضي ، وأنه أشرف المخلوقات . والثانية يقين كل ذي دين أن أمته أشرف الأمم . وكل مخالف له فبلى ضلال باطل . والثالثة جزمه بأن الإنسان إنما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال هيئته للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوي ، والانتقال من دار ضيقة الساحات كثيرة المكروهات جديرة بأن تسمى بيت الأحزان ، وقرار الآلام إلى دار فسيحة الساحات خالية من المؤلمات لا تنقضي سعادتها ولا تنتهي مدتها .

والخصال الثلاث : الحياء ، والأمانة ، والصدق . أما الدهريون « الطبيعيون » فقد وضعوا مذهبهم على أساس بطلان الأديان كافة وعدوها أوهاما باطلة ومجغولات وضعية ، ووجب إزالة العقائد الثلاث ومحو الخصال الثلاث من الإنسان ، وبنوا على هذا لاحق مللة من الملل أن تدعى لنفسها شرفاً على سائر الملل ، ولا أن تعتقد أنها أولى من غيرها بفضيلة ولا أجدر بمزية ، وقالوا إن الإنسان في المتزلة كسائر الحيوانات وليس من المزايا ما يرتفع به عن البهائم بل هو أحسن منها خلقة وأدنى فطرة . وقالوا وبش القول : إن الحياء من ضعف النفس ونقصها فإذا قويت النفوس وتم لها كمالها ، لم يغلبها الحياء في عمل ما - كائناً ما كان -

فيجب على زعمهم أن يسعى الإنسان في معالجة هذا الضعف و مقاومته
ليفوز بكال القوة وهو قلة الحياء : ثم قالوا وفي مقدمتهم أبيقور الدهري
وأتباعه رداً على القول : إن الإنسان أشرف المخلوقات ، ما بال الإنسان
معجب بنفسه مضرور بشأته ، يظن أن الكون العظيم إنما خلق لوجوده
الناقص ، ويزعم أنه أشرف المخلوقات وأنه الملة النائية لجميع المكونات
وأن الإنسان من جنونه على زعمهم اعتقاده أن له عوالم روحانية نورانية
وماهد قدسية ينقل إليها بعد الموت ويتمتع فيها بسعادة لا يشوبها شقاء
ولذة لا يخالطها كدر ، ولهذا قيّد نفسه بسلاسل كثيرة من التكاليف
مخالفاً نظام الطبيعة العادل ، وسد في وجهه رغبته أبواب اللذائذ الطبيعية
وحرّم حسه كثيراً من الحظوظ الفطرية مع أنه لا يمتاز عن سائر
الحيوانات بمزية من المزايا .

والصدق والأمانة وغيرها من الأمور الوضعية التي تقيد الناس بها
جهلاً ولم يتقيد بها الحيوان إلى غير ذلك .

وقد أفاض السيد بتفنيد هذه المزعمات بمقدمات صادقة واضحة ،
ومن ذلك : أن في الاعتقاد بالله صونا للجماعة وحفظاً لكيان المجتمع
فإن الدولة لا تستطيع أن تحكم إلا بالظاهر ، ولا ترفع الحيف والظلم
إلا إذا رأت ذلك بعينها ، ولكن من الذي يسيطر على الأمور التي تجري
في الخفايا من الذي يردع السارق عن سرقة والقاتل عن القتل والمختلس
عن الاختلاس ؟ لا شك في أنه لا يوجد رادع غير الله ، ولا وازع غير
الدين فالدين ضروري للبشر واتكويين مجتمعتهم ، من أين للحكومة
الاطلاع على خفيات الخيل وكامنات الدسائس ومطويات الخيانة ،
ومستورات الغدر ؟

هب أننا أخذنا بقية أباطيل الدهريين وفرضنا تمسكهم من إزالة
العتائد الثلاث والخصال الثلاث وتسنى لهم أن يبدلوا الحياء بقلة الحياء ،

والصدق بالكذب ، والأمانة بالخيانة ، وصون الأعراض بالهتك .
والإباحة ، والاشتراك . فبأى نظام تصان الحقوق وتحفظ هيئة الاجتماع ؟
كان هم جمال الدين أن يرى الإسلام قويا في دولة قوية ، وكان لا يجد
حداً بين الدين والدولة ويرى أن أحدهما يكمل الآخر ، فالدين عنصر
هام من عناصر مقومات المجتمع . والدولة لن يتم لها مجتمع لا دين له .
لقد بذل جمال جهده وأنفد عمره في تحقيق هذا الرأي ، ولكن
الإسلام كان موزع الأهواء والميول فتكت به رواسب الماضي السحيق
التي خلفتها السبئية والباطنية .

وجد في السلطان عبد الحميد جانباً من الخير فأبان له النصيح وأشار
عليه أن يجعل من ولايات امبراطوريته التي تبلغ ثلاثين ولاية خديويات
على غرار خديوية مصر ، تبقى كلها خاضعة للخلافة ، يأتمر الخديوى بأمر
السلطان ، والعساكر فيها عثمانية تسرع لتلبية الأمر باللاحاق بجيوش
السلطان ، ورعية طائعة خاضعة ، فزوى عبد الحميد وجهه وأبى . وقال
لجمال : ماذا أبقيت أيها السيد لتخت آل عثمان ؟ « فقال جمال : يبقى جلالة
مولاي السلطان ملك أولئك الملوكة ، فإذا قويت هذه الخديويات فإنه
سرعان ما تنضم إيران وأفغان والهند ويصبح الإسلام قوة عتيقة
يرهب الغرب جانبها ، وتهدأ ثائرتة على الإسلام .

ومن أجراً الآراء التي كان يثيرها طلبه استعرا ب الأتراك وجعل
اللغة العربية لغة الدولة ، فكان ، يقول : « لو أنصف الأتراك أنفسهم
لاستعربوا وترأسوا ذلك الملك وعدلوا في أهله وجروا على سنن الرشيد
والمأمون على الأقل ولكانوا أعز جانباً وأغنى مملكة في دول الأرض ،
وعما كان يحز في نفسه أن الأتراك كانوا يجرون وراء تترك العرب
واستبدال اللسان العربى لسان الدين والأدب والفضائل باللسان التركى .
وكان ينه العالم الإسلامى على أهمية مصر وموقعها ويقول :

في صون مصر في -برزة الملك الإسلامي وكشف الإنجليز عنها صون
الملك السانية . وغلق لكل بلية مهيأة في المسألة الشرقية . وقال :
« وعزة الحق إن ما كتبته عن حق مصر وما استنهضت من أطمهم
وما حذرت به من سوء المصير لو تلى على الأموات لتحركت أرواحهم
ولرفرفت على أجدادهم ولأحدثت لأعدائهم أحلاماً من عجة ومراء مريجة
وما قرعت آذان المسلمين والشرقيين عموماً بالحجج القاطعة ، وهتكت
أستار الطامعين بالبراهين الساطعة ، وأظهرت فظائع حكمهم بمن حكموا
محسوساً إلا لأقرب البعيد من زمن الاستعباد وأقصر طيات المسافة
في الذلة والمهانة لمن لم يسقط بعد من المقاطعات الشرقية » . هكذا كان
جمال الدين يبشر وينذر ويحض النفوس ، ويحرك الهمم ويشير إلى مواطن
الخطر ، أينما حل حلت معه فكرة العرب والإسلام ، إذا وقف في الهند
أشار إلى مواطن الخطر التي تهدد مصر ، وإذا ذهب إلى الآستانة وإلى
وجهه شطر المسجد الحرام ، وإذا ذهب إلى باريس كتب عن مصر وعن
بلاد الإسلام . جبل دمه بحب العروبة واتجه فكره إلى إيجاد أمة قوية
تحفظ هذا التراث الذي فيه العزة والمنعة . نفخ الصور في آذانها فلم تتململ
ولم تبعث وأتى له ذلك والعظام نخرة ليس لأحد قدرة على بعثها إلا الباعث
القدير والأمل المرتقب .

ولما ترك جمال الدين مصر قال : « مصر أحب بلاد الله إلى وقد
تركت لها الشيخ محمد عبده طوداً من العلم الراسخ وعمرماً من الحكمة
والشهم وعلو الهمم . »

وهو قول حق فقد كان محمد عبده في الذروة من هذا الوصف شأنه
في علو الهمة شأن كل مبدع يريد بعث أمة وتكوين أجيال . أخذ محمد
عبده عليه عن الأزهر وعن معاهد الدين في أول أمره وقد استعصى عليه
التعليم في البداية ، ثم لأن له في النهاية ولكن ما كان هذا العلم يواثم هذه .

الحمة وبوافق ذلك الذكاء حتى بعث الله لهذه الأمة جمال الدين الأفغانى فنزل مصر فيما نزل من بلاد الشرق الأدنى ، فكان كالنبيث أنبت الخنازل فوق الربا فازدهرت وأثمرت . وكان الشيخ ثمرة من ثمار جمال الدين هيأه فيمن هيأ للنضال والإصلاح في هذا الشرق الذى تعاقبت عليه المصائب واصططحت عليه الأهواء والشور فتركته يمج في سحابة مظلمة لا يتبين فيها الرشيد من الغي — لقد كان في محمد عبده استعداد النبهاء ومواهب الأذكياء . جمع من علوم الأزهر ما وعى والتقى بجمال الدين فأخذ عنه الفلسفة والمنطق والحكمة . فكان من امتزاج هاتين الشقاقتين ثقافة ذات لون خاص فيها روح الإسلام وعزته وجرأته وإقدامه وإبائه وإذا بالمحفوظ من القرآن والحديث صور وأشكال وأخيلة تموج بالقوة والسمو . وإذا الأدب العربى الذى تعلمه الشيخ أداة من أدوات الفصاحة والبيان تنقل هذه الصور والأشكال إلى أذهان الناس واضحة بينة تهن المشاعر وتعطف القلوب وترشد العقل إلى الحكم الصحيح .

رأى الشيخ محمد عبده جواً من المفاصد الاجتماعية والسياسية وفوضى في الأمور الدينية . فقد ساءت العقيدة ، وضعف الإيمان ، وساد الشرك وعادت عبادة الأوثان واشتغل الناس بالرقى والنذور والموالد وتعلقوا بالأرواح والأشباح وما إلى ذلك مما يضعف النفوس ويبعدها عن التوحيد ورأى في فساد العقيدة إضاعة للأخلاق فإذا يفعل ؟

لقد رأى أن هذا الضعف المنتشر والفساد الشامل يرجعان إلى جهل الناس بأصول دينهم بالقرآن والحديث ووجد أن التعليم الدينى على أساس متين ركن ركين في إعادة مجد الأمة ، فليجأ إلى القرآن فاتخذه عاصماً والحديث فجعله دليلاً ودعا إلى اتباع آثار السلف الصالح ، لأن في هذا الاتباع رجوعاً إلى العقيدة السليمة من شوائب البدع في هذه الأصول التقى الشيخ محمد عبده بابن تيمية وابن عبد الوهاب ، ووجد فيهما مثاليين

من أشلة الإصلاح ، سارا على نهج القرآن والسلف الصالح من الرعيل الأول في صير الإسلام . وإن كان يختلف عنهما بسعة الأفق وسعة الثقافة بإطلاعه على الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية .

التقى بهما في توحيد الله ونبذ الخرافات والبدع ومحاربة الشرك والرجوع إلى القرآن والحديث في توجيه الناس إلى السماء ليسموا ويرتفعوا عن التمرغ بالرغام على أقدام الأصنام ، فشكل شيء على هذه الأرض يمكن يطرأ عليه التغيير والضعف ، أما الإله في السماء فهو إله خالد . لا تنطبق عليه مقاييسنا ، صفاته ليست كصفاتنا وأفعاله ليست كأفعالنا ، وما دام الأمر كذلك فهو واجب الوجود ، وما عداه داخل في حيز الإمكانيات ، وما يدخل في حيز الإمكانيات لا يستند إليه في عبادة وتوجيه وإنشاء أمم وأجيال .

صدع محمد عبده بالحق فتكأ كأت عليه الخصوم يرمونه بالزندقة والكفر لا شيء سوى أنه موحد ، ينبذ الشرك ويحطم الأصنام ، وحسبك أن تجده يرد على الوثنيين والمشبهة والمجسمة والمركبة والمشركين في سورة التوحيد أو سورة الإخلاص رداً واضح الحجة والبرهان :

« قل هو الله أحد ، : الأحد هو الواحد الذي لا كثرة في ذاته ، فهو ليس بمركب من جواهر مختلفة ، فليس بمادى ، ولا هو من أصول متعددة غير عادية كما يزعم بعض أرباب الأديان ، من أنه أصلان فاعلان أو أنه ثلاثة أصول تعتبر واحداً وهي متعددة ، سواء أعقل ذلك أم لم يعقل ، فإن الله برىء منه ، لأن العقلاء أجمعت على أن موجد العالم وهو الله واجب الوجود ، ووجوب الوجود يستلزم ببداهة العقل وحدة الذات لأن التعدد في الذات مستلزم لافتقار المجموع إلى الأجزاء فلا يكون المجموع المسمى بالله أو موجد العالم واجب الوجود ، وكذلك الأفراد نفسها لا يكون كل واحد واجب الوجود لأنه يختلف عن الآخر بميزه ،

وذلك المميز غير ما يشتركان فيه من الوجود فيكون كل منهما مركباً والمركب غير واجب كما ذكرنا ، فلم يبق إلا أن يكون واجب الوجود واحداً . فالله أحد .

« الله الصمد » من السمات الجامعة التي تملأ النفس بما قصد بها دون جهد ولا تعب فهذه الآية تقول لك إن حاجة ما في الوجود لا تتوجه إلى غيره وأن محتاجاً لا يجوز أن يتوجه في طلب حاجته إلى سواه فقد أفادتنا أن جميع المسببات تنتهي إليه ، وجميع ما يسرى فيها من الوجود فهو من إيجاد ، وأن صاحب الاختيار كالإنسان إذا أراد أن يحصل مسبباً من سبب فعليته أن يبحث عن طريقة ارتباطه به على حسب ما أمره الله بالبحث والنظر والتدبير في مخلوقاته ، ليعلم كيف يسرى الوجود الموهوب من واجب الوجود من الأسباب إلى المسببات ، ثم يذهب بها حتى يسندوها إلى مبدئها وهو الأمر الإلهي ، هذا فيما يظهر فيه السبب والمسبب ويظهر فيه عمل الكسب والإرادة والقوى الممنوحة البشرية ، أما ما هو وراء ذلك مما لا دخل الإرادة فيه فعلى صاحب الحاجة ألا يتوجه في المعونة عليها إلا بعد الأخذ بالأسباب إلى الله وحده فهو المستأثر بالعمل فيما وراء ما جعل لك فيه عملاً .

وقوله الصمد يشعر بأنه الذي ينهى الطلب مباشرة بدون واسطة ولا شفيع ، وهو في ذلك يدعو إلى ما يخالف عقيدة مشركي العرب الذين يعتقدون بالوسائط والشفعاء ، وكثير من أهل الأديان الأخرى يعتقدون أن لرؤسائهم منزلة عند الله ينالون بها التوسط لغيرهم في نيل مبتغاهم فيلجئون إليهم أحياء ، أو أمواتاً ، ويقومون بين أيديهم ، أو عند قبورهم خاشعين خاضعين ، كما يخشون الله بل أشد خشية ، ثم هو الصمد في تحديد الحدود العامة للأعمال ووضع أصول الشرائع فلا بد أن يرد إلى ما أنزل جميع ما يقع من الاختلاف فيه وليس من المباح أن يرجع إلى قول غيره متى تطق صريح كتابه بخلافه ، وعلى الناس أن يرجعوا إلى الكتاب ،

فإذا لم يكونوا عارفين به رجعوا إلى المارفين وطالبوه بالادلة منه وعلمهم
أن يهتموا بأن يعرفوا منه أصول ما يعتقدون وما يعملون فإن لم يفعلوا
اختلف الآراء وحجبت المذاهب كتاب الله فدرس معناه وذهبت الحكمة
من إنزاله عبثاً لتحق الناس بقول غير المعصوم وعمام عن هدى المعصوم
فكانوا بمنزلة من لم تأتهم رسالة وإنما يعملون بما يقول لهم زعمائهم الذين
لا يجدون دليلاً على امتيازهم بالزعامة فيكونون مستمسكين بما لم ينزل
به الله سلطاناً فيسقطون في مهاوى الشقاء الدنيوى والأخرى .

في تفسير هذه السورة تلتقى آراء محمد عبده وابن تيمية وابن عبد الوهاب
في وجوب الرجوع إلى توحيد الله والسمو بالمسلمين عن مواطن الشرك
وحضهم على التمسك بكتاب الله الذى هو مصدر الشريعة الإسلامية ومصدر
الجنة والقوة . لم يمكن الزم محمد عبده وجمال الدين أن يسموا رسالتهم
في نشر مبادئهم لإصلاح النفوس فقد دهمتهم قوة الاستعمار التى أخذت تمتد
أيديها مد الأخطبوط خراطيمه ، فدهشا وأخذوا تارة يوجهان الأنفس
إلى منابت العزة والقوة فى عقيدة التوحيد وتطهير النفوس ، وأخرى
فى حثها على مقاومة المستعمر ودحض دسائسه . واتخذ من جريدة العروة
الوثقى ميداناً لعملهما : يردان على المستعمر مكائده ، ويردان على هادى
عقيدة التوحيد ومهاجمى الإسلام ، ويردان على مشبطلهم . وقد أخذ
« القضاء والقدر » مكاناً كبيراً فى جدلها ، إنها أرادا أن ينتزعا من صدور
المخطئين فهمه سوء الفهم ، وأن القدر ليس كما يعتقد أصحاب الجبر . إن القدر
الذى يعتقد به المسلمون قد أمرنا به فى شطر العمل من حياتنا ، لا فى شطر
البطال والتواكل . ولم يأمرنا الله أن نهمل فروضنا ونلبذ ما أوجب علينا بحجة
التوكل عليه فتلك حجة المارقين عن الدين الحائدين عن الصراط المستقيم .
إن الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر تتبعه صفة
الجرأة والإقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ويبعث على اقتحام المهالك

التي ترجف لها قابوب الأسود وتنشق منها مراثي النور ، هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المسكاره ، ومقارعة الأهوال ويحلبها بحلى الجود والسخاء ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعثر عليها بل يحملها على بذل الأرواح والتخلي عن نظرة الحياة كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

الذي يعتقد أن الأجل محدود والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء ، كيف يهرب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر بما ينشق من ماله في تعزيز الحق وتشديد المجد على حسب الأوامر الإلهية ، وأصول الاجتماعات البشرية .

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته في قول الحق « الذين قال لهم الناس ، إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

هكذا أخذنا يصححان خطأ المسلمين في فهم عقيدتهم ، ويبعثان في نفوسهم ذكريات أجداد السلف الأواين الذين ذمحو العالم ونشروا الإخاء والعدالة كان لهذا الاتفاق العجيب بين هاتين الشخصيتين صيحة داوية في الشرق العربي بلغة عربية متينة تستند على القرآن وعلى تعليم محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم التي لم تشبها شائبة البدع والخرافات ، وكانا في حديثهما وخطبهما وكتابتيهما حرباً على هذه البدع ووقفاً لهذا الشرق الذي أخذت مطامع الأقوياء تمتد إليه فتنتقصه من أطرافه وأهله نيام في غفلة عن عين الدهر اليقظ التي تفتحت للغرب ، لقد نشر آراءهما في جريدتهما التي أجملا مبادئها فيما يأتي :

١ — أن تكون خدمة للشرق في بيان واجباته التي كان التفريط فيها موجباً لضعفه وسقوطه ، وتوضيح الطريق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات والاحتراز من غوائل ما هو آت .

٢ — تبحث في أصول الأسباب والعمل التي قصرت بهم إلى جانب ذلك التفريط فوقعوا في هذه الخيرة الرابكة التي ضل بها المرشد وعميت فيها عليهم السبل فلا يدرون من أين تفجعهم الطوارق المزعجة .

٣ — تكشف الغطاء عن الشبه التي شغلت أوهام المترفين فضلوا مسالك الرشد ، وتزيج الوسوس التي أخذت بعقول المنعمين حتى أورثتهم اليأس من مداواة عللهم وشفاء أدوائهم .

٤ — تحاول إشراب الأفهام بسهولة الأمر والنجاح في المقاصد إذا عقدت العزائم .

٥ — وتبين للناس أن هذا النجاح مقصود بالتمسك بالأصول التي كان عليها أسلافنا التي هي كفيلة في رد العزة والقوة لنا وقد تمسك بها بعض الدول الأجنبية فقيوت وعزت .

٦ — وتلمبه على أن الروابط بين الدول يجب أن تكون على أساس التكافؤ بالقوى وهذا التكافؤ هو الضامن لدوام العلاقات ، وإذا فقد التكافؤ فإن الرابطة تكون وسيلة لا ابتلاع القوى الضعيف .

٧ — تخير أهل الشرق عامة والمسلمين خاصة ما يهتمهم به أعداؤهم وتدافع عنهم وتبين لهم ما يدور حولهم من الحوادث الجسام في السياسة .

٨ — تراعى تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية وتمسكين الألفة بين أفرادها ، وتأييد المنافع المشتركة بينها ونصر السياسات القديمة التي لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين .

٩ - تتخذ هذه الجريدة مبدأ الصراحة والحق وتسير على صراط مستقيم وترسل إلى من تعرفه ومن يريد ما يجازا ليتمدا ولما الأمير والحقير والفني والفقيه . حسبك أن تقرأ طرفاً من تفسير القرآن ورسالة التوحيد للشيخ محمد عبده وتطلع على العروة الوثقى التي كان يحررها مع شيخه وإمامه السيد جمال الدين الأفغاني وتقرأ رسالة الدهريين إلى ألفها جمال ونقلها إلى العربية تليذه الشيخ محمد عبده .

لاشك في أنك تجد روحاً من نفحة سماوية في شخصيتين أيقظتا نيام العرب والشرق الإسلامي ونهبتا على خطر محقق به ونددنا بالبدع والخرافات التي ضمنت بها النفوس وعضمت الجسوم فذلت الرقاب التي نسيت قول الله تعالى في كتابه العزيز :

« ولا تمهوا ولا تحزنوا وأتتكم الأخبار » .

عبد الرحمن الكواكبي

نشأ عبد الرحمن الكواكبي في مدينة حلب في بيت دين وحسب ، أما الحسب فإن أسرته تنحصر فيها نقابة الأشراف لهذه المدينة وهي مكانة لا يناها إلا من له وشيعة نسب بأهل بيت النبوة وأما الدين فإنه تخرج في مدرسة الكواكبية التي سميت باسم هذه الأسرة ، درس علوم الدين وتفقه وتعلم التفسير وحفظ الحديث وبرع في اللغة وأضاف إلى إتقان الفصحى إجادة الفارسية والتركية ونشأ في بيت أبيه على العزة والكرامة والطبع المذهب حتى إذا شب واكمل دخل ميدان الحياة يزينه علم وأدب وحسب وعزة تتمشى إلى الأبوة والجدود ، فكان مثال أخيه المسلم في صدر الإسلام عف اللسان ، صريح القول ، ثابت الجنان لا يخشى في الحق لومة لائم ، تفتحت له أبواب الرزق في وظائف الدولة تارة وأخرى

في القنيطرة والكسب الجلال ، وطوراً بقلبه وآرائه بثبها في جريدة ينشرها
وجريدة يكتبها ، ورجل مثل هذا في مثل ذلك الزمن لا يعدم الحساد ،
ترقبه أعين الناس والسلطة تخشى على نفسها أى نابذة ينبغ في هذه الغفلة
الراقدة في مطاري الزمن أن يكدر عليها صفوها ، أو يهز كتفها وهي
تمشي سادرة في ظوائفها . فأخذت تطارده وتضيق عليه منافذ الحرية
والرزق حتى اتهم زوراً وعدواناً وأدخلوه السجن وحاكموه فبرأه الله .

ولما وجد بلدته جحيماً تتأجج بالقسوة والبطش والخوف ، هجرها
وضرب في أرض الله يفتش عن منأى للسكريم من الأذى ، فذهب إلى
زنجبار والحبشة وأكثر شطوط شرق آسيا وغربها وأوغل في أواسط
الجزيرة العربية وقطع صحراء الدهناء حتى وصل اليمن على ظهور الجمال
ثم عاد فالتق عصا التسيار بمصر فكانت هذه الرحلات ميداناً لإحكام
التجارب وتقوية الملاحظة ، اطلع فيها على حال المسلمين في هذا الشرق ،
وأبصر ما هم عليه من انهيار في نواحي الحياة جميعها ، فانكب يدرس
ويبحث ويعال ويستنتج ويحكم فكان صادق الحكم شديد المنطق .

بدأ حياته مثلها بدأها زميلاه : جمال الدين ومحمد عبده ، القرآن
مصدر أفكاره والعزة وحرية الرأي هدفه ، والرجوع إلى آثار الأولين
والتخلص من البدع دعوته .

وعندى أنه أوسع أفقاً منهما معاً ، وإن كان مقلداً موجزاً وكانا
مكثرين ، وهو على إقلاله لم يقل عنهما شأناً في التأثير . ورب جملة فيها
معنى خطبة وعبرة فيها أثر مقالة .

لقد بث محمد عبده آراءه في تفسير القرآن وتدريسه وكتاب التوحيد
والعروة الوثقى ، وبث جمال الدين آراءه في العروة الوثقى وكتاب الرد
على الدهريين ، وبعض الخطب ونصائح الحكام التي ورد ذكرها في
مذكراته ، أما السكواكي فقد قارع الاستبداد بكتابه « طبائع الاستبداد »

وهو يعلم قوة الخصم في هذا القراع ، فلبث ثابت الجنان فصيح اللسان
 يهز قلبه كما يهز السكى المشرف لقد خضع الناس إلى العثمانيين الأتراك
 باسم الخلافة ، وخذلوا إلى السكينة والسكسل وتركوا الأمر للطبيعة
 تضامهم وتسقيهم ، حتى انقلبت جنان بلادهم إلى صحارى مقفرة ، وشاع
 الجهل والفقر والمرض والأذلة . واستغل الحاكمون بأمرهم هذه الحال
 فاقعدوا مقعد الجبارة وتسموا بالحاqqان الأعظم ، وحامى الحرمین وسلطان
 البرین والبحرین إلى غير ذلك من الألقاب التى تجفل منها نفوس الضعفاء
 وتعضو لها جباه الأذلة ، وطفقوا يتصرفون فى شؤون الرعية كما يشاءون
 لا راد لأحكامهم ولا وازع لسلطانهم ، لا يتقيدون بنظام ولا بشرع ،
 وإذا ركب الراعى رأسه وسد على الناس أنفاس الحرية ، وخنق إرادتهم
 استعلى سلطانة وعظم بين هؤلاء الضعفاء شأنه ، فذلت نفوسهم ، وإذا
 ذلت النفوس ركبها النزف والملق ، والعبودية وملاك التأله عقل الحاكم فيرى
 نفسه السيد المطاع ويرى فى الرعية المسود الخاضع . فى هذه الغمرة
 من الفساد بين الراعى والرعية تطلع رهوس البدع وتحل الأباطيل
 مكان الحقائق وتجد الخرافات طريقها إلى قلوب الضعفاء لتأوى إليها ،
 وتسكنها وتجعل عليها غشاوة فلا تعقل القلوب ، ولا تسمع الآذان ،
 ولا تبصر العيون إلا من رحم ربك ، وإذا وصلت النفوس إلى هذا
 الدرك الأسفل انهارت قواعد الأخلاق واختلت موازين الحياة وأصبح
 المرء خائفا على عرضه وماله ودمه لا يعرف كيف يهدر دمه ولا يدري متى
 يسلب ماله ويهتك عرضه ، وإذا خافت النفوس صفرت ، وإذا صفرت
 أصبحت تمثل الدعة والهدوء ، وتنفر من الطموح والسمو وفى كل ذلك
 معنى انهيار الأمة .

يمثل هذه المعانى أخذ السكواكبى يشرح فى كتابه « طبائع الاستبداد »
 نتائج الاستبداد ويعرف المستبد والمستبد به وعلى مثل هذا وضع كتابه

« أم القرى » استشرى فيه أحوال المسلمين وما وصلوا إليه وحلج على الناس بأراء صائبة وحسنهم أن يخرجوا على هذا الفساد ويربؤوا بأنفسهم عن هذه الذلة .

وجد السكواكي أن انهيار الأمة العربية ما كان إلا لتهاونها في الدين وتركها ثغراً في حياتها صرت منها أباطيل المبتدعة فبهدت هذه بهم عن أصول الدين الحقيقية ولو كان المؤمنون يقرءون القرآن يامعان وتدبر لما ذلوا في القرآن معاني العزة ومعاني القوة .

لهذا أخذ السكواكي يوجه الناس إلى عقيدة التوحيد « لا نعبد إلا الله » ونبتدع البدع والخرافات والتقليد الأعمى والرجوع إلى القرآن والأخذ بآثار السلف الصالح من هذه الأمة ، ابتدع كتابه « أم القرى » كما ذكرنا آنفاً على لسان ممثلين للبلاد الإسلامية جمعها وجعلهم على هيئة مؤتمر تعرض فيه أحوال المسلمين وأسباب فتورهم وانهيار قواهم وجعل مكة « أم القرى » مركزاً لهذا المؤتمر الذي كان فيه المؤمن الشامي والقدسى والإسكندري والمصري واليمنى والبصرى والنجدى والمذنى والمكي والتونسي والفاسي والإنكليزي والرومي والكردي والتبريزي والتاتاري والقازاني والتركي والأفغانى والهندي والسندى والصيني .

وجعل شعار المؤتمرين « لا نعبد إلا الله » وجعل جدول أعمال المؤتمر البحث في :

- ١ — موضع الداء .
- ٢ — أعراض الداء .
- ٣ — جراثيم الداء .
- ٤ — ماهو الداء ؟
- ٥ — ما هي وسائل استعمال الدواء ؟
- ٦ — ما هي الإسلامية ؟

٧ - كيف يكون الدين بالإسلامية ؟

٨ - ما هو الشرك الخفي ؟

٩ - كيف تقاوم البدع ؟

١٠ - قانون تأسيس الجمعيات .

وبعد أن أخذ المؤتمر مكانهم ، وتجادلوا في شئون الأمم المنحطة قال الشامي :

« إنني أرى أن منشأ هذا الفتور هو بعض القواعد الاعتقادية والأخلاقية مثل العقيدة الجبرية التي من بعد كل تعديل فيها جعلت الأمة جبرية باطنياً قدرية ظاهراً ، والحث على الزهد في الدنيا والقناعة باليسير والكفاف من الرزق وإماتة المطالب النفسية بحب المحمّد والرياسة ، والسباغ عن الزينة والمفاخر والإقدام على عظام الأمور وكالتريغيب في أن يعيش المسلم كميت قبل أن يموت وكثي بهذه الأصول مفترات مخدرات مشبّطات معطلات لا يرتضيها عقل ولم يأت بها شرع .

ويرى القدسي : أن سبب الفتور هو تحول نوع السياسة الإسلامية حيث كانت « ديمقراطية » تماماً فصارت بعد الراشدين ملكية مقيدة بقواعد الشرع الأساسية ثم صارت أشبه بالمطلقة .

وتحكمت فيها آراء الدخلاء فرجحوا الأخذ بما يلائم بقايا نزعاتهم الوثنية فاتخذ العمال السياسيون ولا سيما المتطرفون منهم هذا التحالف في الأحكام وسائل للإنقسام والاستقلال السياسي ، فلشأ عن ذلك أن تفرقت المملكة الإسلامية إلى طوائف متباينة مذهباً متعادية سياسة متكافئة على الدوام ، وهكذا خرج الدين من حضانة أهله وتفرقت كلمة الأمة فطمع به أعداؤها .

وقال التونسي : إن بلادنا من تأصل الجهل في غالب أرائنا المترفين

الأخسر من أعمال الدين ضلوا وأضلونا سواء السبيل وهم يستجرون أنهم يحسنون صنعا . إنهم يتشددون بالإصلاح السياسى مع أنهم وأيم الحق يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ؛ يظهرون الرغبة فى الإصلاح ويبطنون الإصرار والعناد على ما تم عليه من إفساد دينهم ودنياهم وهدم مباني مجدهم وإذلال أنفسهم والمسلمين وهذا داء عياه لا يرجى شفاؤه .

وقال المولى الرومى وهو من أهل القسطنطينية الذين حرم عليهم سياسة التلطف بكلمات : حرية وجمعية ووطنى ، ومراد ورشاد ، وخلافة وخلع ومبعوث ، ومعتوه ومختل إلى نحو ذلك من الألفاظ التى تمس سياسة الوهم .

قال هذا الرومى : عندى أن البلية فقدنا الحرية ، وما أدرانا ما الحرية هى ما حرمانا منها حتى نسيناه ، وحرمانا علينا لفظه حتى استوحشناه ، وقد عرف الحرية من عرفها : بأن يكون الإنسان مختاراً فى قوله وفعله لا يعترضه مانع ظالم ، ومن فروع الحرية تساوى الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار أنهم وكلاء ، وعدم الرهبة فى المطالبة ، وبذل النصيحة ، ومنها حرية التعليم وحرية الخطابة والمطبوعات وحرية المباحثات العلمية ومنها العدالة بأسرها حتى لا يخشى إنسان من ظالم أو غاصب أو غدار أو مغتال . ومنها الأمن على الدين والأرواح والأمن على الشرف والأعراض ، والأمن على العلم واستثماره ، فالحرية هى روح الدين وينسب إلى حسان ابن ثابت الشاعر الصحابى (رضى الله عنه) قوله :

وما الدين إلا أن تقام شرائع وتؤمن سبل بيننا وهضاب

وقال المجتهد التبريزى : يلوح لى أن انحطاطنا من أنفسنا إذ أننا كنا خير أمة أخرجت للناس نعبده الله وحده ، أى نخضع ونتذلل له فقط ونطيع من أطاعه ما دام مطيعاً له ، نأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ،

أمرنا شورى بيننا نتماون على البر والتقوى ولا نتعاون على الإثم والعدوان فتركنا ذلك كله ما صعب منه وما هان .

وأجاب المرشد الفاسي : إننا كنا على عهد السلف الصالح شريعتنا سمحاء واضحة المسالك معروفة الواجبات والمناهى فكان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة لكل مسلم ومسلمة . . . ثم دخل بيننا أقوام ذوو بأس ونفاق أقاموا الاكتساب مكان الاحتساب وحصروا اهتمامهم في الجباية وآلتها هي الجندية فقط فبطل الاحتساب وبطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طبعاً . فهذا يصلح أن يكون سبباً من جملة الأسباب وقد يضاف إليه شركهم الخفي الذي لا يشعرون به .

وقال المحقق المدني : إن فقد الرابطة الدينية والوحدة الخلقية لا يكفيان سبباً للفتور العام ، بل لا بد لذلك من سبب أعم وأهم ثم قال أما أنا فالذي يحول في فكري أن الطامة من تشويش الدين والدنيا على العامة بسبب العلماء المدلسين وغلاة المتصوفين الذين استولوا على الدين فضيعوه وضيعوا أهله ، وذلك أن الدين إنما يعرف بالعلم ، والعلم يعرف بالعلماء العاملين ، وأعمال العلماء قياسهم في الأمة مقام الأنبياء في الهداية إلى خير الدنيا والآخرة . ولكن بعض ضعيفي العلم وجدوا هذه المنزلة فوق طاقتهم فتحيّلوا للمزاحمة والظهور مظهر العلماء العظام بالإغراب في الدين وسلوك مسلك الزاهدين ، ومن العادة أن يلجأ ضعيف العلم إلى التصوف كما يلجأ فاقده المجد إلى الكبر ، وكما يلجأ قليل المال إلى زينة اللباس والأثاث ، فصار هؤلاء المتعالون يدلسون على المسلمين بتأويل القرآن بما لا يحتمله محكم النظم الكريم فيفسرون مثلاً البسملة أو الباء منها بسفر كبير تفسيراً ملوئاً بلفظ لا معنى له ، أو بحكم لا برهان عليه ، ثم جاءوا الأمة بوراثة أسرار ادعوها وعلوم لدنيات ابتدعوها وتسبم مقامات اخترعوها ووضع أحكام نقضوها وترتيب غريات زخرفوها .

وهكذا يستمر السيد الكراكي في تقديم المجتمع الإسلامي حتى يتم في هذا النقد اثني عشر اجزاء يعقدها ويتتبع المتكلمين فيها الذين ينتشرون عن الداء ليضعوا عليه الدواء ، ريلخص أقوالهم جميعاً بموجب من القول في جمل منها ما يجعلها أصولاً ومنها فروعاً ، وإنا لذاكرون طرفاً مبرماً منها ومحيون القاريء على كتابه أم القرى الذي بسط فيه الكلام قال :

يستناد من مذاكرات جمعيتنا المباركة أن هذا الفتور المبحوث فيه ناشئ عن مجموع أسباب كثيرة مشتركة فيه لا عن سبب واحد أو أسباب قلائل تمكن مقاومتها بسهولة . وهذه الأسباب منها ما هو أصول ومنها ما هو فروع لها حكم الأصول ، وكلها ترجع إلى ثلاثة أنواع وهي أسباب دينية وأسباب سياسية وأسباب أخلاقية ، وإني أقرأ عليكم خلاصتها من جدول الفهرست الذي استخرجته من مباحث الجمعية وامنزاً للأصول منها بحرف الألف وللفروع منها بحرف الفاء وهي :

(١) الأسباب الدينية

من الأصول

- ١ — تأثير عقيدة الجبر على أفكار الأمة .
- ٢ — تأثير فتن الجدل في العقائد الدينية .
- ٣ — الاسترسال للتخالف والتفرق في الدين .
- ٤ — الزهول عن سماحة الدين وسهولة التدين به .
- ٥ — تشديد الفقهاء المتأخرين في الدين خلافاً للسلف .
- ٦ — إدخال العلماء المدلسين والمقابرية على العامة كثيراً من الأوهام .
- ٧ — إدخال العلماء المدلسين على الدين مقتبسات كتابية وخرافات وبدعاً مضرة .

٨ — إيهام السجائين والمداجين أن في الدين أموراً سرية وأن العلم حجاب .

٩ — اعتقاد منافاة العلوم الحكيمة والعقلية للدين .

١٠ — الغفلة عن حكمة الجماعة والجمعة وجمعية الحج .

ومن الفروع في هذا الباب

١١ — تهوين غلاة الصوفية الدين وجعلهم إياه طهراً ولهياً .

١٢ — إفساد الدين بتفنن المداجين بمزيدات ومتروعات وتأويلات .

١٣ — التعصب للذهاب والآراء المتأخرين وهجر النصوص ومسلك السلف .

١٤ — العناد على نبت الحرية الدينية جهلاً بميزتها .

١٥ — تطرق الشرك الخفى أو الصريح إلى عقائد العامة .

(ب) الأسباب السياسية العامة

من الأصول

١ — السياسة المطلقة من السيطرة والمسئولية .

٢ — حصر الاهتمام السياسى بالجباية والجنودية فقط .

٣ — اعتبار العلم عطية يحسن بها الأمراء على الأخصاء وتفويض خدم الدين للجهلاء .

٤ — قلب موضوع أخذ الأموال من الأغنياء وإعطائها الفقراء

٥ — إبعاد الأمراء النبلاء والأحرار وتقريرهم المتملقين والأشرار .

ومن الفروع في هذا النوع

٦ — فقد قوة رأى العام بالحجر والتفريق .

٧ — مراغمة الأمراء السراة والهداة والتنكيل بهم .

- ٨ - فقد العدل والتساوى فى الحقوق بين طبقات الأمة .
٩ - ميل الأمراء طبعا للعلماء المدلسين وجهلة المتصوفين .

(ح) الأسباب الأخلاقية

من الأصول

- ١ - الاستغراق فى الجهل والارتياح إليه .
٢ - انحلال الرابطة الدينية الاحتسابية .
٣ - التباعد فى المكاشفات والمفاوضات فى الشئون العامة .
٤ - فقد التناسخ وترك البغض فى الله .
٥ - غلبة التخلق بالتملق توافاً وصغاراً .
٦ - فقد التربية الدينية والأخلاقية .

وأضاف السيد الكواكبى إلى تلك الأسباب أسباباً أخرى منبعثة عن الخور فى سياسة الدولة العثمانية وإدارتها ومظهر ذلك كما يعتقد الكواكبى فى توحيد قوانين الإدارة والعضوية مع اختلاف طبائع أطراف المملكة وتباين أهلها فى الجنس والعادات ، زد على ذلك تنويع القوانين الحقوقية وتشويش القضاء فى الأحوال المتماثلة .

ويقول الكواكبى إن من أسباب الخور فى الدولة تمسكها بأصول الإدارة المركزية مع ارتباك هذه الإدارة بما يصيبها من عدم الالتفات إلى توحيد الأخلاق والمسالك فى الوزراء والولاة والقواد ، واضطرار الدولة لاتخاذهم من جميع الأجناس والأقوام الموجودين فى المملكة .

زد على ذلك أن الدولة درجت على قاعدة اختلاف الجنسين بين ولاة الأقاليم وأهلها لى تأمن غائلة الاتفاق عليها ، كذلك درجت الدولة على التمييز الفاحش بين أجناس الرعية فى الغنم والغرم فى المناصب والارتزاق من بيت المال ، وقد أصاب العرب غرم كبير مع أنهم يكونون ثلثى رعيته .

وبما زاد في ضعف الدولة تساهلها في انتخاب العمال والمأمورين والإكثار منهم بغير لزوم ، وإنما يقصد في انتخابهم إعاشة العشيرة والمحاسيب والمتملقين . ولقد كانت تتلافى ضعفها بالضغط على الأفسكار المتنبهة لكيلا تسمو وتنمو وتتطلع على مجارى الإدارة في محاسنها ومعائبها ، مع أن مثل هذا الضغط لا يؤثر على النمو الطبيعي ، وإنما هو عبث محض لا يتأتى منه إلا الإغراء والتحفيز والحقن على الإدارة .

أما في إدارة بيت المال فكانت مطلقة اليد تصرف دون مراقبة وتلشر جزافاً بغير موازنة ، وتسرف بلا عتاب وتتلّف بغير حساب حتى صارت المملوكة مديونة للأجانب بديون ثقيلة انهمكت كاهن المملوكة .

وفي إدارة المصالح المهمة السياسية ما كانت تستشير ولا تقبل المنافسة ولو كانت هذه الإدارة مشهودة المضرة في كل حركة وسكون وكان دأبها في تغطية هذه المعاييب المداراة واسكات المطالعين على المعاييب حذراً من أن ينفشوا ما في الصدور فتعلم العامة حقائق الأمور ، والعامة من إذا علموا قالوا ، وإذا قالوا فعلوا وهناك الطامة الكبرى . وأما إدارة السياسة الخارجية فكانت تديرها بالتراف والإرضاء والمحاباة بالحقوق والرشوة بالامتيازات وبذل النقود للجيران بمقابلة تعاميمهم عن المشاهد المؤلمة التخريبية وصبرهم على الروائح المنتنة الإدارية .

ولقد أوضح الكواكبي اتساع الهوة بين العرب والترك وضرب أمثلة من العبارات والأسماء التي كان الأتراك يهزون العرب بها .

وبعد ذكر هذه الأسباب والعلل في فتور العالم الإسلامي التي أوردها على لسان جمعية المتخيلة طلع بهذا الرأي فقال :

وحيث كانت الجمعية لا يعنيتها غير النهضة الدينية رأت من الضروري أن تربط آمالها بالجزيرة وما يليها وأهلها ومن يجاريهم وأن تبسط لأنظار الأمة ما هي خصائص الجزيرة وأهلها والعرب عموماً وذلك لأجل رفع

المناسب السياسي أو الجغرافي ، ولأجل إيضاح أسباب الجمعية للعرب فنقول :
(- الجزيرة هي مشرق النور الإسلامي فيها الكعبة المعظمة ، وهي
أنسب المواقع لأن تكون مركزاً للسياسة الدينية لتوسطها بين أقصى
آسيا شرقاً وأقصى أفريقيا غرباً ، وهي أسلم الأقاليم من الأخطار الجنسية
وأديانا ، ومذاهب ، وأبعد الأقاليم عن مجاورة الأجانب وأفضل الأراضي
لأن تكون ديار أحرار لبعدها عن الطامعين والمزاحمين نظراً لفقرها
الطبيعي وعرب الجزيرة هم ومن يتبعهم من العشائر القاطنة بين الفرات
ودجلة والنازحين إلى أفريقيا مؤسسو الجامعة الإسلامية لظهور
الدين فيهم .

وعرب الجزيرة مستحكم فيهم التخلق بالدين لأنه مناسب لطبائعهم
الأهلية أكثر من مناسبته لغيرهم وهم أعلم المسلمين بقواعد الدين ، لأنهم
أعرفهم فيه ومشهود لهم بأحاديث كثيرة بالمشانة في الإيمان .

وعرب الجزيرة أكثر المسلمين حرصاً على حفظ الدين وتأيمده
والفخار به خصوصاً والعصبية النبوية لم تزل قائمة بين أظهرهم في الحجاز
واليمن وعمان وحضرموت والعراق وأفريقيا ولا يزال الدين عندهم
خفيفاً سلفياً بعيداً عن التشويش والتشديد وهم أقوى المسلمين عصبية
وأشدهم أنفة لما فيهم من خصائص البدوية ، وأمراؤهم جامعون بين
شرف الآباء والأمهات والزوجات فلم تختل عزتهم ، وهم أقدم الأمم مدنية
مهذبة بدليل سعة لغتهم وسمو حكمتهم وأدبياتهم وأقدر المسلمين على تحمل
قشوف المعيشة في سبيل مقاصدهم وأنشطهم على التغرب والسيارات وذلك
لبعدهم عن الترف المذل أمسه ، وهم أحفظ الأقوام على جلسيتهم
وعاداتهم فهم يخالطون ولا يختلطون .

وعرب الجزيرة أحرص الأمم الإسلامية على الحرية والاستقلال

وإباء الضيم ومن ذلك عدم انقياد أهل اليمن ومن يليهم للعثمانيين والعرب ،
عموماً لغتهم أغنى لغات المسلمين في المعارف ومصونته بالقرآن الكريم
من أن تموت .

وهي اللغة العمومية بين المسلمين كافة البالغ عددهم ٣٠٠ مليون وهي
اللغة الخصوصية لمائة مليون من المسلمين وغير المسلمين . والعرب أقدم
الأمم اتباعاً لأصول تساوى الحقوق وتقارب المراتب في الهيئة الاجتماعية
وأعرفها في أصول التسورى فى الشؤون العمومية ، وأهدى الأمم لأصول
المعيشة الاشتراكية وأحرصها على احترام العهود عزة واحترام الذمة
إنسانية ، واحترام الجوار شهامة ، وبذل المعروف مروءة ، والعرب
أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً فى الدين ، وقدوة للمسلمين حيث
كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداء ، فلا يأنفون من اتباعهم أخيراً .
فهذه الأسباب التى جعلت جمعية أم القرى أن تعتبر العرب هم الوسيلة
الوحيدة لجمع الكاية الدينية بل الكلمة الشرقية .

وهكذا يستنهض الكواكب بنى قومه يذكرهم بأجادهم وما أثرهم
ويشرح خصائصهم ، وصفاتهم الكامنة فيهم ، ويبين لهم أن هذه الصفات
إذا عادت للوجود كافية أن تعيد الأمة قوتها وترجع إليها سلطانها .

وأن الأمة العربية فيها من عناصر القوة ما يؤهلها أن تتزعم العالم
الإسلامى مرة أخرى .

الفصل التاسع

اليقظة العربية الحديثة

نصره

أنهيت في مختتم الفصل الثامن بحث الصراع بين الموالى والعرب ،
وكنيت أود الاكتفاء بذلك لولا أنى وجدت أن من اللازم أن أضيف
ملحقاً أذكر فيه شيئاً من مظاهر اليقظة العربية الحديثة إلى مواد البحث
ليكون من ذلك كله سلسلة متكاملة الخدمات .

لقد وصل بي البحث في رد الفعل على آثار الموالى إلى مفتتح القرن
التاسع عشر ووجدت ذلك متمثلاً بالأصول المنحدرة من تعاليم ابن تيمية
التي تبناها ابن عبد الوهاب ثم جمال الدين ومحمد عبده والكواكبي .

وكانت آراء هؤلاء الأماثل تكاد تنحصر في مجملها في العودة إلى
العقيدة الصحيحة التي جاء بها السلف الصالح من آباءنا الأولين في صدر
الإسلام والرجوع إلى هذه الروحانية السامية الكامنة في أسرار القرآن
والمأثور عن النبي (ص) وصحبه الكرام وأجداده الأجداد .

أجل ! لقد كان ما قام به هؤلاء الأماثل رد فعل لأعمال الباطنية
والسبائية التي هاجمت العقيدة بعقائد أخرى وعارضت تعاليم الإسلام
بتعاليم أخرى لتأتى على أصول هذه العقيدة وتضع مكانها بناءً مهلهلاً
فسكان من جراء ذلك هذا الأثر العنيف الذي ترك الأمة مشخنة بالجراح
تنوء بالأعباء وتئن من الآلام على أنى لن أقول إن هؤلاء الأماثل
ماساهموا في إيقاف الرقود في النهضة الحديثة فإن أصواتهم وإن كانت

رد فعل لنتائج الباطنية واليهودية السبائية فإنهم بعثوا في النفوس آمالا في توجيهها وإرشادها ولقد جاوز جمال الدين الأفضاني ذلك ونادى بطلب المستعرب الأتراك بدل استتراك العرب ورجا أن يتحقق ذلك لتسكون الدولة العثمانية في مركز يجعلها تحكم هذه الأمة وتسير على أساس ما سار عليه الرشيد والمأمون في ازدهار حضارة جديدة أما السكواكي فقد كان يرى أن الأمة العربية أولى بالخلافة وأولى بالحكم . وكاد ابن عبد الوهاب يؤسس إمبراطورية عربية لولا تدخل الأجانب في الأمر ولولا طموح محمد علي خديوي مصر في أن تكون له هذه المكانة .

كان من جراء ما فعلته مكائد اليهودية السبائية والباطنية أن انهارت تلك الإمبراطورية المترامية الأطراف وتفاوتت عليها قوى الشرق في غزوات الساتار وقوى الغرب في الحروب الصليبية وظلت الأمة تتأرجح بين القوة والضعف وتمزقت أوصالها إلى دويلات وتعدد الحكم فيها وصارت تلك الرقعة الواسعة تحكم بعدة عناصر من مفول وترك وشراكسة وعرب وظلت على ذلك ردحا من الزمن حتى نشأت الدولة العثمانية في آسيا الصغرى وقويت شوكتها ففتحت القسطنطينية عام ١٤٥٣ ومشت جيوشها غازية موفقة حتى وقفت على أبواب فينا .

ولقد رأى المسلمون في هذه الدولة الفتية قوة لحماية العقيدة وأخذوا ينظرون إليها نظر المنقذ لذلك لم يكن بدعا أن يسكت العرب على كل ما كانت تقوم به في بادئ أمرها .

العرب والترك

اندفع العرب من قلب الجزيرة فاتحين ومبشرين ، فاجتمعوا بإخوانهم في الشام والعراق ، ثم انتشروا في البلاد ، فوصلوا إلى إفريقيا وعبروا البحر إلى الأندلس وركزوا أعلامهم على جبال البرنات ، وساروا شرقاً

حتى وصاوا إلى كاشغر ، ولقد انتشرت اللغة العربية وأصبحت لغة الدين لجميع المسلمين ، يذكرون الله بها ويقرون القرآن وصارت لغة الكلام والأدب والعلم للأمة التي تنطق المنطقة التي تبدأ بسواحل الأطلنطي في الغرب مارة بالشواطئ الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط وتنتهي شرقاً بحدود بلاد إيران .

ولقد انتقلت الخلافة العباسية إلى القاهرة بعد مادمي هولاء بغداد غير أن القاهرة لم تحتفظ بكيانها ، فاضطربت فيها الأحوال . وكانت الدولة العثمانية تزداد قوة في كل يوم وكان فناء السن وحرارة الشباب يساعدها على النمو في ذلك الزمان ، فافترص السلطان سليم العثماني الفرصة وخلص العراق من حكم الفرس عام ١٥١٥ وفتح مصر عام ١٥١٧ واضطرت الحالة في تلك الأيام الخليفة العباسي أن ينزل له عن سلطانه الروحاني وزعم بعض المؤرخين أن رسلاً من سدة الكعبة جاءوا إلى مصر يحملون مفاتيحها وبذلك صارت بغداد ودمشق ومكة وبيت المقدس والقاهرة في حوزة آل عثمان واستطاعت هذه الدولة أن تستولي على تونس وطرابلس الغرب وبرقة دون عناء يذكر كما انضمت إليها الجزائر طوعاً . وبقيت مراکش مستقلة وبلغت سلطة الدولة العثمانية ذروتها أيام سليمان القانوني وموجز القول أن قلب الجزيرة والعين وعدن صارت في منطقة نفوذها أيضاً . وبذلك اجتمع الشعبان العربي والتركي تحت لواء الخلافة العثمانية وأصبحا وجهاً لوجه ، واستسلم العرب لهذا الحادث الجلل الذي حول صفحة التاريخ ونقل الخلافة من قریش إلى الترك وارتبط التاريخ الإسلامي للأمتين برباط واحد وكان الأتراك يحترمون العرب لمساكنهم المعروفة في الإسلام فإن العرب هم الذين حملوا هذه العقيدة إلى العالم ونشروها وحموها حتى استقرت في أرجاء المعمورة

وقد أضاعت قلوب الأتراك فيمن أضاعت من قلوب الأمم . لقد اشتركت
الأمتان في السراء والضراء وصار العربي يحارب مع أخيه التركي جنبها إلى
جنب دفاعاً عن العقيدة . وأخذ العرب مرا كزهم في الدولة .

وهنا تمللت اليهودية العالمية مرة أخرى وأخذت تنشر دعاياتها في
العالم الغربي على السنة علمائها وساستها والقائمين بالاستشراف من أبنائها .
وظفقت تصور للغربيين الإسلام في صورة الطامح للفتح واكتساح العالم
خاصة بعد أن وقف العرب في يوم من الأيام على جبال البرنات ووقف
الأتراك على أبواب فينا ، ورأى المستشرقون قوة الإسلام متمثلة فيها
تسمعه آذان المؤمنين في الآيات التي تقول لهم : إنما المؤمنون الذين إذا
ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى
رؤسهم يتوكلون .

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ،
ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب
من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .

« يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم
واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ، واتقوا فتنة
لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب ،
واذكروا إذ أنتم مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس
فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون .
يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم
وأنتم تعلمون .

يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم
تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم
واصبروا إن الله مع الصابرين .

وأتعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وأخريين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ، وإن جنتهوا للسلم فمنعنا ما وتوكل على الله إنه هو السميع العليم .

قائلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أنوا الكتاب حتى يعملوا الجزية عن يدهم صاغرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم .

وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون . يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجندوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين .

هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستسدى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً .

إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم وانقروا الله لعنكم زحور
والقرآن مملوء بمثل هذه الآيات التي فيها الشدة والعزة والصبر والشبابة
والإنذار والتبشير والوعيد والترغيب والترهيب ، والإغواء
والترابط والتراحم والتعاون والنزوع إلى الحرية .

وتميل الآيات التي تشقف الأنفس وتهذبها وتلين الطباع وتسمم مكارم
الأخلاق لتكوين الشخصية ، شخصية الآلة المحترمة .

كما لفتت اليهودية أنظار الغرب إلى موقع البلاد العربية الاستراتيجية
والاقتصادية ، فإن كعب الأخبار المتأمر على الخليفة الثاني لا يختلف عن
عبد الله بن سبأ الذي أطلق فكرة تأليه ابتر وناسر على قتل الخليفة
الثالث وأشعل أتباعه نار الفتنة في واقعة الجبل ولا يختلف عن يعقوب
ابن كلس وزير الإخشيدى الذي دل المعز لدين الله الناطقى على عورات
البلاد في حكم سيده وهذا لا يختلف عن دزرائيلى الذى اشترى لقومه
أسهم قناة السويس واحتجج للانكايز جزيرة قبرص .

وهكذا تلفقت الأمم ذات المصالح إلى مكة البلاد العربية
والامبراطورية العثمانية وفتحت عيونها على هذه الدعايات اليهودية
وربطت كل ذلك بالأمور الاقتصادية والمواقع الاستراتيجية والمصالح
السياسية وكان من مجموع ذلك كله فكرة الانتباه إلى الشرق العربى
بصورة خاصة .

وكان أشد دول الغرب اتجاها إلى بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وروسيا .
أخذت هذه الدول تتدخل في شئون الدولة العلية في كل فرصة تراها
وبدأت بريطانيا تنظر إلى الخليج العربى وأجزاء تركيا الأخرى نظراً
الطامع وشرعت فرنسا تنظر إلى شمال أفريقيا نظراً لمصالحها الخاصة .

ففي عام ١٨٧٨ أخذت بريطانيا قبرص من الدولة العثمانية فذير
دفاعها عنها في مؤتمر برلين لتكمل سلسلة منسكاتها في البحر الأبيض

المتوسط . ثم التفتت إلى الجنوب حيث مر طريق الهند فأخذت تبسط نفوذها على أطراف الجزيرة العربية من الجنوب والشرق فاستولت على عدن وحضر موت عام ١٨٣٩ وشرعت تعقد مع شيوخ المقاطعات المجاورة للخليج والجزر الموجودة فيه سلسلة من المعاهدات ما كانت إلا سلاسل وقيوداً أدت إلى الاستيلاء عليها وضمها إلى التاج البريطاني . وكانت القاعدة الأولى التي وثبت منها بريطانيا على العراق في الحرب العالمية الأولى .

وكما لعبت اليد اليهودية في أخذ قبرص أخذت تلعب في مصر ، فقد استطاع دزرائيلي أن يشتري لبريطانيا ١٧٦ سهماً من أسهم قناة السويس . من الحديد الذي أثقلته الديون فأصبح لها ٢٠٧ آلاف سهم من أصل (٤٠٠٠) سهم في القناة ، وبهذا أخذ أخطبوط الاستعمار يمد خراطيمه وانهزت بريطانيا فرصة اضطراب البلاد فاتفقت مع فرنسا لإرسال أسطول مشترك إلى الإسكندرية واتخذت عذراً نافهاً لإطلاق يدها ومدافعها على هذه البلاد الآمنة وفي ١١ حزيران عام ١٨٨٢ ضرب الأسطول البريطاني مدينة الإسكندرية ودك حصونها ثم أنزلت بريطانيا جنودها إلى البر ، وفي ١٣ أيلول عام ١٨٨٢ التقت جيوشها بجيش عرابي عند التل الكبير فغلب الجيش المصري على أمره وسارت جيوش بريطانيا إلى القاهرة فاحتلتها ثم أضافت السودان إلى ذلك . ولا تزال مصر تنوء بهذا الاغتصاب وتعمل ليل نهار للخلاص منه .

وفي عام ١٨٣٠ أقدمت فرنسا على فتح الجزائر فأنزلت جنودها منتحلة أعذاراً تافهة وناشرت المنشورات المذرة بالاستيلاء على البلاد وإخراج العثمانيين منها فغضب العرب لهذا الخطاب الجمل وانقضوا على فرنسا وأجبروا جيوشها على التقهقر إلى الشواطئ ، ولكن ما لبث الأمر قليلاً حتى عاد الفرنسيون واستولوا على وهران فانتشر الذعر وسادت

الفوضى وأمر العرب فيما بينهم ، وكان من بين المؤتمرين محي الدين الحسيني والد عبد القادر الجزائري ، وبعد المداولة والتشاور قرر الرأي على مبايعة سلطان مراکش هو لاي عبد الرحمن ، فقبل وأخذ الجزائريون يخطبون باسمه على المابر ففضب الفرنسيون من أجل ذلك . وبعثوا إلى عبد الرحمن يهددونه بالحرب أو يسحب جنوده من الجزائر فخشهم وانسحب .

وأراد الجزائريون مبايعة محي الدين فأبى ودلهم على ولده عبد القادر الجزائري فوافقوا وبايعوه فعقد العزم على طرد الفرنسيين ونازلهم وغلبهم واضطر قائدهم على الصلح ، وعقد معه معاهدة عام ١٨٣٤ ولكن الفرنسيين شأن كل مستعمر لا يرعون إلا ولا ذمة ، وكان عبد القادر يعتقد أنهم سوف لا يفون بما عاهدوا الله عليه فأخذ يعد لهم ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل ، فشرع يصب في بلاده المدافع ويصنع الأسلحة استعداداً لمنازلتهم ، وظالت الحرب بينه وبينهم سجالاً وكثيراً ما كانت الغلبة له .

وهنا أيضاً بدأت اليد اليهودية تلعب واستولى الفرنسيون على تلمسان ووضعوا ضريبة على يهودها فندم اليهود وأخذ يتمنون العودة إلى عبد القادر فعاد إليهم واسترجعها .

وعادت فرنسا تفاوضه بأمر الصلح وبعد المداولات تم الأمر على أن يتعهد عبد القادر بعدم السماح لأي دولة أجنبية بالاستيلاء على شيء من شواطئ بلاده إلا بمشورة فرنسا وأن يكون لكل من الأمير وفرنسا قناصل في بلاد الآخر .

فلما اطمأن الأمير إلى هذه المعاهدة شرع ينظر في إصلاح أمور بلاده الداخلية وابتنى مدينة سماها تقديمة ونظم جيشه تنظيماً غريباً وأنشأ

المدن من كل مكان وعزم على افتتاح جامعة تجمع بين الثقافة الإنسانية وبين العلوم الحديثة ، وبينما كان الأمير منصرفاً إلى إصلاحاته اقتضت فرنسا عهداً أيضاً . فاستولت على قسطنطينية واعتذرت عن عملها بأن المعاهدة تقضى بذلك مستندة إلى تحريف في نصوصها .

وفي عام ١٨٤٠ عززت فرنسا قوتها تحت إمرة قائد جديد فضيق الأمر على عبد القادر .

كان الأمير صنع مدينة متنقلة سماها الزمالة ، فلما سمع الفرنسيون بها أخذوا يعملون ليل نهار حتى أحرقوها ، وكان لهذه المدينة من الفوائد ما لها .

ظل عبد القادر يحارب الفرنسيين خمسة عشر عاماً حتى أنهكه التعب وأسلمته الخيانة ، فقد نفّض سلطان مراكش يده منه بل أعان الفرنسيين عليه ، ولما بلغ منه اليأس مبلّغه سلم نفسه إلى الفرنسيين وبهذا التسليم طويت صفحة غريبة جليلة طواها الاستعمار وانطلقت فرنسا تعمل في البلاد ما تشاء وتريد . أكرم الفرنسيون مشواه وفرحوا بهذا التسليم ، ثم ما لبثوا أن اعتقلوه وسجنوه فصبر على هذا المكروه . ثم تيقظ ضميرها فأطلقت سراحه ، واختار دمشق مقراً له ، وبقي فيها معزراً مكرماً يؤلف ويرشد ، وكان وجوده في دمشق عاملاً من عوامل إيقاظ الرقود .

انتهت فرنسا من الجزائر فوجهت عنايتها إلى تونس مع أن إيطاليا كانت قد وضعتها نصب عينها طمعاً في الاستيلاء عليها معتقدة اعتقاداً جازماً أن ذلك من حقها .

وفي عام ١٨٨١ احتلت فرنسا تونس وفرضت الحماية عليها بمعاهدة أملت على الباي ، وكان سبب ذلك أن لفرنسا ديناً على تونس بمبلغ قدره

١٢٥ مليون فرنك وقد عجزت تونس عن أدائه وتشبثت بأمر تافهة أرسلت عن أثرها حملة تأديبية . ووقع الباي بعد ذلك معاهدة تضمن له على الاعتراف بأن لفرنسا حق الرقابة على مالياتها كما لها الحق في إدارة شئون تونس الخارجية .

وفي معاهدة الحماية التي وضعت على تونس جعلت فرنسا للباي جعلاً يقيم أوده ويصالح البلاد وقدّر هذا الجعل ١٢٥ مليون وبذلك انسحبت تونس عن البلاد العثمانية بعد أن كانت جزءاً منها بالاسم .

وأخذت فرنسا تزحف على مراكش وهو القسم الأخير من البلاد العربية من جهة الغرب . وكان هذا القسم العربي مستقلاً لم يخضع للعثمانيين لمناعبته وقوة شكيمة أدله ، ولكن الاستعمار أبى أن يترك حراً ونسبت فرنسا الفعائل في إقناع الدول المتزاحمة حتى تم لها الأمر بتأييد بريطانيا وأمريكا وروسيا ، ولم يزاحمها غير ألمانيا وأسبانيا ، وأطلقت فرنسا يد أسبانيا في الريف المغربي وشرعت تنفذ خططها خطة بعد خطة حتى كانت اتفاقية فاس في ٤ أيلول عام ١٩١١ حيث اعترفت ألمانيا بحق فرنسا في مراكش .

وفي اتفاقية يناير عام ١٩٠٦ انتدبت فرنسا لحماية حقوق جميع الدول في مراكش واشترط لذلك أن تكون الممالك تحت مراقبة دولية .

وأن تكون مراكش مستقلة بشرط أن يدير مالياتها بنك حكومي يكون مقره في طنجة يكون تحت مراقبة بنوك الدول وأسهمه موزعة بالتساوي بينها وفرنسا حصة الأسد من ذلك .

ولما رأت إيطاليا ما فعلت بريطانيا وفرنسا أقدمت على احتلال طرابلس الغرب وبرقة وأنذرت الدولة العثمانية النائمة وأنزلت جيوشها في البر بعد مقاومة عنيفة من الحامية التركية والسكان العرب وزحفت

تلك الجيوش تفتك بالبشر دون رحمة لا تتورع في الإجهاز على الجريح
وقتل الشيخ الطريح والمرأة الحاملة والطفل البريء ، أما المقالة فليس لهم
شفاعة في ضمير الإيطاليين .

وهكذا أصبحت البلاد العربية التي كان يجب أن تكون كلها جزءاً
عظيماً وعوناً كبيراً للإمبراطورية العثمانية ، مجزأة يحتل قسماً كبيراً منها
ثلاث دول فرنسا وإيطاليا وبريطانيا وشرعت هذه الدول تتنافس
على البقية الباقية التي انحصرت في قلب الجزيرة : اليمن ونجد والحجاز
وبلاد العراق وبلاد الشام .

فتح العرب عيونهم على هذه الأحداث فرءوا أنفسهم في خطر محقق
وعيون الغرب تنبص بهم الدوائر وتركيا على فراشها تحتضر ولكن
رغم هذا الاحتضار نبطت فكرة القومية التركية وبدأ الصراع بين الامةين
بأخذ دوراً مهماً في كيان الإمبراطورية العثمانية .

عوامل اليقظة

بسطنا في فصولنا السابقة أن للعرب ذخيرة فكرية ممتازة تتمثل
في القرآن والحديث والأدب وما أنتجه الفكر العربي في عصوره الزاهرة
وذكرنا كيف استطاع ابن تيمية أن يوجه الأمم الإسلامية والعربية
إلى هذه الثروة وكيف سار على نهجه ابن عبد الوهاب وجمال الدين الأفغاني
والشيخ محمد عبده . وأن هذه الثروة مثلها كمثل الجمر غطاء الرماد لا يحتاج
إلا إلى قيس يزيد اشتعالاً ليتهب ويضيء فينير الأرجاء . فإذا قيل إن
الغرب احتك بالشرق فأخذ الشرق عنه . فقد يما كان الغرب في ظلام
دامس وكانت فيه كل مقومات الحضارة الكامنة مما خلفه الإغريق والرومان
أغطشت سماء الغرب حيناً من الدهر حتى جاءت حضارة العرب الزاهرة
ونقلت إليهم هذا التراث تارة أخرى وأحدثت فيه تلك الهزة العنيفة

التي كانت هذه الحضارة من نعمائها . وهكذا أعاد الغرب تلك اليد إلى بلاد الشرق فكانت غزوة نابليون قسماً أثار الشعلة . فقد جاء نابليون إلى مصر لا ليبعث في الشرق نهضة أو ييقظ النيام فيه وإنما غرضه من هذه الحملة الاستيلاء على مصر لمكانتها في الشرق العربي ولأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية فهي سوق واسعة لفرنسا وهي مركز مهم بين الشرق والغرب وهي نقطة يمكن منها القضاء على نفوذ بريطانيا في الشرق ثم هي بعد جسر مهم بين البحرين الأبيض والأحمر . زد على ذلك ما كان يدور في أذهان رجال الدين من رد الصاع بالصاع ، فقد كانت مصر كنانة هذه العقيدة ردت الصليبين وردت التاتار وحفظت التوحيد من كيد الكائدين كل أولئك وغيرها هيأت هذه الحملة الجبارة المجهزة بالعلماء والمختبرات .

فتح العرب في مصر عيونهم على رجال هذه الحملة ورءوا شيئاً عجيباً رءوا صحة ونشاطاً . وعملاً مثمراً فأثار في نفوسهم أملاً وبعث ثقة بأن الإنسان إذا أراد أن يفعل شيئاً فعل .

أبحر نابليون في ١٩ مارس عام ١٧٩٨ متجهاً إلى مصر فاضطربت فرائص بريطانيا لهذا الحادث الجليل ، ولكن كيد نابليون غلب كيد خصومه ووصل مصر وبعد مواقع حربية بينه وبين المماليك استطاع أن ينزل القاهرة وأن يعلن للملأ أنه لا يريد محو دين البلاد وإنما جاء منقذاً لها من يد الظالمين وأنه يدين بدين الإسلام بل هو مخاض للسلطان . وغير ذلك مما يهدى الخواطر . ثم أصدر لجنوده الأوامر بعدم التعرض لأحد وأن يتوددوا للناس فاطمأن المصريون له ولجنوده . وأخذ نابليون يزور العلماء والمشايخ ووجوه البلد في بيوتهم حتى إذا تم الاطمئنان من الجهتين شرع نابليون يدرس طبيعة البلاد فأنشأ مجمعاً علمياً . مكوناً من

نماية ر أربعين عسراً في أربعة أقسام : قسم للرياضيات وقسم للطبيعيات
 وقسم للاقتصاد السياسي وقسم للآداب وجعل رياسته لأحد هؤلاء العلماء
 وأنشأ جريدين ومدرستين ومسرحاً للتشكيل وبنى المصانع ومعهداً للورق
 وأسس مطبعة وفتح مكتبة عامة جمع فيها الكتب من بعض المساجد
 وأضاف إليها ما جاءت به الحملة وجعلها مباحة لكل من يريد الدخول فيها .
 وقد قام المجموع بأبحاث قيمة وكانت هذه الأبحاث تنشر كل ثلاثة أشهر
 وكان رجال هذه الحملة شبه مدرسة سيطرة تعلم منها أهل مصر حياة جديدة
 في العمل والانتاج بل حتى في الأمور الاجتماعية . ومن مآثر هذه الحملة
 العلمية عثورها على حجر رشيد الذي كان الأثر الكبير في دراسة التاريخ
 المصري القديم . لقد نظم نابليون جهاز الإدارة في مصر وأنشأ الدواوين
 ورتب أمور المالية وعين لها الأكفاء من بنى مصر . وقد كان حظ مصر
 عظيماً إذ انتهت الحملة إلى هذا الحد من الفائدة فحفظ الله كنهاته وعمل الحظ
 عمله وتوالت الظروف في جانب مصر فخلاً الفرنسيون ومن سوء حظ
 هذه الحملة أن نقض رجالها العهد فأطلق الجنود أيديهم في القرى ينهبونها
 ولم يعبثوا بتقاليد الشعب وديانته وفرضت الضرائب فكان كل ذلك
 سبباً لشورة أكتوبر عام ١٧٩٨ إذ تجمهر الناس وذهبوا لرفع الشكوى
 وعندما علم حاكم القاهرة الفرنسي خرج إليهم فأصيب بحربة من يد وطنية
 قضت عليه فاغتاظ الفرنسيون ونصب نابليون مدافعه على المقطم وأخذ
 الثورة بقوة وشدة أثارت السكره والحقده في نفوس المصريين . ومهما
 يكن فقد أفادوا من هذه الحملة فائدة كبرى تركت أثراً كبيراً في حياتهم
 وكانت نواة للنشاط الذي استقبل به محمد على الشعب المصري .

محمد علي

تولى محمد علي ولاية مصر في ١٣ مايو عام ١٨٠٥ والبلاد لا تزال نشوى مما رآته في حملة نابليون من النشاط والحياة الجديدة .
ولسكنها في اضطراب مالي وفوضى في الإدارة فأول ما عمل أنشأ المجالس والدواوين وقسم القطر إلى مديريات ومحافظات وكان الديون العالي بمشابة رئاسة الوزارة تتبعه فروع كل فرع له اختصاص كديوان المدارس وديوان الحربية وهو بمشابة وزارة المعارف ووزارة الحربية وأنشأ عام ١٨٢٩ مجلس المشورة وهو الذي يختار أعضائه بنفسه من الأعيان ورجال الدولة والعلماء ومهمته النظر في المشروعات الكبرى ويرأس هذا المجلس ولده إبراهيم . واتجه إلى الإصلاحات التجارية والزراعية والرى وكان في كل ذلك موفقاً جداً التوفيق .

واهتم بالتعليم اهتماماً عظيماً ففتح مدارس الناشئة في القرى والأرياف والمدن . وأنشأ مدرسة للطب البشرى ومدرسة للطب البيطرى ومدرسة للهندسة ومدرسة للزراعة وأنشأ مدرسة الترجمة لنقل آثار الغرب إلى لغة العرب وجلب هذه المعاهد أكابر الأساتذة من الفرنسيين لقد كان في الأزهر لمحمد علي مادة قوية ومصدر عظيم فأرسل منه البعث إلى أوروبا ففي عام ١٨٢٦ أرسل أربعة وأربعين طالباً وأخذ هذا العدد يزداد حتى جاوز المائة .

وعاد هؤلاء الطلاب من أوروبا بعد أن تخصصوا في العلوم والفنون على اختلاف أنواعها من طب وهندسة وكيمياء وزراعة وري وميكانيكا وطباعة وحفر فكانوا خير عون لهضة محمد علي . وأقام المطبعة الأميرية على أنقاض المطبعة الأهلية التي كان الفرنسيون أتواها معهم ثم ذهببت بندها بهم . وأصدر الجريدة الرسمية عام ١٩٢٨ .

وكان من أبرز رجال بعثته رفاة بك الطهطاوى الذى ينتهى نسبه إلى الحسن بن علي . نشأ هذا العالم فقيراً ولكنه كان شغوفاً بالعلم وساعده اجتهاده إلى أن ينال حظوة عند محمد علي فأرسله ليكون إماماً لطلبة البعثة فقام بإجابه على أمته ولكنه افترض الفرصة وانتسب إلى الدراسة شأنه شأن إخوانه ، فبرز وتقدم ولما عاد أحدث ثورة أدبية في الترجمة وهو الذى اقترح تأسيس مدرسة الألسن فكان مديرها ورئيس تحرير الوقائع المصرية وقد ترجم كتاب مبادئ الهندسة .

وجملة القول أن محمد علي أوجد جهازاً إدارياً محكماً استطاع به أن يوجد دولة حديثة ذات كيان يخشى بأسها ويسمع قولها وكان يرى من وراء ذلك إلى إيجاد مملكة واسعة الأطراف تنتظم جميع البلاد الناطقة بالضاد ومن ثم تنتقل إلى الخلافة الإسلامية وقد لاحت هذه الفكرة في مخيلة محمد علي حين قضى على الحركة الوهابية في مهدها كما قدمنا سابقاً فقد خبر بنفسه بلاد العرب وعجم قوتهم ولم تسكن في الجزيرة قوة عربية تصمد للحرب غير تلك القوة التى غلبها على أمرها . إلا أن هذا الحلم لم يكن واضح الخطوط عنده فالدولة العثمانية التى يتبعها لن تفسح له المجال في تحقيقه ونتيجة الأمر القضاء عليها حتماً . زد على ذلك ما يقوم بوجهه من العقبات التى تقيمها مصالح الدول الكبرى . فان بريطانيا لا يسهل عليها أن تقوم دولة عربية فتية قوية في طريق الهند . ومن مصاحبتها أن تبقى تركيا مالمكة زمام الأمر رغم ضعفها ، فان هذا الضعف يسهل على بريطانيا أن تتدخل في شئونها وتملى عليها ما هو في صالح طريق الهند فاذا أقام محمد علي دولة فتية في هذا الطريق وجب على بريطانيا أن تكون في موقف تمنع فيه أن يمس هذا الطريق أو يتحكم فيه . والعقبة الشائكة التى تقف في وجه محمد علي عدم استعداد العرب لقبوله خليفة عليهم خاصة

بعد ما قام بقمع حركة ابن عبد الوهاب وترك جرحاً عميقاً في قلوب أبناء الجزيرة .

أما ولده إبراهيم فقد كانت الفسكرة واضحة في مخيلته وكان يبشر بها دون خوف . لقد نشأ إبراهيم في بلاد عربية وربى تربية عربية وتكلم بلسان عربي فصيح بخلاف أبيه الذي لا يقيم كلمة . لقد درس التاريخ العربي الذي هو جزء من التاريخ الإسلامى وتمكن في نفسه ميل قوى لهذه الأمة بل أصبح يمد نفسه عربياً وكان لا يتوانى عن التصريح بذلك فماذا يفعل محمد على يا ترى لتحقيق فكرته وإجابة رغبة ولده إبراهيم لقد انتحل شتى الأعذار لغزو سوريا وكان أهم هذه الأعذار نزاع قام بينه وبين عبد الله الجزائر والى عكا ؛ لأن عدداً من الفلاحين المصريين هاجروا إلى عكا فراراً من أعمال السخرة ودفع الضريبة وهروباً من خدمة الجيش ولما طلب محمد على إرجاعهم أبى عليه الوالى .

وقد أعدت الحملة لتأديب الجزائر غير أن محمد على كان يخفى وراء ذلك هدفاً أعظم . وتظاهر بالولاء للسلطان وفى ٢٩ أكتوبر عام ١٨٣١ سار جيش محمد على زاحفاً على سوريا . وذهب ابنه إبراهيم القائد العام لهذا الجيش بحراً . ولم يلق الجيش مقاومة فى طريقه حتى وقف على أبواب عكا . وكان يلقى ترحيباً كلها من على مدينة .

حاصر إبراهيم باشا عكا من البر والبحر مدة استسلمت بعدها رغم محاولة الدولة العثمانية لك الحصار عنها بجيش لجب ، وسقطت عكا فى ٢٧ مايس عام ١٨٣٢ . كان لسقوط عكا أثر كبير فى نفوس أبناء الشام فأقبلت القبائل والوفود فرحة مستبشرة بهذا الفتح وعرضوا أنفسهم لمساعدة الجيش المصرى وانضم الأمير بشير الزمى إلى محمد على وساعد الجيش المصرى مساعدة فعالة . غضب السلطان على محمد على وأصدر إرادته السنية بعزله وعزل إبراهيم عن بلاد العرب . فاهتم محمد على للأمر

يعرض على السلطان انضمامه بعد فتح عكا ورغب في وقف القتال على أن يولى السلطان أمر الشام فأبى السلطان ذلك . لقد كانت هذه هي أمنية محمد علي فاو ضم السلطان إليه بلاد الشام لاشد ساعده وقوى أمره وصار من السهل عليه أن يستولى على البلاد العربية المجاورة . ولما أصر السلطان على إباطه تقدمت الجيوش المصرية تهزم أمامها جيوش السلطان فبلغ إبراهيم «أذنه» واستمر حتى بلغ «قونية» والتقى بجيش الخليفة الذي كان بقيادة محمد رشيد باشا فهزمه شر هزيمة واستولت جيوش إبراهيم على أكثر بلاد الأناضول وزاد العاين بلة استسلام الأسطول التركي إلى محمد علي ، وهكذا بقيت الدولة بلا جيش وبلا أسطول . فلم ير السلطان بدا من المهادنة وعقدت بين الطرفين اتفاقية «كوتاهية» التي تقضى بمنح محمد علي بلاد سوريا علاوة على مصر وتعيين ولده إبراهيم والياً على أذنه لقد أطلقت يد محمد علي في بلاد الشام . وتحققت الرغبة التي كان يتمناها إبراهيم . فبدأ يبيت آراءه ويبحث الناس على تكوين حكم عربي مستقل عن الخلافة ولعل هذا الصوت كان أول صوت من نوعه في بلاد الشام بعد ذهاب الأمر من يد العرب في العالم الإسلامي .

انصرف إبراهيم إلى تنظيم شؤون الإدارة وكون جهازاً حكومياً عادلاً وفتح المدارس ونشر الثقافة وسهل الجمعيات التبشيرية الآتية من الغرب فتح مدارسهم وممارسة أعمالهم . وظل يعلن على الملأ ضرورة تكوين دولة عربية في هذه البقعة من الشرق الأدنى . ولكن مصالح الدول التي تتضارب في هذه البلاد وقفت دون ذلك . وبقيت هذه الفكرة حليماً يتردد في مخيلة إبراهيم وأبيه قضت عليه دسائس السلطان وانحرف إبراهيم باشا في سياسته في هذه البلاد وميله إلى الشهادة في ابتزاز المال ووضع الضريبة وتنفيذ التجنيد الإجباري ونزع السلاح ، كل ذلك

أثار حفيظة أهل البلاد وناروا حظه . وكان ذلك إيذاناً باسم الرضا
فطويت القلوب على الكراهية والحقد .

البعثات التبشيرية

بينما كانت بعوث محمد علي مستمرة إلى بلاد الغرب واستبداً
الأساتذة لنشر التعليم الصحيح في البلاد لا ينتطح وسركة ابن عبد الوهاب
في الجزيرة لاتزال قائمة والأزهر مفتوح الأبواب يمد والى مصر بالمشقفين
لإرسالهم إلى بلاد الغرب والجريدة الرسمية في مصر تنشر على الناس
نجد البعثات التبشيرية الآتية من الغرب تنشط في أعمالها في فتح المدارس
وتشقيف الناشئة لإيجاد جيل جديد يفهم الدين بلغة البلاد ، وكان للتنافس
الذي حدث بين مبشرى جمعيات البروتستان وجمعيات الكاثوليك أثر
كبير في انتشار المدارس ، وقد ساعد إبراهيم باشا على هذا الانتشار
بما بذله لهذه الجمعيات من التسهيلات ، وقد كان إبراهيم نفسه فتح المدارس
والكليات في بلاد الشام على غرار بعض ما فعل أبوه في مصر . وبذلك
بدأت نهضة ثقافية بالغة العربية ، لغة أهل البلاد . وكان إبراهيم يرمى
من وراء ذلك أن يرضع الناشئة مع أفريق العلم أفريق الوطنية والقومية .
بدأ البروتستان بترجمة الإنجيل إلى العربية واستعانوا على ذلك بالأديب
المشهور بطرس البستاني . استعانوا بالشيخ إبراهيم اليازجي لتأليف
كتب القواعد وآداب اللغة العربية لتوضع بيد الناشئة في مدارسهم .
الكاثوليكية وأقدم هذه المدارس وأهمها مدرسة عنثورة أنشئت عام ١٧٢٨
وأغلقت ثم أعيد فتحها عام ١٨٣٤ ، والكاثوليك السورية أنشئت في بيروت
عام ١٨٦٦ وهي بروتستانية . وهناك مدارس أخرى انتشرت في أنقرة
والأرياف .

لقد أراد الغرب من وراء هذه الجمعيات التبشيرية مدارساً أن يجد

له باباً يدخل منه إلى البلاد العربية كي يفرق بينها وبين السلطان كما كان يفعل في البلقان في إثارة الأقليات والقصد من وراء ذلك كله إضعاف شوكة الدولة العثمانية والتدخل في أمورها ، وقد لا تخاو حوادث ١٨٦٠ في دمشق من يد خفية .

ومهما يكن فإن هذه المدارس التبشيرية أوجدت جيلاً جديداً من رجال الدين يتكلمون ويخطبون ويعظون بلسان عربي مبين وأوجدت طبقة ممتازة من الأدباء والشعراء يستمدون معانيهم وألفاظهم من ذخيرة اللغة العربية ، كانت المدارس الإسلامية وحدها تضطلع بدراسة القرآن تراث العربية ، فلما جاءت إرساليات البروتستان إلى بلاد الشام للتبشير بمنهجهم الذي من أسسه الأولى أن يتلى الإنجيل باللغات المفهومة وأمنت الكنيسة بدراسة اللغة العربية وآدابها لتحقيق ذلك صار من السهل جداً على أبناء البلد الواحد أن يتلاقى شعورهم في صعيد واحد . وكان يمكن أن تكون الفائدة أتم لولا مطامع بعض الدول فإن فرنسا كانت تطمع في الاستيلاء على سوريا ولبنان وكانت لا تني تستغل هذه الجمعيات التبشيرية ومدارسها لتحقيق هذه المطامع وتسخرها لماآربها بناء على ما تقوم به من المساعدات المادية والأدبية وكان طبعياً أن تختلف الآراء حسب الأهواء والظروف الخاصة بكل فريق من أبناء البلاد .

حركت الدراسات العليا والمطابع والصحف والحركات التحريرية في بلاد الغرب كوا من القومية في نفوس الكتاب والشعراء والمفكرين وأثار ظهور اللغة العربية في مصر وبلاد الشام والعراق تارة أخرى مادة للترجمة والتأليف أحياء أمجاد الماضي والاستفادة منها وتقديم العلماء والكتاب والأدباء يبشون آراءهم ويهيئون البلاد لبعث جديد .

الأدباء والكتاب

زخر مستهل القرن التاسع عشر ومنتصفه بالعلماء والأدباء والسياسة والمصلحين وملأت أصواتهم سماع العالم العربي في استنهاض الهمم وبعث الرمم ، وكان مبعث ذلك هذه الموجة الدافقة من اليقظة التي عمت العالم أجمع وفتحت عيون العرب على حيوية الغرب ونشاطه وأطباعه ، وكانت بلاد الدولة العلية هدف هذه الأطماع وكان الصراع يدور حول أطرافها وأوساطها . تلمس العالم العربي بعد جلاء الفرنسيين عن مصر وتفتحت الآفاق عن نشوء مصر الفتية في نهضة علمية شاملة بعثت عدداً من أجلة العلماء والأدباء ، وكانت بعض المدارس الدينية في بعض البلاد الإسلامية لا تزال في خير يظهر فيها أجلة من العلماء في غفلة من غفلات الزمن ، وهكذا أجمعت مصر رفاعة بك الطهطاوى ١٨٠١ - ١٨٧٣ وهو الذى يسمونه أبا النهضة المصرية نشأ في أسرة فقيرة الحال غنية النسب ينمى إلى الحسن بن على ، درس فى الأزهر وعين مدرساً فيه وهو لم يبلغ الثانية والعشرين وقد عين واعظاً وإماماً فى جيش محمد على ، فلما أرسل محمد على بعوثه العلية إلى باريس اختاره ليكون إماماً لهذه البعثة ، فأكب على الدرس شأنه شأن إخوانه ، فدرس اللغة والفلسفة وطالع كتب الأدب لأكابر الشعراء والأدباء . ولم يكتف بذلك فقد درس كتب المعادن والرياضيات وغير ذلك . ولما عاد إلى بلاده رأى أن ينقل ما يستطيع من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية فترجم وألف ومن جملة ما ترجم الدستور الفرنسى ، عاد إلى مصر بعد ست سنوات وتولى منصب الترجمة وتدرّس اللغة الفرنسية فى مدرسة الطب ثم نقل إلى مدرسة المدفعية فترجم علوم الهندسة وفنون الحرب ، وترجم كتاب الجغرافيا مؤلفه ملتيرون .

وعهدت إليه الحكومة ترجمة قانون نابليون فنقله إلى العربية وأخرجه مع رفاقه من مدرسة الألسن في مجلدين وهو الذي اقترح إنشاء مدرسة الألسن وقد صار فيما بعد ناظراً عليها . وهكذا قدم هذا العالم لأمة ثروة من العلم وفي العراق كان من أبرز العلماء شهاب الدين محمود الألوسي ١٨٠٣ — ١٨٥٤

درس الفقه وعلوم العربية على أجلة العلماء في عصره فبرع بها واشتغل بالتأليف والتدريس وهو لا يزال صغير السن وكانت مدرسة المرجانية ببغداد موضع عمله وإلقاء دروسه وقد تتلمذ عليه كثير وتخرج على يديه أجلة من العلماء ، ألف تفسيره المعروف بروح المعاني ويعتبر من أجل التفاسير ويقع في تسع مجلدات جمع فيه صفوف ما جاء في التفاسير الأخرى .

وجاء بعد محمود شكري الألوسي الذي توفاه الله عام ١٩٢٣ ، وهو واضع بلوغ الأرب في أحوال العرب وكان لمؤلفه هذا رنة إعجاب في العالم الغربي والشرقي وصف فيه أحوال العرب الاجتماعية والأدبية ودحض جميع ما ألصقه الموالي والشعوبيون بالعرب مما ليس فيهم .

وفي لبنان ظهر ناصيف اليازجي ١٨٠٠ — ١٨٧١ ولع بالأدب ولم يكن في متناوله ما يشبع رغبته من الكتب فأخذ يفتش عنها في الأديرة حتى إذا وقع على مخطوط أسرع في نقله أو حفظه عن ظهر قلب فتكونت فيه ملكة النثر والنظم وعرف بين الناس بأدبه وعلمه فلما علم به الأمير بشير الثاني استكتبه ونال بذلك حظوة عنده . واتصلت به جمعيات التبشير من البرتستان فكتب لهم الكتب المدرسية في اللغة والأدب والمنطق ولا تزال بعض هذه الكتب تدرس في المدارس المسيحية بلبنان إلى اليوم .

وظهر أيضاً الشيخ بطرس البستاني ١٨١٩ — ١٨٨٣ فالف وكتب ، واستعان به البرتستان على ترجمة الكتاب المقدس ، وكاد يتمه لولا أن عاجلته المنية فأتته فان ديك من بعده وفي عام ١٨٦٣ أنشأ في بيروت مدرسة عالية أسماها المدرسة الوطنية أسسها على الحرية الدينية ومبدأ الجامعة الوطنية العثمانية ، فأخذ يفد إليها الطلاب من سائر أنحاء البلاد ومن مصر والعراق وغيرها ، فرضيت عنه الدولة وأنعمت عليه بوسام عال مكافأة له على خدماته . ألف قاموسه المعروف بمحيط المحيط وفرغ منه ١٨٦٩ وأنشأ مجلة علمية أدبية سياسية سماها « الحنان » وقد بدأ بتأليف دائرة المعارف ولما أتم منها ستة مجلدات عاجلته المنية قبل أن يتم السابع فأتته أولاده وذووه من بعده واستمروا في عملهم حتى بلغت أحد عشر مجلداً .

وقد مر بنا في الفصل السابق ما قام به جمال الدين الأفغانى في أنحاء الشرق الأدنى وما قام به الشيخ محمد عبده والسيد عبد الرحمن الكواكبى في هذه الحقبة من الزمن .

وصفوة القول كانت البلاد العربية تموج بمجموعة من أجلة العلماء والمصلحين أيقظوا في كتاباتهم وخطبهم وأحاديثهم كوامن العزة في النفوس ودفعوا الأمة إلى الحرية والاستقلال والطموح إلى السكال وكان من نتائج ذلك شعور بالعمل المشترك فتألفت الجمعيات العلمية والأدبية في بادىء الأمر ثم تطورت الحال إلى تأليف الأحزاب والجمعيات السياسية والنوادي التي تهدف في أعمالها إلى الإصلاح وتغيير الأحوال إلى أحسن منها ويكاد تكون أول جمعية أسست هي الجمعية العلمية التي اقترح البستاني واليازجى على الأمرى كان تأسيسها ولم تكن هذه إلا نتيجة يقتضيها العمل المشترك . وبرزت للوجود عام ١٨٤٧ باسم « جمعية الفنون والعلوم » وكان اليازجى والبستاني من بين أعضائها وكان جلهم من الأمريكان وقد تلتها للبرازحة والمنافسة « الجمعية الشرقية » التي أسسها

اليسوعيون عام ١٨٥٠ وأعضاؤها على غرار أعضاء جمعية الفنون والعلوم شرقيون وغربيون وكلهم من المسيحيين . انحلت هاتان الجمعيتان فتكونت على أثر انحلالها « الجمعية العلمية السورية عام ١٨٥٧ وكانت تضم أعضاء من المسلمين والدروز والمسيحيين ، واجتماع هؤلاء الأعضاء في جمعية واحدة دلالة واضحة على ظهور الوعي القومي ، وكان إبراهيم اليازجي أحد أعضائها والأمير محمد أرسلان الدرزي رئيسا لها .

وفي شهر ديسمبر من عام ١٩٠٤ تأسست في باريس جمعية باسم رابطة الوطن العربي ، تديرها هيئة عليا وقد وجهت هذه الهيئة نداء إلى العرب القاطنين في تركيا وفي عام ١٩٠٥ وجهت هذا النداء إلى العالم الإنساني في أوروبا وأمريكا أبانت فيه مطالب العرب وقد صار هذا النداء فيما بعد أساساً للمناهج الأخرى فيما تأسس من الجمعيات ^(١) .

ظلت الأيدي الخفية تفعل فعلها في إثارة القلاقل وتنبيه الأذهان إلى أعمال الدولة العثمانية ، وكانت قد أوفت على الشيخوخة من جراء النكبات التي أصابتها في البلقان وفي البلاد العربية فقد أخذ الطامعون ينتقصونها من أطرافها ، وشرعت الحركات الاستقلالية في المقاطعات التي تتكون منها عناصر هذه الامبراطورية تزداد قوة والدولة تزداد ضعفاً وأثقلت الدولة بالديون ، وكانت فرنسا لا تني تحدث المشاكل وتعلن على رموس الملاً أطباعها في بلاد الشام وبريطانيا جاثمة على فم الخايج وباب المنذب يهملها ضعف الدولة على أي حال من الأحوال لتستطيع أن تملأ ما يفيدها في حفظ طريق الهند . ويعزوا المصلحون هذا الضعف إلى استبداد السلطان واستئثاره بالحكم ولذلك تأسست من بين رعايا الدولة جميعها جمعيات سرية وعلمية تمخضت كلها عن

تأليف جمعية هي : « الاتحاد والترقي » وكان أعضاؤها من بين جميع أجناس الإمبراطورية والعدد السائد فيها على الترتيب التالي : الأتراك ويشكون الأكثرية ويليههم اليهود في السكثرة ثم تأتي بعد ذلك الأجناس الأخرى ، وكانت هذه الجمعية ترمي إلى إصلاح المملكة عن طريق إعلان الدستور وتقليل أظافر السلطان ولما علم أعضاء هذه الجمعية بما يبشبه الغرب لهم في اقتسام إرث الرجل المريض أعلنوا الثورة وطالبوا عبد الحميد بإعلان الدستور فاضطر لذلك وأعلنه في يوم ٢٤ تموز من عام ١٩٠٨ .

كانت حالة الدولة سيئة جداً إبان إعلان الدستور وكان العرب مشفقين على بقية بلادهم من الضياع لأن الدولة العثمانية أصبحت لا تدفع أذى ولا تزيل شراً . فأخذوا يفكرون في الأمر تفكيراً جدياً ووضعوا خطط الإصلاح التي يرمون من ورائها إلى الاحتفاظ بكيانهم ، فلما حدث الانقلاب الدستوري فرحوا به واستقبلوه بالبشر والحفاصة وانضموا إلى الترك علماً منهم بأنه لم يبق في الدولة اختلاف عنصري بعد . كان إعلان الدستور إيذاناً بانطلاق الناس من قيود الاستبداد وإعلاناً بانبلاج نور الحرية فهب أقوام الإمبراطورية يؤلفون الجمعيات ويفتحون النوادي ويعلنون ما كان في أمرهم سراً . فقد كان للروم والأرمن جمعيات منظمة سرية جعلوها شرعية علنية وقام العرب فأسسوا جمعية « الإخاء العربي العثماني » وفتحوا نادياً بهذا الاسم وكان من مبادئ هذه الجمعية الصداقة التركية العربية وقد تم افتتاحها رسمياً وحضره فريق من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي وتهدف إلى تحسين أحوال العرب عامة وتشجيع التعليم وبث الالفة بين أقوام الدولة العثمانية وكان باب الانتساب إليها مفتوحاً أمام العرب جميعهم على اختلاف نحلهم ، كما قررت أن تنشئ لها فروعاً في الأقاليم العربية جميعها . وأنشأت فعلاً جريدة تبث فيها آراءها ومقاصدها .

لقد ظن العرب بالاتحاديين خيراً ووضعوهم بأيديهم ولكن ما لبث الأمر قليلاً حتى تغير وكان أبرز مظاهر هذا التغير ميدان الانتخابات البرلمانية فإن جمعية الاتحاد والترقي وجهتها وجهة تسكفل لها الأكترية وأن يرجح العنصر التركي على العناصر الباقية جميعها ، وبالرغم من تفوق العرب على الترك بالأعداد فقد افتتح البرلمان في شهر كانون الأول وضم في أعضائه ١٥٠ نائباً تركيا و ٦٠ نائباً عربياً ، أما مجلس الشيوخ الذي كان يعين من قبل السلطان وكان عدده ٤٠ عيناً فلم يكن فيه إلا ثلاثة من العرب .

وما كانت هذه النتائج لترضى السلطان وهو الأمر الناهى وكان يتعين الفرص للخلاص من جمعية الاتحاد والترقي فدبر مؤامرة في اليوم الثالث عشر من شهر إبريل أعلنت فيها حامية القسطنطينية العصيان ، وهاجمت دار المبعوثان ، فافتحمتها وقتلت ضباطها ووزير العدل ونائباً عربياً هو الأمير محمد أرسلان مبعوت الشام . فلما سمع محمود شوكت باشا بذلك وهو عربي يتمتع برتبة عالية في الجيش وكان حينذاك قائداً للجيش في سالونيك ، تقدم نحو العاصمة وبعد قتال عنيف ومعارك سالت فيها الدماء دخلها ظافراً ، وبعد ثلاثة أيام أعلن خلع السلطان عبد الحميد ونصب مكانه أخوه محمد رشاد وعاد للجمعية الاتحاد والترقي نفوذها الأول .

بدأ سوء التفاهم يزداد بين العرب والاتحاديين من نتائج البرلمان ومن حلهم للجمعية الإخاء العربي العثماني وشرع الاتحاديون يناهضون العرب في إقصائهم عن الوظائف بحجة التفسير وقد نسق عدد كبير منهم في وزارتي الخارجية والداخلية ومنع قبول العرب ودعوتهم في الاجتماعات ودخولهم في الجمعيات الاتحادية أو حضورهم في المذاكرات السياسية التي كانت الجمعية تجتمع لها مع انتزاع وزارة الأوقاف من

الوزير العربي وإعطائها إلى وزير تركي واستبدال المتصرفين والقضاة من العرب بآخرين من الترك ، ومحاربتهم اللغة العربية .

أعلن الاتحاديون نياتهم وبدءوا سياستهم التي تستند إلى مبدأ سيادة الترك على العناصر الأخرى ، وتتركها جميعها ، وما دروا أن هذه المحاولة فاشلة ذلك لأن العرب يمثلون العنصر الأكبر في الدولة ولأن اللغة العربية هي لغة القرآن ، لها أدبها ومقوماتها ولها كيانتها الدينية واللغة التركية لغة ليس لها من الشأن ما للعربية ، فإذا نجحت هذه الفكرة في تترك عنصر من عناصر الأقليات فلن تنجح عند العرب ولذلك ما كادت تظهر نياتهم للوجود حتى دب الانشقاق في الصفوف وانسحب جميع نواب العرب الذين كانوا معهم وانتموا إلى « حزب الحرية والائتلاف » الذي تأسس على قاعدة التآلف بين عناصر الامبراطورية جميعهم . لقد أخذ هذا الحزب يزاحم جمعية الاتحاد فخنقت عليه وظلمت تبرص به الدوائر حتى محته من الوجود قتلا وتهديداً .

تعاورت المصائب والكوارث على الدولة بعد إعلان الدستور ، فإن النمسا والمجر قد ضمت إليها البوسنة والهرسك في أكتوبر عام ١٩٠٨ وفي الوقت نفسه انفصلت بلغاريا وفي عام ١٩١١ اعتدت إيطاليا على ليبيا وبذلك فقدت الدولة طرابلس الغرب وبني غازي ، وفي عام ١٩١٢ اندلعت حرب البلقان وقد فقدت الدولة أثناء هذه السنوات جميع ممتلكاتها في أوروبا ماعدا تراقية الشرقية .

كذلك فقدت جزيرة كريت وجزر الدوديكان . وقد تبين للعرب أن تركيا قد ضعف كاهلها أن تحمل أمانة بلادها وبلاد العرب بعد أن عجزت عن حفظ الروملی الذي هو حصن الآستانة أمام البلقان

وفي عام ١٩٠٩ دعا ضباط العرب أهل الرأي والمشورة من أعضاء

جمعية الاتحاد والترقي للتفاهم وحسم هذا الخلاف الناشب بين أمتين
يربطهما تاريخ ومصالح مشتركة فقبِلوا الدعوة ولسكنهم لم ينتهوا إلا إلى
ما هو أسوأ . ولما لم يفد ذلك كله أخذ الشباب الوطني يدعوا إلى إيجاد
نظام جديد يسمى « اللامركزية » فهو أدعى إلى العمران مع إفساح المجال
لكل عنصر أن يدفع العوادي عن نفسه . ونشط العرب في هذه الناحية
لتأسيس النوادي والجمعيات والأحزاب ، ففي ١٩٠٩ تأسس المنتدى
الأدبي أسسه عدد من نواب العرب والكتاب والطلاب وكان يهدف إلى
غاية أدبية ، وقد ضمت إليه مكتبة ودار للضيافة وقاعة للمحاضرات ،
وقد أقام هذا المنتدى عدة حفلات وطنية حماسية . وأخذ يبيت الدعوة
لهذه الحركة ، وقد أغلقت الدولة في الحرب العالمية الأولى ، لقد كثرت
الأعضاء المنتمون إليه حتى بلغ مجموعهم الآلاف وأنشأ له فروعاً
في أنحاء البلاد . ومن ميزاته أنه ملتقى الوافدين العرب من أنحاء البلاد كافة .
وفي عام ١٩١٢ تأسس حزب « اللامركزية الإدارية العثمانية »
في القاهرة وهكذا أدت القاهرة واجبها بعد أن كانت مركزاً للقضاء على
حركة ابن عبد الوهاب ومن ثم القضاء على فكرة الخلافة العربية . وقد
تأسست له فروع في سوريا والعراق وكان يهدف إلى إقناع الدولة العلية
بضرورة حكم اللامركزية وتوجيه الرأي العام العربي إلى المطالبة بذلك ،
وقد ظهر الحزب لأول مرة جريئاً ووقف وجهاً لوجه أمام الاتحاديين ،
وقد جاء في المادة الثالثة من منهاجه : ليس هذا الحزب خفياً وليس فيه
ما يعد من الأسرار فهو ينشر مقصده المبني على المطالبة باللامركزية
الواسعة جهراً وعلانية دون الخشنة من أحد لا اعتقاده يقينا أن الدولة
لا تبقى في العالم السياسي إلا إذا بنيت حكومتها على أساس اللامركزية الإدارية .
وفي المادة الرابعة منه : إن الدخول فيه مباح لكل عثمانى بلغ
العشرين من العمر على شرط أن يكون أولاً من المتمتعين بجميع الحقوق

المدينة ، ثانياً : تغير محكوم عليه بحكم نخل بالشرف ، ثالثاً : غير مشتهر بسوء السيرة ، رابعاً : أن يقبل القواعد البيئية في برنامج الحزب .

وفي عام ١٩١٣ تأسست الجمعية الإصلاحية في بيروت وأقرت منهاجها في جلستها الثالثة المنعقدة في دار المجلس البلدى بإذن من الحكومة العثمانية يوم الجمعة الموافق ٣١ كانون الثانى من عام ١٩١٣ . وقد جاء فى مستهل هذا المنهاج : الحكومة العثمانية حكومة دستورية نيابية . ويتألف المنهاج من خمس عشرة مادة . جاء فى المادة السابعة منه : وتعين الحكومة المركزية مستشارين من الأجانب على شرط معرفتهم إحدى اللغات الثلاث العربية أو التركية أو الفرنسية للدوائر الآتية فى مركز الولاية وهى الجندرية والمالية (وتلحق بها غرفة التجارة) والبوسطة والتلغراف والجرى .

وجاء فى المادة الرابعة عشرة : إن اللغة العربية تعتبر اللغة الرسمية فى جميع المعاملات داخل الولاية وتعتبر أيضاً لغة رسمية كاللغة التركية فى مجلس النواب والأعيان .

وفى المادة الخامسة عشرة : تخفيض الخدمة العسكرية إلى سنتين وتقضى الخدمة أيام السلم فى الولاية . وتنزل قيمة البدل النقدى للنظامية إلى ثلاثين ليرة عثمانية وللدريف والاحتياط إلى عشرين ليرة .

لقد كانت المادة السابعة شديدة الوقع على رجال الدولة وذلك لما فيها من إفساح المجال لتدخل الأجانب فى شئون الدولة الداخلية ، أما ما جاء فى المادة الرابعة عشرة فهو نقطة حساسة طالما ارتجفت من ذكرها فرائص الاتحاديين ، لأنهم لا يريدون سماع كلمة اللغة العربية ، وهم الذين يعتقدون أنهم يحكمون البلاد العربية بالقوة والإدارة والأمة العربية تحكمهم بالثقافة ، لأن اللغة العربية هى لغة القرآن . أغضب

ما جاء في هذا المنهاج رموس الاتحاديين ، فأسرعت الحكومة إلى غلق الجمعية ، فأضربت المدن احتجاجاً على ذلك .

وفي البصرة تألفت جمعية البصرة الإصلاحية ، وهي لا تختلف في خططها وأهدافها عن أية جمعية عربية أخرى تأسست لمثل هذه الغايات في تلك الأيام .

كان لمطاردة الاتحاديين أحرار العرب ومقاومتهم لمناهجهم الإصلاحية أثر كبير في توسيع شقة الخلاف بين الأمتين وإلى اتجاه شباب العرب في سرية الأعمال وعلى ذلك تشكلت في تلك الفترة جمعيتان سريتان : الجمعية القحطانية وتمتاز بجرأة مؤسسيها وإقدامهم ووضوح مناهجهم واعترافهم بالواقع فقد أوضحوا في مناهجهم بأن تكون الدولة العلية ذات تاج مزدوج ، أى أن السلطان يضع على رأسه في الآستانة تاج المملكة العربية إضافة إلى تاجه التركي ، وتكون الدولة العربية من جميع المقاطعات العربية ، ولها مجلس نيابي خاص وإدارة محلية على غرار امبراطورية النمسا والمجر . لقد أدرك رجال هذه الجمعية أن الدعوة علناً إلى تحقيق هذا المنهج أمر مستحيل ، لأن ذلك مما ترتعد له فرائص غلاة الأتراك . فأتخذت سبيل السرية لها سبيلاً ووضعوا لأعضائها كلمة سر يتفاهمون بها كما أنها كانت تختار الأعضاء بدقة وحذر وكان زعيم هذه الجماعة الضابط المعروف عزيز على المصرى ، وكانت تسعى لكسب ضباط العرب في الجيش التركي . كان زمام هذه الجمعية قد أفلت من يد مؤسسيها ، لأن أحد الأعضاء من الذين كانوا لا يؤمنون بذلك أفشى سر الجمعية بخاف الأعضاء على أنفسهم فأهملوا الجمعية وتركوها تتلاشى من الوجود : ظلت هذه الفكرة تتردد في ذهن زعيمها عزيز على حتى صمم على تأليف جمعية أخرى على غرارها وبذلك تم تشكيل جمعية العهد واقتصر في أعضائها على الضباط العرب فقط ولما كان عدد العراقيين في الجيش التركي كبيراً

حسارت كثرة الأعضاء لهم في هذه الجمعية وأسسوا لها فرعين في الموصل وبغداد . كانت هذه الجمعية شديدة في سريتها شدة جمعية « الفتاة العربية » وقد بذلت كلتا الجمعيتين جهوداً جبارة في سبيل استقلال البلاد العربية ولم تدر إحداهما بالأخرى وقد تلاقتا في دمشق عام ١٩١٥ ووحدتا جهودهما لإعداد الثورة .

أما الجمعية الثانية فهي جمعية « العربية الفتاة » أسسها في باريس عام ١٩١١ فريق من طلاب العرب الذين كانوا يدرسون هناك وكانوا كلهم من المسلمين وقد أخذ عملهم في هذه الجمعية سبيل الجد والسكران والحذر فكانوا لا يضمون إليهم أحداً إلا بعد أن يمر بتجربة طويلة يتبينون فيها صدق عهده . وكان منهاج هذه الجمعية تخليص العرب من الحكم التركي واستقلال البلاد العربية عن أى سلطة أجنبية . ولما أتموا دراستهم وعادوا إلى بلادهم انتقل مركزها إلى بيروت وقد لعبت دوراً مهماً في الحركة العربية وقد نمت هذه الجمعية نمواً سريعاً وبلغ مجموع أعضائها مائتين . وقد بلغ من حرصهم على العهد وكتان السر أن حاول أحدهم الانتحار وفضل الثانى المشقة لشدة ما عذب جسمهما في سبيل الاعتراف . لقد كان هدف هذه الجمعيات التي تأسست يرمى إلى المطالب الآتية : (وهذه المطالب تختلف قوة وضعفاً حسب طبيعة الجمعية وطبيعة أعضائها) :

- ١ — الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية .
- ٢ — اشتراك أكبر عدد من العرب في تدوير شؤون المملكة .
- ٣ — تسهيل قانون التجنيد الإجبارى « أى إبقاء الجنود العربية في بلادهم أثناء السلم وتخفيض البدل النقدي » .
- ٤ — تحقيق اللامركزية .

وكانت هناك آراء مختلفة في توضيح العلاقة بين الدولة العثمانية وبين رعاياها من العرب . فقد ساد رأى في إيجاد خلافة عربية تقوم مقام

الخلافة التركية ، وحملت هذا رأى العرب المسلمون المشتقون ثقافة إسلامية ويمثلهم السيد عبد الرحمن السكواكي .
ورأى يقول بإبقاء الخلافة في آل عثمان ويرمى إلى وحدة إسلامية شاملة ويمثلهم السيد جمال الدين الأفغانى .
ورأى متطرف يرمى إلى استقلال البلاد العربية وتخليصها من حكم الأتراك ومن أى سلطة أجنبية ورأى يقول بإبقاء البلاد العربية مرتبطة بالدولة العلية بنظام اللامركزية .
وهناك رأى متطرف آخر لعبت فيه الدسائس الأجنبية وهو القائل بوضع البلاد العربية تحت حماية دولة أجنبية وقد مهدت لهذا رأى دولتا فرنسا وبريطانياً (١) .

المؤتمر العربى الأول

في ٤ نيسان من عام ١٩١٣ وجه شباب جمعية « الفتاة العربية » كتاباً إلى اللجنة العليا لحزب اللامركزية في القاهرة وإلى الجمعيات الأخرى العربية يدعونهم فيه إلى حضور مؤتمر غايته البحث في التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الوطن من الطوارئ وإصلاح أمور البلاد على أساس اللامركزية ، وأن تدور أبحاث المؤتمر حول الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال وحقوق العرب في المملكة العثمانية وضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية والمهاجرة من سوريا وإليها .
وفي ١٤ نيسان أجابت اللجنة العليا لحزب اللامركزية بالقبول .

فحضر مندوبون عنها وعن الجمعيات الأخرى ومندوبون عن سوريا والعراق والجزايات العربية القاطنة في الولايات المتحدة وكان عدد الأعضاء الرسميين ٢٤ عضواً . وحضر عدد كبير من المستمعين العرب وفي اليوم

الأخير فتحت أبواب المؤتمر لجميع الزائرين أما لماذا عقد المؤتمر في باريس فقد أوضحه السيد عبد الحميد الزهراوى بقوله : إن حوادث بيروت الأخيرة في اضطهاد الجمعية الإصلاحية وسجن فريق من أعضائها برهنت لنا على قدر الحرية التي يمكن أن يتمتع بها مؤتمر يعقد في سوريا وقد رأينا من جهة أخرى أن نسمع مطالبنا ونفهم رأينا أوربا التي تزداد مصالحها أهمية في البلاد العثمانية يوماً بعد يوم ، وفضلنا باريس على غيرها من عواصم أوربا لأن الجالية العربية فيها أكثر عدداً منها في سائر العواصم وانعقد المؤتمر في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية بشارع سن جرمان في باريس يوم الأربعاء ١٨ حزيران عام ١٩١٣ ودام إلى اليوم الثالث والعشرين منه . وكانت مناقشاته في غاية من الصراحة والجرأة وهو في مقرراته لم يخرج على مبادئ حزب اللامركزية . وهذه أهم مقرراته :

١ - من المهم أن يكون مضموناً للعرب التمتع بحقوقهم السياسية وذلك بأن يشتركوا في الإدارة المركزية للدولة اشتراكاً فعلياً .

٢ - يجب اعتبار اللغة العربية في مجلس النواب العثماني .

٣ - أن تكون اللغة العربية رسمية في البلاد العربية .

٤ - تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية إلا في الظروف التي تدعو إلى الاستثناء الأقصى .

٥ - يجب أن تنشأ في كل ولاية عربية إدارة لامركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها . وهذا أهم ما جاء في هذا المؤتمر .

وأضعف ما جاء فيه حول اللائحة التي قدمتها ولاية بيروت التي تقوم على مبدأين أساسيين ، أحدهما توسيع سلطة المجالس العمومية وثانيهما تعيين مستشارين أجانب . وفي هذا المبدأ الأخير يتضح مبلغ تلاعب فرنسا في الأمر .

واختتمت القرارات بماحق جاء فيه : ستكون هذه القرارات برنامجاً سياسياً للعرب العثمانيين ولا يمكن مساعدة أى مرشح فى الانتخابات التشريعية إلا إذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه .

ما كان المؤتمر شديداً فى مطالبه وما كان المؤتمر يريدون الانفصال عن جسم المملكة العثمانية وجل ما كانوا يريدونه إصلاح شامل يتناول الدولة العليا وفى ضمنها البلاد العربية التى ستظل مخصصة للسلطان فتد جاء فى خطاب عبد الحميد الزهراوى عند الافتتاح : إن العرب كانوا قد ألغوا الترك وهؤلاء قد ألغوا العرب وامتزج الفريقان امتزاجاً عظيماً مضى عليه أكثر من عشرة قرون ولكن لما مزجت بينهم السياسة فرقت بينهم السياسة أيضاً ولم يبق من ذلك الامتزاج القديم إلا رابطة بين بعض العرب وبعض الترك وهذه الرابطة لا تزال تعد ثمينة عند الترك العثمانيين والعرب العثمانيين معا ، ولكنها مع عزتها فى نفوس الفريقين قد أصبحت مهددة بالسياسة أكثر مما كانت من قبل ومعلوم أن السياسة فى هذه المملكة بيد الترك ، ولذلك تعرفها أوروبا بأنها حكومة الترك ، فلما رأى العرب ما وصلت إليه هذه المملكة بتلك السياسة التى مضى عليها العمل حتى الآن وكانوا حريصين على البقية الباقية من تلك الرابطة تذهبوا إلى واجب عظيم كان الترك والعرب جميعا غير مهتمين به كما ينبغى ، وهو اشتراك الفريقين بسياسة البلاد ، فإنه قد تبين واضحاً أنه لا العرب انتفعوا ببراءتهم من ذنب إضاعة البلاد ، ولا الترك انتفعوا بتحملهم تبعه ذلك العبء الثقيل ، وبديهي أن هذا الاشتراك لا ينافى الإخاء بل الذى ينافى هو عدم الاشتراك .

وجاء فى خطاب اسكندر عمون : « توهم بعض أنصار النظام المركزى من إخواننا الأتراك أن الغرض من النهضة العربية الانفصال عن الدولة وهو أمر بعيد عن الصحة ، فإن الأمة العربية لا تريد إلا استبدال شكل

الحكم الفاسد (الذي كاد يودى بالدولة) بالحكم الذي يرتجى منه وسعداء الصلاح والنجاح لنا ولهم وهو الحكم على قاعدة اللامركزية . ولو كانت الهيئة الحاكمة اليوم من صميم قریش لسكان موقفنا معها نفس موقفنا هذا .

أفزع المؤتمر جماعة الاتحاديين ورءوا فيه خيانة كبرى وجراءة من العرب ، فحاولوا بطرق شتى إحباطه ، فطلبوا من فرنسا عدم السماح بعقدته في باريس ، وعصبوا الجرائد والمجلات ورجال الدين وبعض الوجهاء من البلاد العربية لاستنكاره واحتساب القائمين بأمره من الخارجين على الخلافة والسلطان . فباءت محاولاتهم بالفشل ولم يروا بداً من مواجهة الأمر الواقع فأرسلوا سكرتير جمعية الاتحاد والترقي إلى باريس للاتفاق مع المؤتمرين الذين كان مؤتمرهم يمثل الأحزاب العربية والجمعيات فاتفق معهم على أمور لم تنفذ منها الدولة إلا اليسير مما دل على أن الإيفاد كان لعبة أراد الاتحاديون أن يكسبوا الوقت من ورائها ويماطلوا في الأمر ثم لا يجيبون رغبة . لقد صدق العرب كلام موفد الاتحاديين وأرسلوا ثلاثة أعضاء منهم لتنفيذ الاتفاقية . واستقبل هؤلاء الأعضاء في الاستانة استقبالا منقطع النظير ورحب الفريقان من عقلاء الأتراك والعرب بهذه الظاهرة التي تؤدي إلى الإخاء والوفاق ، ثم تمخض ذلك كله عن التصريح الآتي من قبل الحكومة الاتحادية :

١ — أن يعهد في إدارة الأوقاف الموقوفة على عمل الخير المحلي بحسب شروط الوقف إلى مجالس الجماعات في الولايات وذلك بموجب قانون جديد يشر قريباً .

٢ — أن تكون الخدمة العسكرية في زمن السلم في دائرة التفتيش إلا إذا رأت الحكومة اسبب ما حشد قسم من الجنود في جهة من الجهات فترسل العسكر على الطريقة النسبية إلى الولايات البعيدة كالين والحجاز وعسير ونجد .

٣ — أن يكون التدريس باللغة العربية في جميع مدارس الولايات التي تتكلم أكثرية سكانها هذه اللغة وذلك لتوفير أسباب المدينية التي تحتاج إليها في الحال والاستقبال .

واقصر على ذلك في المدارس الرشدية والابتدائية أما في المدارس الإعدادية فيجب أن يستمر التدريس باللغة التركية . وقد تجاهل هذا القرار الرسمي من الدولة جميع ما بقي في قرارات مؤتمر باريس ولم يشر إليه . فكان صدمة قوية دهش لها العرب المشتغلون بالقضية العربية والواقفين على بواطن الأمور وكان خطوة موفقة عند البعض الآخر الذين كانوا يظنون بالاتحاديين خيراً ، فقد أقتنعهم الاتحاديون بأن الدولة سائرة على تنفيذ خططها فصلاً فصلاً ، إذ لم تتمكن من نشرها مرة واحدة في الصحف لأن ذلك يثير بعض العناصر الأخرى في الدولة للمطالبة وتفتح أبواب لا مجال لسدها . وما زال الاتحاديون يفتلون بين الذروة والغارب حتى استطاعوا أن يكسبوا الوقت ويهيئوا أنفسهم لملاقاة العرب . فقد أبعادوا الفرق العربية وأبعدوا ما يقرب من أربعمائة ضابط عربي من الأستانة إلى قلب الأناضول وتراقية وشبه جزيرة غليبولي وعلموا أن الجو خلا لهم . وبذلك نام مشروع قرارات مؤتمر باريس نومة أبدية .

القبض على عزيز على المصري ونتائجه

وجد الاتحاديون في هذا الضابط الجريء قوة هائلة فأرادوا القضاء عليها والتخلص منها وظنوا أن الجو قد صفا لهم بإبعاد الضباط العرب عن الأستانة فدبروا له مكيدة ، وبينما كان خارجاً من الفندق تقدم إليه ثلاثة من رجال البوليس الملكي ودعوه إلى مركز البوليس ، فلما ذاع الخبر بين الناس وعلموا بالقبض عليه قام إخوانه من العرب وقعدوا لهذا الأمر وتوجهوا إلى مركز البوليس يستفسرون فكان جواب المأمور

أنه لم يسجن وإنما طالب منه الإجابة على أمور معينة وسوف يطلق سراحه في الحال . ولما لم يتحقق ذلك قصد أحد ضباط العرب إلى الزهراوي وقال له أبلغ الحكومة التركية : « إن دماءنا نحن العرب يجب أن تحفظ للدفاع عن الوطن فلا تضطربنا إلى إراقتها في سبيل الأفراد » .

لم تجد محاولات العرب نفعا وقدم عزيز على بتهمة الخيانة لمناقضة أفكاره وآرائه لمصلحة الدولة العثمانية : ذلك أنه سعى لإنشاء دولة عربية مستقلة عن الدولة في ليبيا ، وأنه أخذ رشوة من الإيطاليين مقابل تسليم البلاد إليهم ، وأنه عدو لرجال الاتحاد ومالي ذلك من التهم التي كان عزيز على بعيداً عنها . لقد عرف عزيز بقوة الشكيسة والرجولة تخرج من مدرسة الأركان بتفوق وعين في هيئة أركان حرب الجيش الثالث في مقدونيا وانتسب إلى جمعية الاتحاد والترقي واشترك بالزحف على العاصمة في ثورة ١٩٠٨ ولما أدرك أن سياسة الاتحاديين ترمي إلى مقاومة الحركة العربية نفى يده منها . وأسس هو وزميله سليم الجزايري الجمعية القمحطانية ، ثم جمعية العهد اللتين مر بنا ذكرهما . ولما نشب الخلاف بين الدولة واليمن أرسل عزيز على إلى إمام اليمن ونجح في إقناعه بتسوية الخلاف بينه وبين الباب العالي . وقد أحرز انتصار باهراً في ليبيا على الإيطاليين بالرغم من قلة ذات اليد وقلة العدة وكانت معركة ١٦ تموز التي انتصر فيها على الطليان من أكبر المعارك من الوجهة الحربية ووصفتها بعض صحف الغرب أنها تشبه معركة « كان » التي انتصر فيها هنبال على الرومان . شاع في الأوساط أن عزيز على قد حكم عليه بالإعدام بعد هذه الاتهامات والمحكمة الخيالية ثم تأكد ذلك فقامت دنيا العرب وقعدت لهذا الحادث الجلل وتواردت الاحتجاجات من جميع أنحاء البلاد العربية وشكلت لجنة برئاسة شيخ الأزهر للدفاع عن هذا الخطب وذهبت وفود عديدة

إلى اللورد كتشنر في القاهرة ، وتظاهرت الجهود من جميع الجهات حتى خفف حكم الإعدام إلى الحبس الشديد والأعمال الشاقة لمدة خمسة عشر عاماً . كانت نتيجة هذا العمل أن تحركت مشاعر البلاد العربية وتقاربت آراؤهم في دفع الأخطار واستقر الرأي على المضي في السكفاح إلى النهاية فقد كانت قضية عزيز المصري قبساً أنار شعلة في النفوس ظلت تلتهب حتى اندلع لهب الثورة العربية .

العرب والآتراك عند اندلاع لهيب الحرب العالمية

رضى العرب بهذا القليل الذي صدرت به الإرادة أثر الاتفاق الذي بعثه مؤتمر باريس واقنعوا بعود الاتحاديين ومدوا يد المعاونة إلى إخوانهم الآتراك في ظلال الهلال العثماني وبذلوا جهوداً جبارة قبل المؤتمر وبعده لإيجاد الطمأنينة والسكينة في قلوب العرب في كل مكان ، فقد استطاع عزيز على المصري القائد المعروف أن يقنع الإمام يحيى بتسوية كل خلاف بينه وبين الدولة ، واستطاع السيد طالب النقيب رئيس جمعية الإصلاح في البصرة أن يوفق بين رغبات الباب العالي وآل سعود في نجد . كما كان الإدريسي في العسير مستعداً لإجابة أى رغبة يريد بها السلطان . أما في العراق وسوريا فقد كانت الحركة والسكينة منوطتين بتوجيه الأحزاب السياسية والجمعيات وجل أعضائها موجودون في الآستانة على صلة تامة بالدولة وبرجال الاتحاد وقد رضوا مبدئياً بهذه المنحة من الإصلاحات في البلاد العربية .

وفي الحجاز كان الهدوء شاملاً وسلطان الخليفة مستقراً وكاد يكون مطلقاً لولا وجود الشريف حسين بن علي حينذاك الذي أعاد لهذا المنصب مقامه الرفيع ، أنه بسط نفوذه على جميع القبائل الجاورة وتعداه إلى أبعد من ذلك ولما قويت شوكة الاتحاديين أرادوا أن يسلبوا الحجاز ميزات

فأعلنوا أنه يجب خضوع الحجاز لنظام المملكة المركزية وأرسلوا إليه
والياً قوى الشكيمة فنفر شريف مكة من هذا التصرف واضطر الاتحاديون
أن يأمرُوا الوالى بمصانعة الشريف .

وفى كتاب المرحوم عبد الكريم الخليل إلى أحد أصدقائه بتاريخ
٦ أغسطس عام ١٩١٤ دليل واضح على نية حزب اللامركزية .
وعما جاء فيه :

د أيها العزيز : أنا على وشك السفر إلى سوريا لأن التدابير التى اضطرت
حكومتنا السنية إلى اتخاذها درءاً لخطر الحرب العظمى تقضى على كل
عثمانى مخلص لدولته وأمته أن يبذل جهده فى سبيل تنفيذها على أحسن
مايرام ، وستكون مهمتى فى سوريا جمع كلمة الأمة على شد أزر الحكومة
والسعى لمنع كل مايحتمل وقوعه من أسباب النفور بين العناصر العثمانية
وقد وعدتني الحكومة بأن تشد أزرى فى هذه المهمة وتجيبنى إلى كل
المطالب العادلة التى أطلبها منها باسم الأمة العربية أو باسم الأفراد من
أبنائها ، فلنكن كلنا يداً واحدة لإنقاذ الدولة من عواقب الحرب الأوربية
وإظهار الوحدة العثمانية بأتم مظاهرها لنتمكن من منع اعتداء الدول
الغربية علينا والخروج من هذه الأزمة الحرجة أرفع شأننا وأعلى مقامنا .
وجاء فيما كتب المرحوم سليم الجزائرى إلى أحد أصدقائه السياسيين
فى ١٥ يناير عام ١٩١٤ :

عزيزى لقد أخلصنا للاتحاديين فلا مجال للشك فى إخلاصهم لنا ،
نعم إن الاتفاق الذى أبرموه مع الزهراوى وعبد الكريم لايسعدنا
وليس فيه كل ما نحتاج إليه . . . ثم قال إن الحالة السياسية حرجة جداً
أيها العزيز فبقدر مايسى الاتحاديون إلينا يجب أن نحسن إليهم حرصاً على
كيان هذه الدولة المنكودة الحظ . .

وكتب المرحوم مختار بيهم إلى أحد أصدقائه في مصر في ٢٦ أكتوبر عام ١٩١٤ قبل دخول الدولة بأيام معدودات ، أخى العزيز :
يخيل إلى أن الحرب واقعة لا محالة بين الدولة العلية ودول الحلفاء ،
والأمل عظيم جداً بأن تكون حرباً قومية ظافرة تعوض الدولة من
الخسارة التي منيت بها في السنوات الأخيرة وترفع شأن العثمانيين في نظر
العالم ، وقد ألغينا أحزابنا السياسية وتناسينا اختلافاتنا الداخلية لأن
المصلحة المشتركة تقضى بذلك وسوف يرى إخواننا الترك . ولا سيما
الاتحاديون من أعمالنا في هذه الحرب ما يظهر لهم إخلاصنا للعرش العثماني
وتفانينا في خدمة الوطن المشترك .

كانت موجة القومية التي عمت أنحاء أوروبا قد طغت على الشرق
فجرفت الأقوام التي كانت تتألف منها الامبراطورية العثمانية ، ومن
العجيب أن تصل هذه الروح ذروتها عند غلاة الاتحاديين الأتراك ،
لقد اعتنقوا هذه الفكرة عن إيمان منقطع الظير ، وصولجان الحكم
في أيديهم والدولة دولتهم وهم يرون بعيونهم كيف فرت أقوام البلقان
بالقوة والشدة من بين أيديهم ولم يبق معهم في القوة والأخوة إلا الأمة
العربية التي كانت تجتمع معهم في أجداد التاريخ الإسلامي ووشيجة
العقيدة والتي كانت تؤمن بإطاعة الخليفة ، خليفة المسلمين . وقد كان يكون
من المنطق الواضح أن تتضح هذه الحقيقة عند الاتحاديين بيد أنهم
تركوها ولم يستغلوها ، وأخذوا يعملون على تحطيمها ، وقد لعبت اليهودية
العالمية وأوروبا المنتظرة إرث الرجل المريض الراقد على ضفاف البسفور
دوراً هائلاً في إذكاء الحقد بين الأمتين فإن الأتراك كانوا حكام
الامبراطورية يعتقدون أن السلطة حق من حقوقهم وأن ما يقدمونه
للعرب في مشاركتهم ما هو إلا منحة ، ولذلك يغيظهم كل ما يطلبه العرب
من حق ، أما العرب فإنهم يعتقدون أن الدولة دولة العقيدة الإسلامية التي

نشرت فيها الأمتان وتداخعا منها ، وأن أوروبا الثائرة على الرجل المريض واليهودية العالمية الساخطة لم تسكيدا كيدهما إلا من أجل تحطيم العقيدة وإضعاف هذه القوة النابتة في الشرق والحارسة على طرق المواصلات بين الغرب والشرق المالكة لبقاع خصبة وأسواق عالمية ثرية .

وأن هذه الخصوبة وهذه الاستراتيجية ما هي إلا في بلاد العرب ؛ فمن حق العرب أن يشتركوا اشتراكاً فعلياً في الحكم والدفاع عن بلادهم خاصة بعدما ظهر لهم من ضعف الدولة في تنظيم شئونها . هذه كانت نظرية العرب وعلى هذه الأسس تقدموا في مطالبتهم .

ملأت القومية رموس الاتحاديين فكبر عليهم أن يجدوا لهم منافساً في الدولة فوضعوا خططهم لتتريك العرب وأنشؤوا جمعية « ترك أوجاغي » وهدفوا من وراء ذلك إلى بث روح القومية في أبناء الترك وإرجاعهم إلى أصولهم الأولى حتى ولو إلى الوثنية الطورانية ومن ثم التخلص من العقيدة الإسلامية ومحوها وإدماج العناصر التي تتكون منها الإمبراطورية في هذه الطورانية المنتظرة وجعلوا لهذه الجمعية وظائف مقسمة على أجناسها الأربع وتنحصر في العناية بالآداب التركية والرجوع إلى أصولها مع الخلاص من دخيل اللغة العربية وغيرها من اللغات وتأليف الكتب القومية بهذه اللغة الجديدة ، ومقاومة كل كاتب تركي لا يرى هذا الرأي ، والعمل على نشر هذه الفكرة بالتأليف وتدريس الناشئة التاريخ الطوراني وإفهامهم أن الشعب التركي أعظم شعوب العالم اختارته القدرة الإلهية لسيادة الأمم فيجب أن تسود قوميته وتمحى القوميات الأخرى وتدبج فيه ولتحقيق ذلك يجب أن تؤلف كتب الضرور القومي وتندشر بين الشعوب التركية في أنحاء العالم أينما وجدوا وربطهم جميعاً بعجلة الاتحاديين وأن تعنى هذه الجمعية بتربية الناشئة وتقوية أجسامهم لإيجاد جيل جديد صحيح الجسم والعقل . وأسسوا لهذه الجمعية النوادي وفرعوا

لها الفروع وأمدوها بالمال لتعفى بوضع كتب التاريخ والتراجم عن أسلافهم الأول أمثال هولاء كو وجنكيز خان وتيمورلنك وأوغوز وبدءوا في تنفيذ ذلك بأن غير الغلاة منهم أسماءهم العربية وتسموا بأسماء طورانية منتزعة من التاريخ القديم وحرموا على غير الترك دخولها . وزادوا على ذلك بأن أدخلوا هذا التاريخ في المدارس العالية . فكانت هذه الحركة حركة استفزاز لبقية الشعوب والعناصر التي يظلمها السلم العثماني وخاصة الأمة العربية التي تكون الأكثرية العظمى في هذه الدولة فقد كان الهجوم موجهاً ضد تاريخ الأمة الإسلامية وضد العقيدة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم . ما صير العرب على هذا النحدي بل أعلنوا سخطهم وشددوا أزر بعضهم بعضاً . وتراپطت الجمعيات وعقدت العزم على إصلاح الحال في أى وسيلة من الوسائل فإن بقاء الأمور معلةمة مما يؤدى إلى هلاك الدولة التي يتكون منها العنصران الكبيران العربى والتركى . وكانت الحرب العظمى الأولى حداثاً فاصلاً بين هذا الاصطراع .

أعلنت الحرب ولم تكن الدولة العلية داخله فيها وكان يكون من الخير لها أن تبقى محايدة وتشدد أزر العرب وتتفاهم معهم لتستفيد من غفلة أمم الغرب فى حروبها الطاحنة فتتقوى نفسها وتعيد شبابها وتملى إرادتها على الأمم . ولكن مطامع الاتحاديين وطيشهم أجبرا الدولة على خوض معارك هذه الحرب الضروس فلما أعلنت تركيا الحرب فى جانب الألمان وقف العرب وقفهم المعروفة ونسوا جميع أخطاء الاتحاديين ووضعوا أيديهم بأيديهم فلانت شدة الاتحاديين ورءوا أنفسهم فى حاجة إلى عون العرب فتقربوا منهم واسدلوا على الماضى القريب ستاراً وعينوا للجىوش العربية المرباطة فى سوريا قائداً عربياً وجعلوا له أعواناً من ضباط الجىوش التي كان يقودها الضباط العرب وعاملوا السوريين

والسراقيين معاملة حسنة نخاض هؤلاء القواد الميادين بشجاعة وإخلاص
وجند شباب العرب فاستشهدوا دفاعاً عن الوطن وحماية العقيدة وأبوا
بلاء حسناً وألفوا جميعياتهم وأحزابهم السياسية وساهمت الأمة العربية
بمخضرها وريقها في تموين الجيوش في الميادين حتى قطع الناس لقمة
الميش من أفواههم وسلبوها للدولة طوعاً أو كرهاً فتولد عن ذلك
غلاء فاحش واحتكار منكر بعث الجوع والهلاك وهام الناس على
وجوههم يتخطفهم الموت من كل مكان وكان أشد هذا البلاء منصباً
على البلاد السورية . هكذا مشيت الحال في بدء الحرب ولكن الاتحاديين
لم يتركوها تسير كما هي بل عادو سيرتهم الأولى وأخذوا يسبثون الظن
بالعرب وكان أول ما فعلوه أن نقلوا القائد العربي الفريق زكي باشا الحلبي
الذي كان يقود الجيوش المرابطة في سوريا وعينوه في منصب آخر
بعيد عن ميادين القتال وأحروا مكانه القائد التركي الاتحادي المعروف
جمال باشا السفاح الذي كان وزيراً للحربية في الوزارة التركية وقد انتخب
قائداً على الجيوش المرابطة في سوريا ليقود الحملة المنتظرة يفتح بها مصر .
وصل جمال باشا إلى سوريا بعد سبعة أشهر من إعلان الحرب وقد خولته
الدولة سلطة واسعة ، فانتهز الفرصة وأعلن الأحكام العرفية التي وضعته
بموضع الحاكم بأسره في سوريا .

وقد أظهر ميلاً شديداً في حبه للعرب وتظاهره بالكراه الشديد
للاتحاديين . وكان يقال عنه إنه لا يميل إلى الطورانية كما كان زملاؤه
من الاتحاديين بل كانت نزعته نزعة إسلامية ، ومشيت هذه الخدعة على
الناس وتقرب بها من العرب واستمال الأحرار من رجال سوريا
والعراق يستشيرهم وينفذ رغائبهم واطمأنوا إليه وشرع يقتل بين الذروة
والغارب وكان أول ما فعله معهم أن حمل بعض المقربين إليه والذين
اتخذهم وساطة التفاهم على إقناع بعض ضباط العرب بتسليم وظائفهم

عالية ملكية وعسكرية وارسال قسم منهم إلى الحدود لحاجة الدولة إليهم ، ثم ما لبث أن أغلق أبواب مدرسة صف الضباط وكان فيها ما يزيد على خمسمائة طالب عربي وزاد في خدعته أن وقف مرة خطيباً في حفل تكريم لبعض رجال العرب فقال :

« يجب عليكم يا أبناء العرب أن تحيوا مكارم أخلاق العرب ومجدهم منذ شروق الديانة الأحمدية ، أحيوا شهامة العرب وآدابهم حتى التي وجدت قبل الإسلام عضواً على عربيتكم بالنواجذ ، ودافعوا عنها بكل قواكم اعملوا على ترقية العرب والعروبة وجددوا مدنيتكم ، قوموا قناتكم ، كونوا رجالاً كاملين » . ثم قال :

وإني أناشد الشباب العرب والترك قائلاً : « إن هذين الشعبين مقضى عليهما بالفناء في اللحظة التي يتخاذلون فيها ، فالنزاع والخلاف بين عمودي الإسلام لا بد أن يؤدي إلى سقوط ذلك الدين ويومئذ لا مفر من الوقوع تحت نير الاستعمار السلافي » .

أبعد هذه الخطبة شيء يشك فيه العرب ؟ ولكن جمال لم يكف ينتمى من هذه الخطبة حتى أخذ ينقد خططه خطة بعد خطة كأنما هذه الخطبة وأمثالها من المظاهر كانت بمثابة المخدر يخدر الطبيب فيه الجسم ليبدأ عمل المشروط . والحقيقة التي لا مرية فيها أن الجانبين كان يجد في سوء الظن عصمة . وفي حسن الظن ورطة ، فإن الاتحاديين بعد أن أثاروا النعرات القومية وبعد أن وجد منهم العرب ما وجدوا صاروا لا يطمئنون إلى العرب ويعتقدون أن ما تركوه في نفوسهم ليس من السهل إزالته بوعود . وأما العرب فإنهم أصبحوا لا يعتقدون بأقوال الاتحاديين ووعودهم وخطبهم أياً كانت . إنهم يرون بلادهم أصبحت هدف المطامع وأنها ستكون ميدان حرب وفعلاً قد أخذ الخلفاء ينقصونها من أطرافها

وتركيا عاجزة عن الدفاع ، زد على ذلك الدعايات التي يقوم بها الحلفاء ،
والأيدي اليهودية الخفية التي تلعب بالحلفاء ، ووعود فرنسا للموارنة
في لبنان وإقبال هؤلاء على فرنسا وارتماؤهم في أحضانها للخلاص
من الحكم التركي بأى وجه كان ، كل ذلك زاد العلاقات توتراً
ووقف كل فريق ينظر إلى صاحبه نظر المستريب ، استطاع جمال باشا
إبعاد الضباط العرب إلى خارج بلادهم وأرسل فرقة من الجيش العربي
إلى جنناق قلعة فأضعف قوة المقاومة وخلص له الجو ، وهياً حملته التي
ساقها إلى قناة السويس ليجتليها في اليوم الثاني من شباط عام ١٩١٥ ،
ولكنه عاد إلى دمشق مغلوباً على أمره لقلة معداته ولعدم استعداده
فأبدى عندهما بأنه ما قام إلا للاستطلاع ، وترك وراءه بعض القوات
الصغيرة في سيناء لإشغال القوات البريطانية وأعلن أنه يعد العدة لتهية
حملة أخرى ، بيد أنه انصرف للانتقام من أحرار العرب ، فأمر باعتقالهم
وأدخلهم السجن ثم عقد لهم « محكمة عسكرية » في عالية وحوكموا محاكمة
خيالية فأدانت الفريق الأول وأصدر ديوان الحرب قراراً بإعدامهم ، وفتح
الناس عيونهم في بيروت صباح يوم ٢١ أغسطس من عام ١٩١٥ على جثث
أحد عشر حراً من أحرار العرب معالقة في أعواد المشانق . واستمر
جمال في إرهابه وبطشه فألقى بهؤلاء الزعماء الآخرين من خيرة رجال
العرب ، فقد أصدر ديوان الحرب في « عالية » من أعمال بيروت قراراً
 بإعدام البقية الباقية ، وفتح الناس عيونهم في دمشق على سبع مشانق
وفي بيروت على أربع عشرة مشنقة في صبيحة يوم ٦ ميس من عام ١٩١٦
كان من بينهم عبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوى والشيخ أحمد
طباره وجر جي الحداد وشكري العسلى ومحمد الحمصانى وأخوه محمود ،
وقد استقبل هؤلاء الأبطال هذه الأراجيح برباطة جأش وعما قاله أحدهم
وهو المرحوم سعيد عقل : « غفر الله لمن ظلمنى ، وأسأل ربى أن يكون

دمى الذى يراق سبباً فى المستقبل حياة بلادى وشرفاً لعائلى وأولادى .
وقال المرخوم توفيق البساط : « مرحباً بأرجوحة الشرف مرحباً
بأرجوحة الأبطال مرحباً بالعمد التى تستند إليها الأمم فى استقلالها
مرحباً بالموت فى سبيل الوطن الحر . ولم يكتف جمال بهذه المأساة بل نفذ
أحكامه بالنفى والإبعاد فأبعد « ٣٠٠ » أسيرة من (سوريا وفلسطين ولبنان)
نساء ورجالاً وأطفالاً أرسلوا إلى الأناضول بعد ما صادر أملاكهم
وأموالهم . ونثرهم فى ولايات الأناضول وقراه كما ينثر الحب فى العراء
لقد استند جمال باشا فى أحكامه هذه إلى ما وقع بيده كما يزعم المؤرخون
أو كما يزعم هو فى مذكراته من الوثائق فى القنصلية الفرنسية وفى هذه
الوثائق ما يدين هذه الأسر وأولئك الأبطال . وكان كل ما جاء فى إدانته
أن فريقاً من هؤلاء أعضاء فى حزب اللامركزية ، كما يزعم أنه ثبت لديه
أن فريقاً من المواردنة وغيرهم من بقية الطوائف المسيحية قدموا طلباً
إلى حكومة فرنسا بواسطة قنصلها يطلبون فيه احتلال فرنسا لسوريا ،
واستقلال ولاية بيروت استقلال تاماً تحت حماية فرنسا ووصايتها ،
وإدماج ولاية بيروت فى لبنان الذى يكون تحت سيادة فرنسا الفعلية ،
وسواء أصبح هذا أم لم يصح فإن لفرنسا أطماع لم تفتأ تعمل على تحقيقها
فى سوريا وأن اليد اليهودية لم تفتأ تحرض على تحقيق هذه الأطماع .
وقد لعبت هذه الأيدي الخفية دوراً مهماً فى حملها هذا السفاح على التنكيل
بأحرار العرب . لقد كان أعضاء حزب اللامركزية يريدون إدارة خاصة
لكل إقليم من أقاليم الأمة العربية ، ولا يريدون انفصالاً عن الدولة
العثمانية أما المتطرفون من العرب فإنهم لا يرضون بالحرية بديلاً
ولا يخضعون لأى شرط يمس استقلال بلادهم .

أثرت حوادث إعدام الأحرار وترحيل الأسر إلى أواسط الأناضول
تأثيراً عميقاً فى العالم العربى والإسلامى فجزع لها شريف مكة وهو من

أكبر أمراء العرب نفوذاً لقد توسط لدى الاتحاديين بالدخول عنهم فأبوا وأصرروا على إعدامهم وزاده جزعاً ما أثارته حقيقة وميب باشا وال الحجاز من القلق في نفسه فقد ألفى في هذه الحقيقة خطأً تدل على إزالته من الوجود . يضاف إلى ذلك كله وجود جمعيات عربية في بلاد الشام منظمة تنظيمها محكما ترقب الأحوال وتطورها . وقد ملأ نفوسها التشاؤم ، فإن الدلائل جميعها تدل على أن تركيا لا تستطيع الاحتفاظ بمركزها لأنها ليست في مكانة تقدرها على محافظة هذه الحدود المترامية وقد دخلت الحرب على غير استعداد .

لقد أراد الأتراك من شريف مكة أن يعلن الجهاد المقدس فهو سليل بيت النبوة والمسلمون ينظرون إليه نظر الاجلال فتباطأ الشريف وأبدى الأعذار وتمهل في الأمر ، يرقب الحالة حتى بلغ الأمر من سوء الظن بين الاتحاديين مبلغاً لا يمكن التفاعم بعده . والحقيقة التي لا غبار عليها أن أحرار العرب بدءوا يشعرون بوجود إيجاد دولة عربية في هذا الشرق الأوسط وأن الفرصة حانت لتحقيقها ، وأن المقومات كلها موجودة لتكوين دولة عربية ذات كيان مستقل تعيش بين دول الأرض . على ذلك كله تقدم الحسين إلى الأتراك في تحقيق بعض من هذه الرغبة مع البقاء ضمن الدولة العثمانية فقد أبرق إلى أنور باشا :

« إن خروج الدولة العلية منصورة من الحرب الحاضرة يتوقف على اشتراك جميع العناصر العثمانية فيها ولا سيما العرب والجانب الأهم من القتال في بلادهم ، ويلوح لي أن إرضاء الشعب العربي يتوقف على مداواة قلبه الذي جرحه اتهام عدد كبير من أبنائه بتهمة سياسية مختلفة والقبض عليهم ومحاكمتهم أمام المحاكم العسكرية بالدواء الآتي : إعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين ، إنالة سوريا ما تطلبه من نظام لامركزي ، جعل إمارة مكة وراثية في أولادى وإبقائها على حالتها الحاضرة ، فإذا قبلت

هذه المطالب ، فاني اتعهد بحشد القبائل العربية بقيادة أبنائي في ميدان العراق وميدان فلسطين ، وإذا لم تقبل فأرجوكم ألا تنتظروا مني شيئاً سوى الابتغال للحق جل وعلا أن يهب للدولة النصر والتوفيق .

فرد عليه أنور أنه لا يوافق على العفو عن المتهمين وسينال كل عقابه وطلب من الشريف إرسال المجاهدين إلى ميادين القتال . متجاهلاً كل مطلب . وبذلك ازداد التوتر وأصبح إصلاح ذات البين بين الأمتين صعباً .

العرب والخلفاء

أدركت بريطانيا الخطر الذي يهددها من جراء ما قام به الألمان في ضم الترك إليهم ، ووجدت في هذا الحلف خطراً مباشراً يهدد الهند فلم تجد بداً من التقرب إلى العرب والتودد إليهم ، فهم الذين يكادون يسيطرون على هذه الطريق . لقد بسطت حمايتها على مصر ، وبسطت نفوذها على جنوب الجزيرة وجزر الخليج وعقدت معاهدات بينها وبين شيوخ القبائل هناك ولكنها ما زالت تنظر إلى قلب الجزيرة فإن الأتراك أربع فرق موزعة بين الحجاز وعسير واليمن . فكيف تضمن السلامة من هذه الناحية لقد استطاعت أن تستميل ابن سعود إلى جانبها بعد أن تردد في الأمر ولم نخش من الأدريسي في عسير ولكنها كانت تخشى الحامية التركية المؤلفة من فرقتين في اليمن فكيف تستطيع شل حركتها ؟ لقد وجدت أن الاتصال بالشريف حسين خير ضامن لتحقيق مآربها وكانت قبلاً قد اتصلت بالأمير عبد الله أحد أنجاله . فقد صادف أن مر بمصر في سفره إلى الأستانة في مفتتح عام ١٩١٤ وكان فيها كتشنر المعتمد البريطاني فزاره المعتمد ورد عبد الله الزيارة إليه . وقد أعلم الأمير المعتمد أن والده يسعى لاستقلال الإدارة في إمارته ، وأن التوتر بينه وبين الأتراك وصل حداً

قد يتذر بالشورة . وكان المستر ستورز السكرتير الشرقي في دار الاعتماد البريطاني حاضراً . لفتت هذه المحادثة ملاحظة كاتشنر فوجد فيها فائدة أهمها الحد من اندفاع الألمان والأتراك إلى فم الخليج العربي . ولما سألته أجاب الأمير إجابة مشبطة إذ قال له إن سياسة بريطانية التقليدية هي سياسة صداقة مع تركيا ولذلك فهو لا يتوقع أن تتدخل بريطانيا في حالة كهذه . ثم أتم الحديث بزيارة أخرى من المستر ستورز للأمير ، فأجاب ستورز بما يشبط العزم أيضاً وهكذا عاد عبد الله إلى الحجاز دون أن يعرف شيئاً عن نوايا بريطانيا . وفي خريف عام ١٩١٤ طلب من الأمير عبد الله أن يوضح موقف والده إذا أعلنت تركيا الجهاد المقدس ، فأخبر الجهة البريطانية أنه سوف يقف على الحياد ، عند ذلك أعلم بأن بريطانيا سوف تساعد على استقلال بلاده إذا اشترك معها في الحرب اشتراكاً فعلياً .

ومرت أشهر معدودات دون اتصال بين الجهة البريطانية والحجاز .

ثم حدث أن اتصل المستر ستورز مع الشريف فتداول معه الأمر بحضور بعض الزعماء من العرب الذين أفلتوا من بد جمال بالشام فاتفقوا على صيغة العرض الذي يقدمه الجانب العربي فكتب الشريف حسين في ١٤ تموز عام ١٩١٥ الكتاب الأول إلى نائب جلالة ملك بريطانيا بمصر ما نصه :

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم :

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر سلمه الله : أقدم لجنابكم العزيز أحسن تحياتي الودية واحتراماتي وأرجو أن تعملوا ما في وسعكم لتنفيذ المذكرة المرسلة إليكم طيه ، المتضمنة الشروط المقترحة المتعلقة بالقضية العربية ، وأود بهذه المناسبة أن أصرح لحضرتكم

والحكومة ، أنه ليس هناك حاجة لأن تشغلوا أفكاركم بآراء الشعب هنا ، لأنه بأجمعه ميال إلى حكومتكم بحكم المصالح المشتركة . ثم يجب ألا تتعبوا أنفسكم بإرسال الطيارات أو رجال الحرب ، لإلقاء المنشير . وإذاعة الشائعات ، كما كنتم تفعلون من قبل ، لأن القضية قد قررت الآن . وإنى لأرجو هنا أن تفسحوا المجال أمام الحكومة المصرية لترسل الهدايا المعروفة من الخنطة للأراضي المقدسة « مكة والمدينة » التي أوقف إرسالها منذ العام الماضي . وأود أن ألفت نظركم إلى أن إرسال هدايا هذا العام والعام الفات سيكون له أثر فعال في توطيد مصالحنا المشتركة وأعتمد أن هذا يكفي لإقناع رجل ذكى مثلكم ، أطال الله بقاءكم .

حاشية : أرجو ألا تزججوا أنفسكم بإرسال أى رسالة قبل أن تروا نتائج أعمالنا هنا . خلا الجواب على مذكرتنا وما تتضمنه ، ونرجو أن يكون هذا الجواب بواسطة رسولنا كما نرجو أن تعطوه بطاقة منكم ليسهل عليه الوصول إليكم عندما نجد حاجة لذلك والرسول موثوق به .

المذكرة الأولى

مكة في ٢ رمضان سنة ١٣٣٣ هـ (١٤ تموز سنة ١٩١٥) .

لما كان العرب بأجمعهم — دون استثناء — قد قرروا في الأعوام الأخيرة أن يعيشوا وأن يفوزوا بحريتهم المطلقة ، وأن يتسلموا مقاليد الحكم نظرياً وعملياً بأيديهم .

ولما كان هؤلاء قد شعروا وتأكدوا أنه من مصلحة حكومة بريطانيا العظمى أن تساعد وتعاونهم للوصول إلى أمانهم المشروعة وهي الأمان المؤسسة على بقاء شرفهم وكرامتهم وحياتهم ، ولما كان من مصلحة العرب أن يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا على أية حكومة أخرى بالنظر لمركزهم الجغرافي ومصالحهم الاقتصادية وموقفهم من حكومة بريطانيا . إنه بالنظر لهذه الأسباب كلها يرى الشعب العربي أنه من المناسب أن

يسأل الحكومة البريطانية إذا كانت ترى من المناسب أن تصادق بواسطة مندوبيها أو ممثليها على الاقتراحات الأساسية الآتية :

أولاً : أن تعترف انكثرة باستقلال البلاد العربية من مرسين — أدنة حتى الخليج الفارسي شمالاً ، من بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقاً ، ومن المحيط الهندي للجزيرة جنوباً يستثنى من ذلك عدن التي تبقى كما هي — من البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى سيدنا غرباً .

على أن توافق انكثرة أيضاً على إعلان خليفة عربي على المسلمين .
ثانياً : تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية انكثرة في كل مشروع اقتصادي في البلاد العربية إذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية .

ثالثاً : تتعاون الحكومتان الإنكليزية والعربية في مجاهدة كل قوة تهاجم أحد الفريقين وذلك حفظاً لاستقلال البلاد العربية ، وتأميناً لأفضلية انكثرة الاقتصادية فيها على أن يكون هذا التعاون في كل شيء في القوة العسكرية والبحرية والجوية .

رابعاً : إذا تعدى أحد الفريقين على بلاد ما ، ونشب بينه وبينها قتال وعراك فعلى الفريق الآخر أن يلزم الحياد ، على أن هذا الفريق المعتدى إذا رغب في اشتراك الفريق الآخر معه ففي وسع الفريقين أن يجتسما معاً ، وأن يتفقا على الشروط .

خامساً : مدة الاتفاق في المادتين الثالثة والرابعة من هذه المعاهدة خمس عشرة سنة وإذا شاء أحد الفريقين تجديدها عليه أن يطلع الفريق الآخر على رغبته قبل انتهاء مدة الاتفاق بعام .

هذا ولما كان الشعب العربي بأجمعه قد اتفق والحمد لله على بلوغ الغاية وتحقيق الفكرة مهما كلفه الأمر فهو يرجو الحكومة البريطانية أن تجيبه سلباً أو إيجاباً في خلال ثلاثين يوماً من وصول هذا الاقتراح .

وإذا انقضت هذه المدة ولم يتاق جواباً فإنه يحفظ لنفسه حرية العمل كما يشاء .

وفوق هذا فإننا نحن عائلة الشريف نعتبر أنفسنا إذا لم يصل الجواب أحراراً في القول والعمل من كل التصريحات والوعود السابقة التي قدمناها بواسطة على أفندى .

(٢)

من السير هنرى مالك ماهون إلى الشريف حسين

مصر في ١٩ شوال ١٣٢٣ هـ (٣٠ أغسطس سنة ١٩١٥ م) .

إلى الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار فرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية ، صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية ، السيد ابن السيد والشريف ابن الشريف السيد الجليل المبجل ، دولة الشريف حسين باشا ، سيد الجميع أمير مكة المكرمة ، قبة العالمين ومحط رجال المؤمنين الطائعين ، عمت بركته الناس أجمعين .

بعد رفع رسوم وافر التحيات العطرة والتسليمات القلبية الخاصة من كل شائبة أعرض ، أن لما الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الإخلاص والإحساسات نحو انكثرة ، وقد يسرنا علاوة على ذلك أن تعلم سيادتكم ورجالكم برأى واحد وعقيدة واحدة وهى أن مصالح العرب هى مصالح انكثرة ومصالح انكثرة هى مصالح العرب ، وأود بهذه المناسبة أن أؤكد لكم ما قاله اللورد كيتشنر فى الرسالة التى وصلتكم بواسطة على أفندى ، وهى الرسالة التى أوضح لكم فيها بصرامة رغبتنا فى استقلال البلاد العربية وسكانها وموافقتنا على أن يكون الخليفة عربياً عريق العروبة .

أما ما يتعلق بالحدود فقد يكون بحثنا فى مثل هذه التفاصيل — والوقت قصير والحرب قائمة — سابق لأوانه ، وخاصة أن تركيا

لا تزال تحتل قسماً كبيراً من الأراضي التي أشرتم إليها في اقتراحكم احتلالاً تاماً ، ثم يجب أن أضيف إلى ذلك ، أنني علمت بدهشة وألم أن بعض العرب في هذه الأقسام لا يرغبون في مساعدتنا ، بل يقدمون مساعدتهم الفعلية بالسلح الألمان والآتراك ، أعني ، للهدامين الجدد ، والظالمين القدماء . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإننا على استعداد لأن نرسل لفخامتكم المنح المطلوبة للأراضي المقدسة حالما تعلموننا كيف وأين ترغبون تسليها ، ونحن نهيء الأسباب اللازمة ليتمكن رسولكم من الوصول إلينا بكل أمان وسلام .

وتفضلوا بقبول احترامنا . التوقيع : ا . هـ ماك ماهون

(٣)

من الشريف حسين إلى السير هنري ماك ماهون .

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة في ٢٩ شوال ١٣٣٣ ، (٩ إيلول سنة ١٩١٥) .

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر سلمه الله .

بمزيد السرور والضيطة تلقيت كتابكم المورخ في ١٩ شوال وطالعتهم بكل احترام واعتبار ، رغم شعوري بغموضه وبرودته ، فيما يتعلق بنقطتنا الأساسية ، أعني نقطة الحدود .

وأرى من الضروري أن أؤكد لسعادتكم إخلاصنا نحو بريطانيا العظمى واعتقادنا بضرورة تفضيلها على الجميع في كل الشؤون وفي أي شكل ، وفي أية ظروف ويجب أن أؤكد لكم أيضاً أن مصالح اتباع ديانتنا كلها تتطلب الحدود التي ذكرتها لكم ، ويعذرني نخامة المندوب إذا قلت بصراحة إن البرودة والتردد اللذين ضمنهما كتابه فيما يتعلق بالحدود وقوله إن البحث في هذه الشؤون إنما هو إضاعة للوقت ، وأن

تلك الأراضي لاتزال بيد الحكومة التي تحكمها ، ويعذرني فخامته إذا قلت إن هذا كله يدل على عدم الرضا أو على النفور أو على شيء من هذا القبيل .

فإن هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل نتمكن من إرضائه ومفاوضته بعد الحرب بل هي مطالب شعب يعتقد أن حياته في هذه الحدود وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد ، وهذا ما جعل الشعب يعتقد أنه من الضروري البحث في هذه النقطة قبل كل شيء مع الدولة التي يثقون بها كل الثقة ويعلقون عليها كل الآمال وهي بريطانيا العظمى . وإذا أجمع هؤلاء على ذلك ، فإنما يجمعون على سبيل الصالح المشترك ، وهم يرون أنه من الضروري جداً أن تنضم الأراضي الجزأة ليعرفوا على أي أساس يؤسسون حياتهم ، كيلا تعارضهم إنكثرة أو إحدى حليفاتها في هذا الموضوع مما يؤدي إلى نتيجة معاكسة الأمر الذي حرمه الله وفوق هذا فإن العرب لم يطلبوا — في تلك الحدود — مناطق يقطنها شعب أجنبي ، بل هي عبارة عن كلمات وألقاب يطلقونها عليها .

أما الخلافة فإن الله يرضى عنها ، ويسر الناس بها .

وأنا على ثقة يا صاحب الفخامة أنكم لا تشكون قط بأني لست أنا شخصياً الذي يطلب تلك الحدود التي يقطنها عرب مثلنا ، بل هي مقترحات شعب بأسره ، يعتقد أنها ضرورة لتأمين حياته الاقتصادية .

أو ليس هذا صحيحاً يا فخامة الوزير ؟ وبالاختصار فإننا ثابتون في إخلاصنا ، نصرح بكل تأكيد بتفضيلنا لكم على الجميع أكنتم راضين عنا أم غاضبين . أما ما يتعلق بقولكم بأن قسماً من شعبنا لا يزال يبذل جهده في سبيل تأمين مصالح الأتراك . فلا أظن أن هذا يبرر البرودة والتردد اللذين شعرت بهما في كتابكم فيما يتعلق بموضوع الحدود ،

الموضوع الذى لا أعتقد أن رجلاً مثلك ثاقب الرأى ينكر أنه ضرورى
لحياتنا الأدبية والمادية وأنا حتى الساعة لا أزال أنفذ ما تأمر به الديانة
الإسلامية فى كل عمل أقوم به ، وأراه مفيداً وصالحاً لبقية المملكة ،
وإنى سأستمر فى هذا الرأى إلى أن يأمر الله بغير ذلك . وأود هنا يا صاحب
القمخامة أن أؤكد لكم بصراحة أن الشعب ومن جملته هؤلاء الذين
تقولون إنهم يعملون لصالح تركيا وألمانيا ينتظر بفارغ الصبر نتائج
هذه المفاوضات على موافقتكم أو رفضكم قضية الحدود وقضية المحافظة
على ديانتهم وحمايتهم من كل أذى وخطر . وكل ما تجده الحكومة
البريطانية موافقاً لسياستها فى هذا الموضوع فما عليها إلا أن تعلن به ،
وأن تدلنا على الطريق التى يجب أن نسلكها . ولذلك نرى من واجبنا
أن نؤكد لكم أننا سنطالب إليكم فى أول فرصة بعد انتهاء الحرب ما ندعه
الآن لفرنسا فى بيروت وسواحلها ، ولست أرى حاجة هنا لأن ألفت
نظركم إلى أن خطتنا هى آمن على مصالح انكلترة من خطة انكلترة على
مصالحنا ، ونعتقد أن وجود هؤلاء الجيران فى المستقبل سيقلق أفكارنا
كما يقلق أفكارها .

وفوق هذا فإن الشعب البيروتى لا يرضى قط بهذا الابتعاد والانزواء
وقد يضطربنا لاتخاذ تدابير جديدة قد يكون من شأنها خلق متاعب
جديدة تفوق فى صعوبتها المتاعب الحاضرة ، وعلى هذا لا يمكن السماح
لفرنسا بالاستيلاء على قطعة صغيرة من تلك المنطقة ، وأنا أصرح بهذا
رغم أنى أعتقد وأؤمن بالتعهدات التى قطعتموها فى كتابكم .

ويستطيع معالى الوزير وحكومته أن يشق كل الثقة بأننا لا نزال عند
قولنا وعزيمتنا وتعهداتنا التى عرفها مستر ستورز منذ عامين . ونحن
ننتظر اليوم الفرصة السانحة التى تناسب موقفنا وخاصة فيما يتعلق بالحركة

التي أضحت قريبة ، والتي يدفعها إلينا القدر بسرعة ووضوح لتسكون حجة — نحن والذين يرون رأيًا — في العمل ضد تركيا دون أن نتعرض للوم والنقد .

وأعتقد أن قولكم : « بأن بريطانيا لا تمسكم ولا تدفعكم للاسراع في حركتكم مخافة أن يؤدي هذا التسرع إلى تصديع نجاحكم ، لا يحتاج إلى إيضاح إلا فيما يتعلق بالأسلحة والذخائر عند الحاجة . أعتقد أن في هذا كفاية .

(٤)

من السير هنري مالك ماهون إلى الشريف حسين .

القاهرة في ٢٤ تشرين الأول سنة ١٩١٥ (١٥ ذى الحجة سنة ١٣٣٣)
إلى الشريف مكة مع الألقاب .

تلقيت كتابكم المؤرخ في ٢٩ شوال بكثير من الغبطة والسرور ، وكان للمبارات الودية المخلصة التي وردت فيه أكبر تأثير في نفسي ، وإنه يؤسفني أنكم لاحظتم في كتابي الأخير ، وحديثي عن قضية الحدود شيئاً من البرودة والتردد ، مع أنني لم أكن أقصد ذلك بل كنت أود أن أقول بأن الوقت لم يحن بعد للبحث فيها بحثاً منتجاً ، هذا كل ما أردت قوله ، وقد أدركت من كتابكم الأخير أنكم تعلقون أهمية كبرى على قضية الحدود وأنكم تعتبرونها من المسائل الحيوية ، فأرسلت مضمون كتابكم إلى الحكومة البريطانية وأنه ليسرني أن أرسل إليكم البيانات التالية ، التي أثق كل الثقة أنها تفوز برضاكم .

إن مرسين واسكندرونة وبعض الأقسام السورية الواقعة في غربي دمشق وحمص وحماه وحلب لا يمكن أن يقال عنها إنها عربية محضة ، فيجب أن تستثنى من الحدود التي ذكرتموها ، ونحن على استعداد للهوافة على تلك الحدود على أساس هذه التعديلات على ألا تنقص شيئاً من

اتفاقاتنا مع رعماء العرب أما الأراضي التي نستطيع إنكثرة العمل فيها
عمل الحرية ودون أن توقع ضرراً بحليفها فرنسا ، فإن في السلطة التامة
باسم حكومة صاحب الجلالة أن أعطيكم التأمينات التالية جواباً
على كتابكم :

١ — إن إنكثرة مستعدة على أساس تلك التعديلات أن تعترف
باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم في الحدود التي اقترحها شريف مكة .
٢ — تحمي بريطانيا الأراضي المقدسة من كل اعتداء خارجي
وتعترف بوحدتها .

٣ — تقدم بريطانيا للعرب عند الحاجة كل مساعدة أو نصيحة تلزم
وتعاونهم في تشكيل أفضل شكل من أشكال الحكومة في مختلف
البلاد العربية .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن العرب يوافقون على استشارة
ومعونة وإدارة بريطانيا العظمى وحدها ويرضون بأن يكون بجميع
الموظفين الذين يحتاجون إليهم بتنظيم دوائر مملكتهم من البعثة الانكليزية .
أما ما يتعلق بولاية البصرة وبغداد فإن العرب يعرفون أن مركز
إنكثرة ومصالحها فيها يتطلب شكلاً إدارياً خاصاً ومراقبة خاصة للحفاظ
على تلك الأنحاء من الاعتمادات الخارجية ، وتأمين راحة واطمئنان
السكان وتوطيد مصالحنا المشتركة فيها .

وإنني لعل ثقة بأن هذا التصريح يجعلكم أبعد ما تكونون عن الشك
في عطف بريطانيا على آماني أصدقائها « التقليديين » العرب ، ويؤدي حتماً
إلى التحالف والعمل على طرد الأتراك من البلاد العربية وإنقاذ العرب
من النير التركي الذي كان وما يزال يضغط على أعناقهم منذ أعوام .

لقد قصرت كتابي هذا على الشؤون العظيمة الأهمية ، فإذا كان لديكم

شئون أخرى ترغبون في المذاكرة بشأنها ولم أشر لها في كتابي هذا فإن
في وسعنا البحث فيها في فرصة مناسبة في المستقبل .

وقد تلقيت بالسرور والرضا نبأ وصول المحمل الشريف والهدايا
المرسلة بكل دقة ونظام بفضل التعليمات والإرشادات القيمة التي
قدمتموها وذلك بالرغم من الأخطار والمصاعب التي خلفتها الحرب
الحاضرة . وأرجو الله أن يعيد السلام والأمان والحرية سريعاً إلى جميع
الشعوب . لقد أرسلت إليكم هذا الكتاب بواسطة رسولكم النشط
الأمين الشيخ محمد بن عارف عريفان وهو سيطمحكم على بعض الشؤون
التي لم أذكرها في كتابي .

(٥)

من الشريف حسين إلى السير هنري ماك ماھون

بسم الله الرحمن الرحيم .

(مكة في ٢٤ ذى الحجة سنة ١٣٣٣ — ٥ تشرين الثاني سنة ١٩١٥)

لقد تلقيت بسرور كتابكم الكريم المؤرخ في ١٥ ذى الحجة وها أنا
أجيبكم عليه بما يلي :

١ — رغبة في تسهيل الاتفاق وخدمة الإسلام واجتناب كل ما من
شأنه تعمير صفوف المسلمين واعتماداً على صفات بريطانيا العظمى ومواقفها
الحجيدة ، فإننا نتنازل عن إصرارنا في ضم مرسين وأدنة إلى المملكة العربية .
أما قضية حلب وبيروت وسواحلها فهي عربية صرفاً ، وليس هناك
فرق بين المسلم العربي والمسيحي العربي فكلاهما من نسل واحد . وسنسير
نحن المسلمين على خطة سيدنا عمر بن الخطاب وسواه من الخلفاء الراشدين
الذين فرضوا على المسلمين — بموجب الديانة الإسلامية — أن يعاملوا
المسيحيين كما يعاملون أنفسهم ، وقد قال سيدنا عمر في حديث له عن

المسيحيين « بأن هؤلاء ما لنا من حقوق وواجبات » وعلى هذا فإن المسيحيين سيتمتعون بما نتمتع به من حقوق بما يتفق ومصلحة الشعب أجمع

٢ — لما كان العراق قسماً من المملكة العربية وكان مركز حكوماتها في عهد علي بن أبي طالب والخلفاء الذين تبعوه ، ولما كان هذا القطر مهداً لحضارة العرب ومدنيتهم وفيه أنشئت أبنيتهم الأولى وفيه عظمت قوتهم فإن العرب القريبين والبعيدين ينظرون إلى هذا القطر نظرة اعتبار خاصة ولا يستطيعون أن يذسوا بسهولة تقاليدهم وذكرياتهم ، ولذلك أعتقد أنه ليس في المستطاع إقناع الشعب العربي بالتنازل عن هذا القطر ، إنما رغبة منا في تسهيل الاتفاق واعتماداً على عهودكم في المادة الخامسة من كتابكم ، وحفظاً لمصالحنا المشتركة في هذا القطر ، فقد نوافق أن نترك الآن لمدة قصيرة الأراضي التي تحتلها الجيوش الانكليزية ، تحت إدارة انكلترة لقاء مبلغ من المال يدفع كتعويض عن مدة احتلال تلك المنطقة واحترام اتفاقكم مع شيوخها .

٣ — إذا كنتم ترغبون في الإسراع بالثورة فإننا نرى كثيراً من المخاوف . وأول ما نخشاه أن يقوم مسلمو الطرف الآخر ويلومونا على حركتنا ونثورتنا على حكومة إسلامية . ثم هناك أمراً آخر نخشاه ، وهو أننا إذا وقفنا في وجه الأتراك ووراءهم جميع القوى الألمانية ، فإننا لا نستطيع أن نعرف إذا كان من الممكن أن تضعف إحدى الدول المحالفة وتطالب الصلح فهل تتركنا انكلترة وحدنا أمام الأتراك أم لا ؟ فإذا تم هذا وبقي العرب وحيدين أمام الأتراك فماذا نصنع ؟

٤ — إن الأتراك لا يكادون يروننا وحيدين حتى يعمدوا إلى الانتقام منا فيعبدوا بحقوقنا المادية والمعنوية ، ويعتدوا على كرامتنا وشرفنا بمساعدة حليفهم ألمانيا ، هذه أمور يجب النظر إليها منذ الآن بعين الاعتبار لأن لها علاقة خاصة بقضيتنا .

٥ — عندما يعرف العرب أن حكومة بريطانيا العظمى هي حليفهم
لا تدعهم وحدهم عند انتهاء الحرب وعقد مهادنة الصلح ، وتمد يدها
دواماً لمساعدتهم والدفاع عنهم عندئذ يخوضون غمار الحرب بنفس
مطمئنة لا يشوبها شيء من الخوف والحذر .

٦ — إن كتابنا المؤرخ ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣ يفتينا على ما أعتقد
عن إعادة رأينا فيما يتعلق بالمادتين الثالثة والرابعة من كتابكم الأخير
بشأن الإدارة والاستشارة الحكومية والموظفين على ألا يكون (كما
صرحتم) — تدخل في الشؤون الداخلية .

٧ — إنا ننتظر وصول جوابكم النهائي الصريح على هذه الاقتراحات
بأسرع ما يمكن فقد أبدينا كل تساهل في الموضوع في سبيل الوصول
إلى اتفاق يرضى الفريقين .

ونحن نعرف أن نصيبنا من هذه الحرب إما نجاح يؤمن للعرب
حياة تتفق وتاريخهم القديم ، أو انقراض في سبيل الوصول إلى أمانهم
ومطالبهم ولو لم أكن أعرف أن العرب مستعدون للتضحية بأرواحهم
في سبيل الوصول إلى أمانهم لكنت أفضل أن أصعد إلى رأس جبل
وأنزوى فيه ولكن العرب بأسرهم يصرون على أن أقود حركتهم حتى
النهاية وليحفظكم الله وينصركم .

(٦)

من السر ماك ماهون إلى الشريف حسين

القاهرة في ١٣ كانون الأول سنة ١٩١٥ (٩ صفر سنة ١٣٣٤)

وبعد فقد وصلني كتابكم الكريم بتاريخ ٢٤ ذى الحجة سنة ١٣٣٣
وسرني ما رأيته فيه من قبولكم لإخراج ولايتي مرسين وأدنة من حدود
البلاد العربية ؛ وقد تلقيت أيضاً بمزيد السرور والرضا تأكيدكم أن

العرب عازمون على السير بنوجب تعاليم الخليفة عمر بن الخطاب : رضى الله عنه ، وغيره من الخلفاء الأولين : التعاليم التى تضمن حقوق الأديان وامتيازاتها على السواء ، هذا وفى قولكم أن يحترموا ويعترفوا بجميع معاهدتنا مع رؤساء العرب الآخرين يعلم منه طبعاً أن هذا يشمل البلاد الداخلة فى حدود المملكة العربية لأن حكومة بريطانيا العظمى لا تستطيع أن تنقض اتفاقات قد أبرمت بينها وبين أولئك الرؤساء .

أما بشأن ولايتى حلب وبيروت فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنها ودونت ذلك عندها بعناية تامة ، ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيها فالمسألة تحتاج إلى نظر دقيق وستخبركم بهذا الشأن مرة أخرى فى الوقت المناسب . إن حكومة بريطانيا مستعدة لأن تعطى كل الضمانات والمساعدات التى فى وسعها إلى المملكة العربية ولكن مصالحها فى ولاية بغداد تتطلب إدارة ودية ثابتة ، وأنها نستصوب تماماً رغبتكم فى اتخاذ الحذر ، ولسنا نريد أن ندفعكم إلى عمل سريع ربما يعرقل نجاح أغراضكم ، ولكننا فى الوقت نفسه نرى من الضروري جداً أن تبدلوا كل مجهوداتكم فى جمع كلمة الشعوب العربية إلى غايتنا المشتركة ، وأن تحشوهم على ألا يمدوا يد المساعدة لأعدائنا بأى وجه كان ، فإنه على نجاح هذه المجهودات وعلى التدابير الفعلية التى يمكن للعرب أن يتخذوها لإسعاف غرضنا عندما يحىء وقت العمل تتوقف قوة الاتفاق بيننا وثباته ، وفى هذه الأحوال فإن حكومة بريطانيا العظمى لا تنوى إبرام أى صلح كان إلا إذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية وخلصها من سلطة الأتراك . هذا وعربونا على صدق نيتنا ولأجل مساعدتكم فى مجهوداتكم فى غايتنا المشتركة فإنى مرسل مع رسولكم الأمين مبلغ عشرين ألف جنيه وأقدم فى الختام عاطر التحيات القلبية .

(٧)

من الشريف حسين إلى السير هنرى ماك ماهون
بسم الله الرحمن الرحيم

مكة في ٢٥ صفر سنة ١٣٣٤ (أول كانون الثاني ١٩١٦)

تلقينا كتابيكم المؤرخين في ٩ صفر فسرني ما جاء فيهما ، وذهب ما كان
يقلقني وأظن أن غفامتكم قد أدركتم بعد وصول الشريف محمد فاروق
واجتماعه إليكم بأن أعمالنا حتى الآن لم تكن لغايات وميول شخصية ،
بل إن كل شيء كان بنتيجة مطالب ورغائب شعبنا ، وإننا لسنا سوى
ناقلين ومنفذين لرغائب الشعب وإلحاحه .

وهذه الحقائق هي دوماً في فكري أهتم لها كل الاهتمام وأرجو أن
تجد في أنفسكم مكانها من الانتباه والاعتبار .

إن ما يتعلق بقضية العراق وقضية التعويض الذي اقترحنه لقاء
احتلاله فإنني في رغبة في تقوية ثقة بريطانيا بنوايانا في القول والعمل
أدع أمر تقدير المبلغ إلى حكمتها وعدالتها .

أما ما يتعلق بالأقسام الشمالية ومرافئها فقد أبدينا لكم في كتابنا
السابق أقصى ما يمكن أن نوافق عليه من تعديلات ونحن لم نتساهل
هذا التساهل إلا لتحقيق الرغائب التي يريد الله العلي الأعلى أن تتحقق ،
وهذا الشعور هو الذي حدانا لأن نتجنب كل ما من شأنه أن يسيء إلى
تحالف انكلترا وفرنسا والاتفاق المعقود بينهما خلال هذه الحرب
ومصائبها .

(٨)

من السير هنرى مالك مهورن إلى الشريف حسين .

القاهرة في ٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٣٤ (٣٠ كانون الثاني سنة ١٩١٦)
تلقينا بسرور كتابكم المؤرخ في ٢٥ صفر بواسطة رسولكم الموثوق
به واطلعنا منه على رسالتكم الشفوية وإننا لنقدر حق التقدير الدوافع
التي تقودكم في هذه القضية الهامة ، ونعرف جيداً أنكم تعملون في صالح
العرب وأنكم لا ترمون إلى شيء في عملكم غير صالحهم وحريتهم .
وقد عنيت عناية خاصة بملاحظتكم بشأن ولاية بغداد ، وسنبحث
هذا الموضوع باهتمام وعناية زائدين عندما تتم هزيمة الأعداء ونصل
إلى التسويات السلمية .

أما ما يتعلق بالجهات الشمالية فقد كتبنا ملاحظة عن رغبتكم
في تجنب كل ما من شأنه الإساءة إلى تحالف انكلترا وفرنسا وسررت
جداً بإبداء مثل هذه الرغبة .

وأظنكم تعرفون جيداً أننا مقررون قراراً نهائياً بالألا نسمح بأى
تدخل (مهما قل شأنه) في اتفاقنا المشترك في إيصال هذه الحرب إلى
الفوز ، ثم متى انتهت الحرب ، فإن صداقة فرنسا وانكلترا ستقوى
وتشتد وهى اللتان بذلتا الدماء الإنكليزية والفرنسية جنباً إلى جنب
في سبيل الدفاع عن الحقوق والحريات . والآن وقد قررت البلاد
العربية أن تشترك معنا في الدفاع عن الحقوق والحريات وتعمل معنا
في سبيل هذه القضية الهامة فإننا نرجو الله أن تكون نتيجة هذه
الجهود المشتركة وهذا التعاون الوطيد صداقة دائمة تعود على الجميع
بالسرور والغبطة . وقد سررنا جداً للحركة التي تقومون بها لإقناع
الشعب بضرورة الانضمام إلى حركتنا والكف عن مساعدة أعدائنا
ونترك لفطنتكم وتقديراتكم تقرير الوقت المناسب لاتخاذ تدابير أوسع
من هذه .

إعلان الثورة ومكانة العرب

في انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى

لم يكن إعلان الثورة العربية مفاجأة للعالم ، فإن جميع المقدمات التي مرت بنا تؤدي إلى هذه النتيجة ، فقد استيقظ العرب باليقظة الكبرى التي عمت أرجاء العالم ، وفتحوا عيونهم بين يدي الخلافة التي كانت تحكم أقواماً وشعوباً متنوعة ، ورأوا ما تفعله هذه الأقوام ، ثم ما يقوم به العنصر الحاكم في ثورة هائلة من النعرة القومية الطورانية والنية المبيتة في تتركب بقية العناصر المنضمة إلى الدولة بالرغم من ضعف سلطان الخلافة وتضعف مركزها في أقسامها الغربية والشرقية ، وفي العرب رجال لهم في جيش الدولة مكانة وفي إدارتها شأن وعنصرهم هو العنصر الغالب ، والثقافة السائدة هي الثقافة العربية الإسلامية والقرآن الذي تستظل بظلاله الخلافة الإسلامية ينطق بلسان عربي مبين . فلم يرضوا بهذه المسكنة ؟ ولم يصبروا حتى تستتركهم جمعية الاتحاد والترقي ، لقد أظهروا مقدرة فائقة في جميع الميادين الحربية والإدارية وساهم رجالهم في قمع الظلم والاستبداد وإعادة الدستور ، فقد زحف القائد العربي محمود شوكت باشا بالجيش على العاصمة وأرغم الخليفة على التنازل وعلى إعادة الدستور . أفلا يمكن للعرب إذن أن يحددوا مركزهم في هذه الدولة ؟ كل أولئك أهابت بالعرب ، وكانت الفرصة سانحة في هذه الحرب العالمية فتقدموا للدولة يستوضحونها ويطلبون تحديد مركزهم فأغضب ذلك الاتحاديين وفعل جمال باشا في أحرارهم ما فعل . ما كان للعرب بد من خوض المعركة ، ولكن كيف يكون ذلك وهناك معسكران متطاحنان : تركيا والألمان من جهة وانكثرة وفرنسا وبقية الحلفاء من جهة أخرى ، لم ير العرب بداً من الانحياز إلى

جانب الحلفاء بعد أن ألقى الشريف حسين الحجة على الأتراك بمطالبة العفو عن الأحرار قبل أن يشنقهم جمال باشا ثم بمطالبة تحديد مكانة الأمة العربية ضمن الخلافة من حيث إنشاء إدارة لا مركزية فرفض الأتراك ذلك كله . وضع الشريف مع جمعيتي الفتاة والعهد العربيين مشروعاً على أساسه بدأ الاتصال بالعرب ودخلت المفاوضات بطريق المراسلة بعد أن كانت المواجهة قد مهدت لها من قبل ، وتحددت صلات العرب بالحلفاء بالوثائق المتقدمة التي جرت على أساس رسائل بين الشريف وبين ماك ماهون . وكانت الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم السبت ٩ شعبان ١٣٣٤ الموافق ١٠ حزيران لعام ١٩١٦ حداً فاصلاً بين العرب والترك في خلافة آل عثمان . حيث انطلقت نيران العرب على ثكنات الجيش العثماني مؤذنة بإعلان الاستقلال والثورة وعزز الشريف هذه الوثبة بنشر على العالم الإسلامي والعربي جاء فيه : إن الاتحاديين خرجوا على العهد الأخوي بين الشعبين ، رغم المعونة الصادقة التي بذلها العرب في ظل الخلافة ، وخرجوا على الشريعة فبدلوا الأحكام ، وشنقوا أحرار العرب جماعات وفرادى ، وشردوا أسرهم ونفوها من أرضها ، وصادروا الأموال ، ولقد نصحننا فلم ينفع النصع ، وقد وفقنا الله لأخذ الاستقلال فضرربنا على أيدي الاتحاديين وانفصلت بلادنا عن المماكة العثمانية انفصلاً تاماً وأعلننا استقلالاً لا تشوبه شائبة مداخله أجنبية ولا تحكم خارجي جاعلين الغاية نصرة دين الإسلام وإعلان شأن المسلمين مستندين في كل أعمالنا على أساس أحكام الشرع الشريف ولن يكون لنا مرجع سواه في جميع الأحكام وأصول القضاء .

لقد استطاع جيش الثورة أن يستولى على مدن الحجاز الكبرى في أقل من ثلاثة أشهر عدا المدينة المنورة فإن الحامية التركية بقيت محاصرة فيه إلى ما بعد انتهاء الحرب . وصل إلى الحجاز ضباط العرب

الذين أفلتوا من الجيش العثماني ونظموا جيوشها على أسس نظامية ووصلتهم بعض العدة من الحلفاء . وقد ارتاب الحلفاء في أمر الثورة إما خوفاً منها أن تتغلب عليهم أو أنهم كانوا لا يريدون الاعتراف بها . ولكنهم أذعنوا بعد أن أدركوا أهميتها . وأنها هي التي قيدت هجوم الأتراك على القناة وقد اعترف بذلك جمال باشا نفسه ، زد على ذلك فإنها هي التي حالت دون نجاح الحملة التركية الألمانية إلى جنوب الجزيرة ولو نجحت هذه الحملة لأقفلت البحر الأحمر ولأفسحت المجال لنشاط الألمان ، أما من الوجهة الاستراتيجية فقد أصبحت هذه المنطقة الموالية للحلفاء بعد انضمام ابن سعود إليهم والتي تمتد من البحر الأحمر إلى الخليج الفارسي خير ضمان لسلامة ملاحتهم ، وكتب جمال باشا في مذكراته يقول : لولا ثورة العرب ما جرات كتيبة انكليزية في عام كامل أن تطأ ضفة القناة الشرقية .

تقدمت الجيوش العربية تفتح في أرض الحجاز حتى وصلت العقبة في شهر تموز عام ١٩١٧ فاتخذتها نقطة ارتكاز ، وأخذت بعد ذلك تتقدم وتزيل حاميات الأتراك وتصطدم بقواتهم حتى وصلت إلى دمشق فدخلتها ظافرة في اليوم الأول من شهر تشرين الأول لعام ١٩١٨ ودخلت معها الجيوش البريطانية ، ثم والت الكتائب العربية زحفها فدخلت حمص وحماة وحلب ولم يمض شهر حتى تم تحرير سوريا جميعها ، وقد قام ضباط الجيش العربي من العراقيين بدور مهم في هذه الحركة ، وكان أول ما فعله الأمير فيصل أن شكل حكومة عربية في دمشق ، وطفقت الأعلام العربية ترفرف على المدن السورية جميعها .

عهود الخلفاء ، اتفاق سايكس - بيكو ، وعد بلفور

بدأ الشريف حسين مراسلاته الرسمية قبل الثورة مع السر هنري مالك ماهون في يوم ١٤ تموز لعام ١٩١٥ وانتهت بآخر كتاب حرره مالك ماهون مؤرخ ٢٠ كانون الثاني عام ١٩١٦ وأعلن الثورة العربية في ١٠ حزيران لعام ١٩١٦ في مكة ودخلت جيوش العرب دمشق بقيادة الأمير فيصل في اليوم الأول من شهر تشرين الأول لعام ١٩١٨ وأعلنت الهدنة في اليوم الثلاثين من هذا الشهر نفسه لعام ١٩١٨ وظن العرب أنهم سيجنون ثمار عملهم وحافهم بإعلان استقلال بلادهم الذي تعهد به الخلفاء ولكنهم فوجئوا بأمر لم يكن في الحسبان . فاجأهم اتفاق سايكس بيكو الذي عقد في مايس عام ١٩١٦ وهو اتفاق متمم للاتفاق الرئيسي مع روسيا والقاضي بتقسيم الدولة العثمانية بعد نجاح الحرب بين هذه الدول الثلاثة . وكانت حصة روسيا من هذه الغنيمة فيما يقع من بلاد تركيا خارجاً عن البلاد العربية .

وتتضمن معاهدة سايكس - بيكو بتقسيم بلاد الشام (سوريا لبنان ، فلسطين) والعراق تقسماً مزقت به هذه البلاد شرمزق ، فقد جعلت فلسطين منطقة خاصة تتكون فيها إدارة دولية يشترك بالمشورة في تشكيلها الشريف مكة .

وقسمت البقية الباقية إلى مناطق تطلق يد كل دولة في منطقة واحدة منها اطلاقاً تاماً وجعلت لكل من الدولتين نفوذاً خاصاً في منطقة من المنطقتين الداخليتين المتجاورتين على أن تتكون منهما دولة عربية أو حلف من دول عربية ، دون مراعاة لوضع طبيعي أو اجتماعي أو سياسي في صالح هذه البلاد وقد روعي في هذه الخطة المصالح الاستعمارية التي تؤيد نفوذ الاستعمار في هذه البلاد وتحول دون وحدتها في يوم من الأيام .

وفي ٢ شباط من عام ١٩١٧ كتب وزير خارجية بريطانيا إلى اللورد روتشيلد تصريحاً عرف باسم (وعد بلفور) هذا نصه : لي الشرف أن أخبركم باسم جلالته عن شعور الوزارة البريطانية فيما وضعته وأفرته بالنسبة إلى مساعي الصهيونية : إن حكومة جلالته تنظر بعين الرضا إلى إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين وستبذل قصارى جهدها لتسهيل الوصول إلى هذا الهدف ، على أن يكون واضحاً أنه لن يحدث من جراء هذا ما يضر بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية في فلسطين أو بالحقوق المدنية والسياسية التي حصل عليها اليهود في بلد آخر .

لم يدر الحسين باتفاق سايكس - بيكو حتى نشره البلاشفة بعد سقوط القيصرية الروسية فاعتنم الأتراك الفرصة ومدوا أيديهم إلى العرب بمصالح منفرد متخذين من هذا الاتفاق وسيلة ، فالتفت الحسين إلى الانسكيز يستوضحهم فجاءه الرد بهذه المذكرة :

من المهتمد البريطاني في جدة إلى الشريف حسين

جدة في ١٧ شباط ١٩١٨

جلالة صاحب السيادة العظمى ملك الحجاز وشريف مكة وأميرها المعظم . بعد بيان ما يجب بيانه من الاحترام والتوقير قد أمرني جناب نخامة نائب جلالة الملك أن أبلغ جلالتهكم البرقية التي وصلت إلى نخامته من نظارة الخارجية البريطانية بلندن ، وقد عنوتها حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى باسم جلالتهكم وهذا نصها بالحرف الواحد :

إن الرغبة والصراحة العامة التي اتخذتموها جلالتهكم في إرسال التحذيرات التي أرسلها القائد التركي في سوريا إلى سمو الأمير فيصل

وجعفر ياشأ إلى جناب نائب جلالة الملك كان لها أعظم التأثير الحسن لدى حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى ، وإن الإجراءات التي اتخذتها جلالتكم في هذا الصدد لم تكن إلا رمزاً يعبر عن تلك الصداقة والصراحة التي كانت دائماً شاهد العلاقة بين كل من الحكومة الحجازية وحكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وبما لا يحتاج إلى دليل أن السياسة التي تنسج عليها تركيا هي إيجاد الارتياح والشك بين دول الحلفاء والعرب الذين هم تحت قيادة وعظيم ارشادات جلاتكم ، قد بذلوا الهمة الشياء ليظفروا بإعادة حريتهم القومية . إن السياسة التركية لا تفتأ تغرس ذلك الارتياح بأن توسوس للعرب أن دول الحلفاء يرغبون في الأراضي العربية وتلقى بأذهان الحلفاء أنه يمكن إرجاع العرب عن مقصدهم ، ولكن أقوال الدسائسين لن تقوى على إيجاد اختلاف بين الذين اتجهت عقولهم إلى فكر واحد وغرض واحد . إن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وحلفاءها ما زالت واقفة موقف الثابت لكل نهضة تؤدي إلى تحرير الأمم المظلومة ، وهي مصممة أن تقف بجانب الأمم العربية في جهادها لأن تبنى عالماً عربياً يسود فيه القانون والشرع بدل الظلم العثماني ، ويتغلب فيه الاتحاد على التنافس المصطنع الذي أحدثه الموظفون الترك . إن حكومة جلالة ملك بريطانيا تكرر وعدها السالف بخصوص تحرير الأمم العربية ، وإن حكومة جلالة ملك بريطانيا قد سلكت مسلك التحرير وتقصد أن تستمر عليه بكل استقامة وتصميم بأن تحفظ العرب الذين تحرروا من السقوط في وهدة الدمار ، وتساعد الذين لا يزالون تحت نير الظالمين لينالوا حريتهم . وفي الختام أتمنى قبول خالص التحيات وعظيم الاحتشامات والتمنيات .

وفزع العرب من وعد بالفور فاستوضح الحسين الحكومة البريطانية

فأرسلت إليه رسولا تؤكد له شفوياً أن هذا الوعد لا يتيسر -خوف
العرب السياسية والاقتصادية- والحقيقة التي انتهت إليها هاتان القنصلتان
ما يأتي :

فيما يخص فلسطين : لقد كان الهجوم الألماني التركي على قناة السويس
مدعاة تفكير البريطانيين حيث انتهوا إلى أن شواطئ البحر الأحمر
غير كافية لحفظ القناة وأن فلسطين نقطة استراتيجية مهمة للقناة فلا بد
من اتخاذ وسيلة لجعلها تحت الحماية البريطانية . فكانت هذه الوسيلة ادعاء
الصهيونية لها . وقد جاء بمذكرات سفير بريطانيا السابق في فرنسا
اللورد برتيس : إن الخطة المؤدية إلى تكوين دولة يهودية في فلسطين
قد تم الاتفاق عليها مع اليهود من جهة ومع لويد جورج ولورد جراي
من جهة أخرى في كانون الثاني عام ١٩١٥ ولكن هذا الاتفاق لم ينشر .
وقد كان ادعاء الصهيونيين للوطن القوي وسيلة أخرى لإبعاد فرنسا
التي تدعى أن لها حقاً في فلسطين . وبذل الصهيونيون جهوداً جبارة
لتأخذوا لها شتى الوسائل لتحقيق هذا الوعد فاقنعت به فرنسا في ٩ شباط
عام ١٩١٨ واقنعت إيطاليا في ٨ مايس عام ١٩١٨ واقنعت أمريكا
في ٣١ أغسطس ١٩١٨ ومهما فعل العرب وغيرهم واحتجوا وثاروا
ودافعوا ودخلوا الحرب ونشر من المكاتب والاقتراحات في الكتاب
الأبيض وغيره فإن الخطة موضوعة منذ ١٩١٥ إلى أن خرج الانجليز
من الانتداب فسلبت فلسطين إلى اليهود وشرد العرب في العراق وأغمرت
حقوقهم كلها وقد عضدت بريطانيا وصديقتها أمريكا اليهود في تكوين
دولتهم ونسيتا ما جاء في تصريحات واسن وعهود بريطانيا ، وإعلان
حقوق الإنسان .

على أثر هذين التصريحين تألفت لجنة مكونة من سبعة أعضاء من

أحرار العرب فتقدموا بمذكرة إلى الحكومة البريطانية يستوضحونها ويطلبون تحديد ما جرى بين الشريف حسين وملك ماهون فجاءهم الرد بما يأتي :

نص العهد البريطاني للسوريين السبعة :

١ — إن حكومة جلالة الملك ترغب في أن تكون عامة الشعوب التي تتكلم اللغة العربية منقذة من السلطة التركية ، وأن تعيش فيما بعد وعليها الحكومة التي ترغب فيها .

٢ — إن بعض البلاد العربية إما كانت تتمتع باستقلالها التام منذ مدة أو حصلت عليه الآن وهو استقلال اعترفت به انكثرة اعترافاً تاماً وهذا يكون شأنها أيضاً مع البلاد التي تحصل على استقلالها من الآن حتى نهاية الحرب .

٣ — إن سائر البلاد العربية هي الآن خاضعة للترك أو تحتلها جيوش الحلفاء فحكومة جلالة الملك تأمل ، ولها الثقة أن شعوب هذه البلاد تحصل أيضاً على حريتها واستقلالها وأن يتخذ بشأنها عند انتهاء الحرب قرار يتفق مع رغبتها .

٤ — إن حكومة جلالته تعتقد أن العوائق والصعوبات المقدرة التي تقف في سبيل أحياء هذه الشعوب سيتغلب عليها تفلهاً ناجحاً وهي تعد بكل مساعدة لمن يسعى في إزالتها ومستعدة لأن تنظر في أي خطة لعمل مشترك يلتزم مع الحركات العسكرية الحاضرة ، ويتفق مع المبادئ السياسية لبريطانيا وحلفائها .

وفي ٧ نوفمبر عام ١٩١٨ صدر تصريح مشترك يبين الهدف الذي من أجله حاربت فرنسا وبريطانيا في الشرق وهذا نصه :

إن السبب الذي من أجله حاربت فرنسا وانكثرة في الشرق تلك

الحرب التي أهاجتها مطامع الألمان إنما هو لتحرر الشعوب التي رزحت أجيالا طويلا تحت مظالم الترك تحريراً تاماً نهائياً وإقامة حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطاتها من اختيار الأهالي الوطنيين لها اختياراً حراً ، ولقد أجمعت فرنسا وانكلترا على أن تؤيد ذلك بأن تشجعا وتعتينا على إقامة هذه الحكومات والإدارات الوطنية في سوريا والعراق : المنطقتين اللتين أتم الخلفاء تحريرهما ، وفي الأرض التي مازالوا يجاهدون في تحريرها ، وأن تساعدوا هذه الهيئات وتعترف بها عندما تؤسس فعلاً ، وليس من غرض لفرنسا وانكلترا أن تنزلا أهالي هذه المناطق إلى الحكم الذي تريدها ، ولكن همهما الوحيد أن يتحقق بمحورتهما ومساعدتهما المفيدة عمل هذه الحكومات والإدارات التي يختارها الأهليون من ذات أنفسهم وأن تضمنوا عدلاً منزهاً يساوي بين الجميع ويسهل عليهم ترقية الأمور الاقتصادية في البلاد بإحياء مواهب الأهالي الوطنيين وتشجيعهم على نشر العلم ووضع حد للخلاف القديم الذي قضت به السياسة التركية تلك الأغراض التي ترمي إليها الحكومتان المتحالفتان في هذه الأقطار المحررة .

اصطدام العرب بالخلفاء

(مؤتمر باريس)

بالرغم من هذه الوعود المنفردة والمشاركة فإن الخلفاء أخذوا يسرون على الأسس التي جاء بها اتفاق سايكس — بيكو ، والصهيونية تأكيد من وراء ذلك وتحت الخلفاء على تحقيقها بغية تحقيق وعد بلفور أما العرب فقد اطمأنوا إلى هذه الوعود وانصرف الأمير فيصل يرتب أموره في دمشق وفي البلاد السورية . وكانت الجيوش البريطانية تحتل

البلاد العربية وحدها مع الجيوش العربية ، وبينما كان المسؤولون ينتظرون ما يأتى به مؤتمر الصلح فوجئ العرب فى دمشق بنزول الجيوش الفرنسية فى السواحل السورية فلما احتجت حكومة دمشق العربية على ذلك أجابها البريطانيون أن هذا أمر مؤقت اقتضته الحركات العسكرية ولا يعنى اتفاق سايكس — بيكو .

وذهب الأمير فيصل إلى باريس ليحضر مؤتمر الصلح بتكليف من والده الملك حسين باعتباره أحد الحلفاء . ولكنه خاب ظنه إذ وجد تعبئة منظمة من فرنسا وانكلترا والصهيونيين لإحباط مساعيه وعدم الاعتراف به ولكن ما لبث الأمر قليلا حتى اعترف به ممثلا لحكومة الحجاز ، فبسط الأمير مطالب العرب . وكان يسود المؤتمر مثالية الرئيس ولسن فى حق تقرير الشعوب مصيرها وفى عباراته التى يكررها دائما : إن تسوية أى قضية من القضايا سواء أكانت دولية أم سياسية أم اقتصادية يجب ألا تستند إلى المنافع المادية التى تؤدى إلى استغلال الغير .

غير أن هذا المؤتمر ما لبث أن وضع حق تقرير مصير الشعوب العربية التى انفصلت عن تركيا فى المادة (١٩) من مقرراته والتى كان ما يخص البلاد العربية منها قد تبلور فيما بعد فى هذه الفقرة من المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم وهى : « وهناك شعوب معينة كانت تابعة للدولة التركية قد وصلت من التطور درجة تضعها فى مصاف الأمم التى يمكن اعتبارها مستقلة مبدئياً ، على شرط أن تقبل مشورة ومساعدة دولة منتدبة فى تدوير شئونها وتستمر حتى تصل إلى مكانة تستطيع بها الاستغناء عن هذه المشورة والمساعدة وأن تراعى رغبة هذه الشعوب فى اختيار الدولة المنتدبة » .

لقد كان الصراع عنيفاً فى مؤتمر باريس بين فرنسا وانكلترا صاحبتى اتفاق سايكس — بيكو من جهة وبين منافستهما إيطاليا وصاحب الحق

الشرعى ملك الحجاز من جهة أخرى ، وكانت كل من فرنسا وانكلتره تحاولان التفاهم على تعيين الحدود وتوضيحها لتحقيق رغبة كل واحدة منها ورأت انكلتره أن هذا الاتفاق فى وضعه الحالى مضر فى مصالحها فكان ما كان من ارجاع أحواض النفط فى لواء الموصل إليها ، ومن ثم السكوت عن تدويل فلسطين حيث انتهى الأمر فيما بعد بوضعها تحت بشرط مراعاة تنفيذ وعد بلفور .

ومن نتائج هذا المؤتمر تأليف لجنة تحقيق أو استفتاء لمعرفة رغبات أهل البلاد العربية . وقد رجعت هذه اللجنة بتقرير مفصل خلاصته : عدم التوصية بالانتداب الفرنسى على سوريا ، والمحافظة على وحدة سوريا وفى ضمنها فلسطين مع إعطاء لبنان حكما ذاتيا فى نطاق الوحدة السورية وأن يبقى العراق قطراً واحداً ، وأن يقوم حكم ملكى دستورى فى كل من الانتداب البريطانى العراق وسوريا .

ولكن معالم هذه اللجنة طمست ولا شك فى أن ذلك من فعائل اليهود وتديرهم . رأى الأمير فيصل هذا الاضطراب وأنه لا مناص من التفاهم مع فرنسا . فتم اتفاق بينه وبين كليمنصو اشتركت فى المشورة فيه بريطانيا . فلما عرضه على المسئولين فى سوريا رفضوه .

إعلان الاستقلال ومبايعة الملك فيصل

وما ترتب على ذلك

أدرك العرب نوايا الغرب وتأكد لهم أن اتفاق سايكس — بيكو سوف تدعّمه الصهيونية فى أنحاء العالم وسوف تعبى له الصحافة والمخافل السياسية حتى تحققه فاجتمع المؤتمر السورى العام فى ٧ مارس عام ١٩٢٠ وأعلن استقلال سوريا جميعها بما فيها فلسطين ولبنان وأن يكون شكل الحكم فيها ملكيا دستوريا واحتفظ القرار للبنان بحكم ذاتى ضمن

الدولة السورية . ثم المناشة بالأمير فيصل ملكاً على سوريا . واجتمع زعماء العراق وأعلنوا استقلال العراق والمناذاة بالأمير عبد الله ملكاً عليه وفي اليوم الثامن من هذا الشهر توج فيصل بتاج الملك السوري . قرر العرب هذه المقررات الخطيرة وجيوش بريطانيا تحتل العراق وفلسطين وجيوش فرنسا تحتل السواحل السورية وتتقدم في كل لحظة إلى الداخل . فأغضب هذا القرار الحلفاء فاجتمع مجلسهم الأعلى في سان ريمو من أعمال إيطاليا في ٢٥ نيسان ١٩٢٠ وأعلن :

١ — وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي بدولتين منفصلتين .

٢ — وضع العراق تحت الانتداب البريطاني .

٣ — وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني مع تنفيذ وعد بلفور . فكانت هذه المقررات مفاجأة مفرجة أملاه عملاق الظلم وجبروت الاستعمار على أمة وديعة تطلب حقها وتستنجز وعداً طالما أعطى لها .

الحرب بين فرنسا والعرب

وخروج فيصل من الشام

أخذت فرنسا تزحف على داخل سوريا وتبرر زحفها على أساس أنها دولة منتدبة أو أنها دولة فرضت نفسها فرضاً دون رغبة أهل البلاد . وكانت جيوشها مسلحة تسليحاً كاملاً وبينما كانت جيوشها تترد متقهقرة أمام الكماليين المسلحين كانت جيوشها تتقدم إلى الأمام بسلاح يفوق سلاح الجيوش العربية . وكان العرب يستندون إلى العهود وفرنسا تستند إلى القوة .

وبينما كان الملك فيصل يتأهب للرجوع إلى باريس ليحضر مؤتمر الصلح وليبسط شئون البلاد أبلغه الجنرال غورو أنه لا يوافق على سفره

ما لم تحل المسألة السورية . وفي يوم ١٤ تموز ١٩٢٠ أنذره إنذاراً محدداً فيه المطالب الآتية :

١ — وضع الخط الحديدي بين رياق وحلب تحت الإدارة الفرنسية ومراقبتها .

٢ — استغلال فرنسا لمحطات الخط الحديدي في حمص ، حماة وحلب .

٣ — تداول العملة السورية التي أصدرتها فرنسا .

٤ — قبول الانتداب الفرنسي على سوريا .

٥ — معاقبة عصابات الثوار .

٦ — تنفيذ هذه المطالب خلال أربعة أيام وإلا نفذت بالقوة

عرض الملك هذا الإنذار المفاجيء على مجلس وزرائه فدرسوه ووجد أن البلاد غير قادرة على الدفاع إذا استعمل الفرنسيون القوة . وأن هذه المطالب ما هي إلا وسيلة للقضاء على استقلالها ، ومع ذلك قبل الإنذار رسمياً غير أن الفرنسيين تقدموا بحجة أن الجواب جاءهم متأخراً وكيف يمكن أن يتأخر وقد أبرق من دمشق إلى بيروت ولسكن فرنسا شأنها في كل أعمالها أن تترك متن الظلم والخيانة وتاريخها مع الجزائر وتونس معروف .

تقدمت جيوشها فلم ير العرب بداً من صدها بعد أن فهموا نواياها لكن سلاحها القوي المتفوق حصد الأحرار واستشهد وزير الحربية في موقعة ميسلون وتم احتلال دمشق . وطلب غورو من فيصل أن يغادر البلاد في أسرع ما يمكن ، فاضطر الملك العربي أن يغادر البلاد إلى أوروبا حيث حليفته في السلاح بريطانيا لييسط لها أفعال الخليفة الثانية فرنسا وفي معاهدة الصلح التي تمت في سيفر في ١٠ أغسطس ١٩٢٠ أيدت المواد ٩٤ - ٩٨ منها ما جاء في المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم تم وضع سوريا تحت الانتداب واعتبارها دولة مستقلة مبدئياً .

وبعد انهيار الحكومة الوطنية قسمت فرنسا سوريا دويلات وبدأت أعمال التخريب الاجتماعى والسياسى والاقتصادى فى هذا البلد الأمين .

الانتداب على العراق

مبايعة الملك فيصل وتوحيجه ملكا على العراق

وثبت إنكلترة على العراق عند إعلان تركيا الحرب عام ١٩١٤ وبعد مساجلة فى المواقع بينها وبين جيوش الدولة العثمانية استقرت جيوش بريطانيا فى البصرة . واتخذتها قاعدة لحركاتها فى هذا القطر العربى وظلت الحرب سجالا بين جيوش الانجليز وجيوش الترك خسر فيها الانجليز والترك عدداً عظيماً من الضحايا والمعدات . إلى أن انتهى الأمر باحتلال الموصل على أثر إعلان الهدنة .

وهكذا احتل الانجليز العراق وحكموه حكماً مباشراً ، والعراق جزء من البلاد العربية المتبقية المتطلعة إلى الاستقلال لعب أبنائه دورهم المهم فى الثورة العربية الكبرى إذ كانوا يؤلفون العدد الأكبر من ضباط العرب فى الجيش العثمانى .

زد على ذلك فإن المنتظمين إلى جمعية الإصلاح وغيرها من الجمعيات قد أدوا نصيبهم فى هذه الحركة .

وبينما كان العراق يتطلع إلى إعلان استقلال الدولة العربية إذ يسمع بالانتداب يفرض عليه فرضاً دون أخذ رأيه . وإذا به يقيد بالسلاسل وبعد أن كان العراق سمع من منشور الجنرال مود يوم ١٩ آذار سنة ١٩١٧ ألفاظ الحرية والتحرير إذ به يرى الانجليز يسدرون فى غلوائهم ويعلنون الانتداب فانتفض العراق تلك الانتفاضة الهائلة . وقبل أن نذكر طرفاً منها ومن نتائجها نثبت هنا منشور الجنرال مود لقيمته التاريخية قال :

يا أهالى ولاية بغداد :

إنني باسم مليكي المعظم واسم شعوبه التي يحكم عليها أوجه إليكم
الخطاب الآتي :

إن الغرض من معاركنا الحربية هو دحر العدو وإخراجه من هذه
الأصقاع ، فإتماماً لهذه المهمة وجهت إلى السلطة المطلقة على جميع
الأطراف التي تقاتل فيها جنودنا .

إن جيوشنا لم تدخل مدنكم وأراضيكم بصفتهم قاهرين أو أعداء
بل بصفتهم محررين فقد أخضع مواطنوكم منذ أيام هولاكو لمظالم الغرباء
نحربت قصوركم وذوت حدائقكم وفنى أشخاصكم وأسلافكم من جور
الاسترقاق ، لقد سيق أبناؤكم إلى حروب لم ينشدوها وجروكم القوم
الظلمة من ثروتكم وبددوها في أصقاع شاسعة . تكلم الترك من أيام
مدحت باشا على الإصلاح ، أفليس دثور العراق واقفاره برهاناً على
بطلان هذه المواعيد .

وأما ليست أمنية جلالة مليكي المعظم وأمنية شعوبه فقط ، بل هي
أمنية الأمم العظمى المتحالفة معها حكومة جلالته أن تعودوا كما في السابق .
وقد كانت أراضيكم مخصبة وكان العالم يتغذى بألبان آداب أجدادكم
وعلمهم وصناعاتهم وقد كانت بغداد إحدى غرائب الدنيا ، لقد أنيط
قومكم بممتلكات جلالة مليكي المعظم بعروة المصالح الوثقى ، فقد تبادل
تجار بغداد وتجار بريطانيا من متى سنة المنفعة والصدقة .

أما الألمان والأتراك الذين نهبواكم أتم وذويكم فقد اتخذوا بغداد
مدة عشرين سنة مركزاً يهجمون منه على نفوذ البريطانيين وحلفائهم
في إيران والبلاد العربية ولذلك لم تستطع الحكومة البريطانية السكوت
عما يحدث في وطنكم حاضراً أو مستقبلاً ولا تتسأخ قياماً بواجب
مصلحة الشعوب البريطانية ومصلحة حلفائها في أن يرتكب الترك
ما ارتكبه مرة ثانية في بغداد .

ويجب عليكم يا أهل بغداد يامن جئنا نحميكم من الظلم والغزو ونضمن حرية تجارتكم ، ويامن ستناولن ما يستوجب أنق اهتمام الحكومة البريطانية أن تعلموا أن هذه الحكومة لن تفرض عليكم أنظمة أجنبية عنكم فأمنيتها الوحيدة أن تحقق ما تطمح إليه نفوس فلاسفتكم وكتابكم مرة أخرى ، ولسوف يسعد أهالي بغداد ويتمتعون بالغنى المادى والأدبى بفضل نظمات توافق قوانينهم المقدسة وأطماعهم القومية ، لقد طرد العرب فى الحجاز الترك والألمان الذين بغوا عليهم ونادوا بعظمة الشريف حسين ملكا عليهم . وعظمته يحكم مستقلا حراً وهو متحالف مع الأمم التى تحارب دولتى تركيا وألمانيا وهذا شأن أشرف العرب وأمراء نجد والكويت وعسير . لقد ذهب كثيرون من أشرف العرب ضحية فى سبيل الحرية على أيدى أولئك الحكام الغرباء الذين ظلموهم وانكثرة وحلفاؤها مصممون على ألا تذهب دماء هؤلاء الأبطال هدرا ، وأمنية انكثرة وحلفاؤها أن تسمو الأمة العربية مرة أخرى . وتستعيد عظمتها ومجدها ، وأن تعمل لإدراك هذه الأمنية متحدة مثقفة .

يا أهل بغداد تذكروا أنكم تألتم ٢٦ جيلا إذاكم الظلمة والغرباء الذين سعوا دائماً إلى الإيقاع بين البيت ورب البيت كي يستفيدوا من شقاقكم فهذه السياسة مكروهة عند بريطانيا وحلفائها لأنها إغراء بالعداوة ولا يستقيم معها حال ولا يستقر معها سلام وأنا مأمور بأن أدعوكم بواسطة أشرافكم وشيوخكم الطاعنين فى السن وممثليكم إلى الاشتراك فى إدارة مصالحكم الملكية لمعاوضة ممثلى بريطانيا السياسيين المرافقين للجيش كما تنضمون إلى ذوى رحمكم شمالاً وشرقاً وجنوباً وغرباً فى تحقيق أطماعكم القومية .

صدر من مركز رئاسة الجيش البريطانى ببغداد فى ٢٤ جمادى الأولى .

سنة ١٣٣٥ الموافق ١٩ مارس سنة ١٩١٧ .

ظل الإنجليز رغم وعودهم يديرون الحكم في العراق بأيديهم والبلاد تنتظر حكماً وطنياً مستقلاً حراً في أعماله وإدارة شئون بلاده حتى أعلن الانتداب على العراق في مؤتمر سان ريمو وتم تأييده في مؤتمر سيفر. فهاج العراق من أقصاه إلى أقصاه وأذاعت جمعية العهد (التي ألفها الضباط العرب في الجيش العثماني قبل الحرب والتي كان جل أعضائها من الضباط العراقيين) بياناً نددت فيه بهذه المقررات ودعت العراق إلى مقابلة هذا العمل بالقوة وكانت قد أنشئت جمعية سرية عرفت باسم جمعية حرس الاستقلال في تشرين الثاني من عام ١٩١٩ غايتها استقلال العراق استقلالاً تاماً دون الحاجة إلى مساعدة بريطانيا ثم تم الاتفاق بين جمعيتي العهد والحرس وتشكلت منهما لجنة مشتركة لتوحيد الجهود. وكان العراق يتأجج ويتأهب فالتهمت الثورة في كل مكان من العراق ووقعت الحوادث الدموية التي أبانت عن قوة الثورة وخسر الإنجليز فيها خسائر فادحة. فرجعوا إلى الصواب وبدءوا يفسكرون في تأليف حكومة وطنية تدير البلاد باستشارة البريطانيين ومهدت بريطانيا لذلك لإقامة حكم ملكي دستوري. وكانت نتيجة مؤتمر القاهرة الذي دعا إليه تشرشل في مارس ١٩٢١ دعوة الأمير فيصل إلى العراق وأجرى استفتاء شعبي نال به الأمير ما يكاد أن يكون اجماعاً فقد كانت النتيجة بجانبه بنسبة (٩٧٪) وفي ٢٣ أغسطس من عام ١٩٢١ توج فيصل ملكاً على العراق فبدأ العراق حياة جديدة في اضطراع بين الأمان الوطني ومطالب الإنجليز. وفي رغبة الملك والشعب في تحديد الصلة بين العراق وبريطانيا وضعت نصوص معاهدة تم عقدها في ١٠ تشرين الأول من عام ١٩٢٢ على أن يتم تنفيذها بعد مصادقة المجلس التأسيسي عليها، وقد حددت هذه المعاهدة صلة العراق ببريطانيا في قبول استشارة الانكليز في الأمور المالية والخارجية وألحقت بها اتفاقات قضائية وعسكرية ومالية والغرض منها تأمين مكانة

الإنجليز في البلاد . وعورضت هذه المعاهدة ممارسة شديدة لما فيها من المخالفة لسيادة البلاد . ولكن المجلس التأسيسي صادق عليها طمعا في وضع حد للانتداب وتمشياً مع سياسة خذ واعط . ثم انصرف المجلس التأسيسي لوضع دستور البلاد على أسس ديمقراطية سليمة وضحت فيه حقوق الشعب والمالك وجرت فيه تعديلات أخرى أهمها أنه أصبح للمالك حق إقالة الوزارة بعد أن كانت تبقى في الحكم ما دامت متمتعة بثقة الأكثرية . بعد استقرار البلاد الدستوري بدأت صلات العراق تتحدد في كل فرصة بينه وبين بريطانيا حتى كانت معاهدة ١٩٣٠ التي ارتكزت على أساس أن بريطانيا ترشح العراق للدخول في عصبة الأمم في عام ١٩٣٢ دولة مستقلة ذات سيادة . وتقوم بمحالفة بين البلدين تستمر خمسة وعشرين عاماً ، تسوى فيها مصالح الطرفين بطريق التشاور وتبادل الرأي ، وأن تتخلى بريطانيا عن جميع المسؤوليات الملقاة على عاتق الدولة المنتدبة وتنتقل المسؤوليات إلى ذلك العراق . وفرضت المعاهدة مساعدات متبادلة من الطرفين قوبلت بمعارضة شديدة في البلاد ومع كل هذه المعارضة صودق عليها .

أصبح العراق يمارس حكم الوطني المستقل بعد أن دخل عصبة الأمم عام ١٩٣٢ وزال عنه الانتداب وهو في سبيل التخلص من هذه المعاهدة بعد انتهاء مدتها ، إذ أصبح مدفوعاً لا وجود له بعد أن أصبح العراق عضواً في هيئة الأمم المتحدة . ومشى العراق شوطاً واسعاً في ميدان الثقافة والعمران وقد وضع الخطط لإنجاز مشروعات ضخمة اقتصادية واجتماعية وبدأ في تنفيذها فعلاً .

شرق الأردن

كان اتفاق سايكس — بيكو مزق البلاد العربية شر ممزق وكانت فلسطين شلوأ من هذه الأشلاء التي كان يجب أن تكون دولية ، أي توضع

تحت إدارة دولية ، ولكن اليهود سعوا سعيًا حثيثاً لإبطال هذا النص وتم وضعها تحت الانتداب الإنجليزى ليتموا الصفقة ، وكانت أراضى شرق الأردن بعيدة عن هذا التدويل ، وبعيدة فى نظر الإنجليز أن تكون تحت انتداب الفرنسيين ، فلما حل بها الأمير عبد الله كى يثار لفصل من فرنسا انبطت فسكرة وضعها فى مؤتمر القاهرة الذى دعا إليه تشرشل فى شهر مارس من عام ١٩٢١ وتم تكوين الإمارة على أن يكون عبد الله أميراً عليها وأن تعينه بريطانيا بنفقات هذه الإمارة الصغيرة ، ومشيت تتقدم حتى أعلنت الملكية وبويع عبد الله ملكاً عليها . لم يشمل وعد بلفور هذه المنطقة العربية فظلت بعيدة عن أخطبوطه فلما نفذ الإنجليز والصهيونيون خططهم فى إقامة إسرائيل أضيف إليها القسم العربى الذى قضى به التقسيم فازدادت هذه المملكة الصغيرة اتساعاً ولا تزال تصطرع مع هذه الدولة النابطة على حدودها وحدود البلاد العربية الأخرى ولا يزال الاضطراع قائماً والعرب الذين تركوا ديارهم لا يزالون مشردين بالعراء يفتك بهم أعداء الإنسانية الجوع والمرض والجهل وضمير أوربا وأمريكا جامد لا يتحرك .

بعض الحركات الاستقلالية والثورات

صارعت فلسطين صراعاً عنيفاً أمام ذهب اليهود وكيدهم وسياسة المستعمر وقوى الغرب التى عباؤها إسرائيل ، وكانت هذه الثورات تهدأ بمائدة مستديرة تعقد بين الطرفين ، ولجان تؤلف لتحقيق هذه القضايا ، وخطط ومشروعات توضع ، ولكنها كانت كلها مخدراً حتى إذا حل وقت انتهاء الانتداب كان اليهود على استعداد تام لاستلام أقسامهم التى وضعت فى الخطط المرسومة ، ووقفت الجيوش العربية تنظر إلى هذا البلد تستقطع دياره داراً بعد دار ، والأسر العربية أتراكض من الذعر

والخوف والفرع الذي القاه اليه رد في قلوبهم حتى خرجوا من ديارهم إلى العراء وهكذا نبئت مأساة لا تزال فصولها يرفع عنها الستار فصلا بعد فصل .

سوريا ولبنان

لم تهدأ سوريا منذ أن نزلت جيوش فرنسا في سواحلها وزحفت على مدنها تتغلغل في البلاد حتى وقعت واقعة ميسلون وقضى على حكومة الملك فيصل . ظلت هذه الواقعة العادرة تنردد في سمع العالم العربي وفي قلوب أبناء البلاد حتى تأرت سوريا لنفسها في ثورتها الكبرى عامى ١٩٢٥ - ١٩٢٦ . ووقفت البلاد السورية يعصدها العالم العربي وقفه مشرفة في وجه الظلم ، فان الفرنسيين أخذوا في تنفيذ خططهم لقتل الروح الوطنية وإفقار البلاد وبث التفرقة بين أبناء البلد الواحد وإيجاد الشحناء وتخويف البلاد من جيرانها وتنازلها عن لواء الاسكندرونة الذى يعتبر جزءاً من البلاد لتركيا وكم مرة خربت مدينة دمشق بالمدافع والطائرات وهجمت البيوت على العجزة والنساء والأطفال وما كانوا يظهرونه من المسايرة للوطنيين كان ستاراً ينفذون وراءه خططهم وظلوا على هذه الحال فى صراع مستمر وتفكير وتجويع وإعانة على إبقاء الجهل ومحاربة التعليم حتى وقعت الحرب العالمية الثانية التى انهارت بها هذه الدولة المستعمرة .

وبالرغم من انهيارها أخذت قواتها تحاول القضاء على كل فكرة تدعو إلى تحرير البلاد وشتت غارة شعواء على دمشق تسندها الطائرات والدبابات وقذابل المدافع الثقيلة تتساقط على الدور والشوارع . وتدخلت الحكومة البريطانية فى الأمر وأيدتها أمريكا ، وقامت البلاد العربية وقعدت لهذه المأساة وكان دور الجامعة العربية دوراً مهماً فكان

من نتيجة ذلك كله إيقاف نيران الفرنسيين وإجبارهم على الجلاء عن البلاد وقد تم الجلاء عن سوريا في يوم ١٥ نيسان واحتفل به واعتبر عيداً قومياً في يوم ١٧ نيسان من عام ١٩٤٦ كما تم الجلاء عن لبنان في العام نفسه في ٣١ من شهر كانون الأول واعتبر هذا اليوم أيضاً عيداً قومياً .

مصر

لمصر الحظ الأكبر في اليقظة الفكرية والسياسية في مفتح القرن التاسع عشر ، لقد حفظ الأزهر تراث العرب والإسلام فكان مصدر غذاء لهذه اليقظة أعان مصر على أن تتبوأ مكانة مرموقة في العالم العربي ، فإن البعث التي أرسلت إلى أوربا أيام محمد علي باشا كانت كلها من هذا الجامع فلما أتمت دراستها عادت تحمل ثقافة الغرب إلى جانب الثقافة الإسلامية فبدأت نهضة عربية أدبية وعلمية كان لها أكبر الأثر في حركات الشرق العربي والإسلامي . زد على ذلك فإن مصر صارت مابجاً الأحرار من العرب يبشون آراءهم في محافلها وصحفها ومنها يندشرون للعالم ما يريدون ، ولكن مصر هذه منيت كما منيت كل دولة عربية في هذا الشرق العربي باعتداء عنيف فقد نزلت جيوش بريطانيا في الاسكندرية عام ١٨٨٢ فكان بدء صراع بين قوة تحاول إخمد كل حركة فكرية وصناعية وهي قوة المستعمر وبين قوة تريد أن تنهض وتتحرر وهي قوة أهل البلاد وقد انبعث في هذا الوادي أحرار قارعوا الظلم وأيقظوا الأمة منهم أحمد عرابي في الجيش ، وجمال الدين ومحمد عبده في السياسة والاجتماع ومصطفى كامل وسعد زغلول ومصطفى النحاس في السياسة وكل هؤلاء كانوا حرباً على هذا الاحتلال الذي لم يجد له العالم الحر معنى في قاموس حقوق الإنسان .

احتلت بريطانيا مصر من عام ١٨٨٢ وظلت تتصرف كيفما تشاء إلى أن أعلنت الحرب العالمية الأولى فأعلنت بريطانيا حمايتها على مصر في ١٨ كانون الأول عام ١٩١٤ وقطعت بهذا الإعلان صلة مصر بالدولة العثمانية وخلعت الخديوى وأقامت آخر مقامه أعطته لقب « السلطان » كان الحكم الفعلي في مصر المندوب السامى وكانت هذه الحالة لا ترضى أحرار المصريين . لقد لعب الحزب الوطنى الذى ألفه مصطفى كامل دوراً مهماً فى إيقاظ النفوس وإسماع صوت مصر للعالم نائراً على هذا الاعتداء وقد لان الإنجليز فى بعض الأحيان وأعطوا شيئاً من الحقوق لمصر ولكنهم منح القوى الجبار غليظ القلب إلى الأعزل صاحب الحق ، فلما وضعت الحرب أوزارها وهدأت أعصاب الأمم المتوترة فتحت مصر عينيها على وضع غير طبيعى ، فإن مبادئه واسن قد ملأت سمع العالم وأن أسباب الحرية والدولة كاملة متوفرة فى مصر فلماذا لا تستقل ولماذا يبقى هذا الوضع ؟

برز سعد زغلول للوجود فألف وفداً باسم الشعب المصرى وذهب إلى المندوب السامى يبلغه مطالب مصر وأمانها فكانت نقطة بدء لصراع عنيف . انتهت باعتقال سعد وعدد كبير من إخوانه الأحرار وأرسلتهم إلى مالطة فى ٨ مارس من عام ١٩١٩ فثارت البلاد من أقصاها ، واضطرت إنجلترا إلى تصريح ٢٨ شباط عام ١٩٢٢ وفيه إلغاء الحماية واعتبار مصر دولة مستقلة ذات سيادة واتخذ سلطان مصر لنفسه لقب الملك وأعلن دستور المملكة فى ١٩ نيسان ١٩٢٣ ورغم هذا الوضع الواضح فإن بريطانيا جاءت فى صدر القناة تتدخل فى شئون مصر تدخلا لم يرض الأحرار ، وظل الصراع مستمراً فى طلب الجلاء عن مصر والسودان وهو طلب لا شك فى عدالته ، كانت تنشأ مفاوضات بين

مصر وبريطانيا ، وكانت هذه المناوضات شبه مادة مخدرة تفشاً ثورات الوطنيين ولكن إلى حين .

فكم مرة وعدت بريطانيا فأخلفت ، وكم فاوضت فراوغت ، ومصر صابرة مثابرة إلى أن عقدت بينهما معاهدة ١٩٣٦ حددت فيها العلاقات بين مصر وبريطانيا على أن تستقر عشرين عاماً ، وفيها ألغيت الامتيازات الأجنبية التي كلفت مصر جهداً وخلقاً ، فقد استغلها الأجانب استغلالاً فظيماً خارجاً على حدود الإنسانية ، وفي هذه المعاهدة الاعتراف بسيادة مصر ، وإنهاء الاحتلال العسكرى ، وهذه المعاهدة على مكاتنها لم تجد فيها بريطانيا إلا حبراً على ورق عندما تريد أن تملى إرادتها فيما يهم مصالح الإمبراطورية ، ورغم من إلغاء مصر لها فإن بريطانيا لا تزال متمسكة بها ، وقد زالت الملكية من مصر وأعلن النظام الجمهورى ، ولا تزال المفاوضات مستمرة متقطعة ، للخلاص من هذا الاحتلال الجائم على صدر القناة ، إن مصر دولة مكتملة بكل معانى الاكتمال لدولة فى القرن العشرين ، تقدمت شوطاً عظيماً فى الحضارة والثقافة وهى البلد العربى الوحيد الذى يملك ثلاث جامعات وفى سبيل إنشاء جامعة رابعة ، عدا المعاهد العلمية العالية ، ودوائر البحوث ومختبرات التجارب ، ولها وضعها الاقتصادى المنتظم ومكانة دولية مرموقة وعدد من السكان يجعلها فى عداد الدول الكبيرة .

شبه الجزيرة العربية

وفى شبه الجزيرة العربية استقر الملك لابن سعود فى ضم الحجاز وعسير إلى سلطنته فأعلن النظام الملكى وتسمت مملكته باسم المملكة العربية السعودية ، ونبتت آبار البترول فى ديار نجد فاستطاع أن يدخل

أساليب الحضارة بصورة واسعة ، ويدشر الثقافة بصورة أوسع ، ويعنى في إيجاد جيش مدرب ، ويحضر البدو ويجعل للملكة نظاماً مستقراً على أسس المركزية فهو يعين الولاة وهو الذى يوجههم فى أعمالهم ويسير فى حكمه هلى أسس الشريعة الإسلامية والقرآن الكريم ، فالأمن منتشر فى البلاد والجرائم قلما يسمع عنها ، وفى هذا السير الحثيث فى المعارف وإدخال وسائل المدنية والحضارة أصبحت المملكة العربية السعودية تتطلع إلى مستقبل يكون لها فيه شأن .

والمملكة اليمنية المتوكلية قد خرجت عن عزلتها وأصبحت تبعث البعث للدراسة فى الشرق والغرب وتعنى بدشر الثقافة وإدخال أساليب الحضارة ، ولكنها لا تزال فى صراع دائم بينها وبين المستعمر ، على أن هذا الصراع يلقى فى كل يوم دروساً على اليمن للأسراع فى استكمال العدة والعدد وتهيئة أجيال قادرة على رد العدوان واسترجاع ما اقتطع منها إلى حضيرة البلاد .

جامعة الدول العربية

هى أمنية كانت تتردد على فم كل من يشعر بحق هذه البلاد فى الوجود ، ويقرأ أجداد آبائه الأولين ويلجح فيها مواطن العزة والقوة والتكوين ، ثم يرى كيف أصبحت الأمم تطمع فى طمس معالم هذه الأجداد والاستيلاء على موارد الرزق ومصادرها فى بلاده ، ذلك للانفراد الذى بعثته ظروف الماضى وتركته يتقوى من حيث يضعف ، فالفردية القوية فى نفسها أضعاف المجموعة . كان شعور أبناء هذه البلاد يزداد يوماً بعد يوم ويقوى فى إيجاد رابطة فيها معنى القوة وفيها معنى العزة التى تحافظ على كرامة الحرية ، الصحف تذشر ، والخطيب يخطب ، والمؤلف يؤلف ، وإنك لا تمر فى بحث يتناول قضايا الشرق العربى إلا تعرض

للوحدة والاتحاد ، لما في ذلك من خلاص هذه البلاد من أطماع الطامعين
وأخطبوط المستعمرين .

إن التفكير في تكوين جامعة الدول العربية وحده فيه إجابة هذه
الرغبة فكيف بها إذا التأمّت وبدأت أعمالها ، لقد أثبتت الحروب
الحديثة أن أية أمة من الأمم لا تستطيع وحدها أن تقوم بحرب لاسترداد
حق ، أو دفاع عن حق ودفع لباطل ، وقد يسرى هذا الرأي على
مشروعات السلم .

إن تأريخ الحروب الحديثة شاهد عدل على تكوين مجموعات متباينة
الأجناس موحدة المصالح تترابط فيما بينها ، وتتفاهم على هدف معين
بصوت مصالحها مجتمعة ، فكيف بدول الجامعة ؟

إن لهذه البلاد تأريخاً تلتقي فيها أجيالها ، ولها ثقافة تكاد تكون
موحدة ، ولها روابط جغرافية ومصالح اقتصادية ، ولغة واحدة ووشائج
اجتماعية تميزها عن بقية الأمم مما يسهل عليها الألفة والاجتماع ، زد على
ذلك رابطة الدم والعقيدة ، لجامعة الدول العربية تكاد تكون في مجموعها
لها مقومات الدولة الواحدة ، ولم لا ؟ ألم تكن هذه الدول في يوم من
الأيام مجتمعة يظلمها علم واحد وجيش واحد ومالية واحدة ؟ أفليس من
السهل عليها أن توحد جهودها لخير الإنسانية ولصالح بلادها ؟ إن في هذه
الجامعة من عناصر قوى الاجتماع والسياسة ما لم يتوفر في أية مجموعة
إقليمية أخرى ، ولو استطيع التوسع لحذفت هذه الصفة « صفة المجموعة
الإقليمية » ولأطلقت عليها ما هو أكثر دلالة على وحدة لا تفصم عراها .
لقد تحقق إذن شطر عظيم من هذه الرغبة التي كان يفيض بها شعور
كل مخلص لهذه البلاد ، ووجدت الأمم الأجنبية في تكوينها خيراً عظيماً
للإنسانية والسلم العالمي ، إنني واثق جد الثقة أنه كلما تقدمت هذه الجامعة
من ذروة القوة قوى الأمل باستمرار السلم في هذا الشرق وانصرفت

عنه مطامع الدول الجشعة المتطاحنة على الأسواق والمواد الأولية والنقاط الاستراتيجية . فالدول العربية مجتمعة تستطيع أن تحافظ على التوازن الدولي ، وتستطيع أن تولى سياسة مثلى على العالم .

وموجز القول : إن القصد من تكوين الجامعة قصد شريف ، ويهدف هذا القصد : في حفظ السلام في الشرق الأدنى ، ورعاية مصالح هذه الدول المؤلفة منها الجامعة ، ثم حفظ التوازن الدولي .

إن تكوين الجامعة دليل على صحة يقظة العرب ونضوج هذه اليقظة ، وكلما اتسع أفق في هذه الناحية اشتد الترابط وتقاربت الآراء وتوحدت الجهود .

بدأت فكرة الجامعة مضربة في أذهان الناس وأمنية يطمنونها ، ثم ما لبثت أن اتضحت خطوطها وبانت معالمها .

فقد دعت الحكومة المصرية في منتصف أغسطس عام ١٩٤٣ كلا من سوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية والعراق واليمن وشرق الأردن إلى إيفاد مندوبين عنها لتبادل الآراء في موضوع الوحدة العربية فكانت هذه أول خطوة في وضع أسس الجامعة وما زال البحث مستمراً حتى تم وضع الميثاق واجتمع المؤتمر العربي العام بقصر الزعفران بالقاهرة يوم الخميس ٨ ربيع الثاني في عام ١٣٦٤ الموافق ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ في الساعة الرابعة بعد الظهر برئاسة محمود فهمي باشا النقراشي رئيس وزراء المملكة المصرية ووقع مندوبو الوفود العربية ما عدا ممثلو المملكة العربية السعودية والمملكة اليمنية ميثاق جامعة الدول العربية وبذلك تم ميلاد قوة لهذا الشرق يحسب لها حسابها . ثم ما لبث الأمر حتى وقعت جميع الدول العربية وصار من المقرر أن يكون ٢٢ مارس من كل عام عيد ميلاد الجامعة .

وقد نص الميثاق على أنه لسكل دولة عربية مستقلة حق الانضمام للجامعة وحق الانسحاب ، وهذا الحق الأخير مقيد بشرط أن تخبر الدولة المنسحبة مجلس الجامعة قبل ذلك بسنة .

أما أهداف الجامعة فقد أوجزتها المادة الثانية من الميثاق وهي :

الغرض من الجامعة توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها وتنسيق خططها السياسية تحقيقاً للتعاون بينها وصيانة لاستقلالها وسيادتها والنظر بصفة عامة في شؤون البلاد العربية ومصالحها .

ومن أغراضها تعاون الدول المشتركة فيها تعاوناً وثيقاً بحسب نظم كل منها وأحوالها في الشؤون الآتية :

(أ) الشؤون الاقتصادية والمالية ويدخل في ذلك التبادل التجاري والجمارك والعملية وأمور الزراعة والصناعة .

(ب) شؤون المواصلات ، ويدخل في ذلك السكك الحديدية والطرق والطيران والبرق والبريد .

(ح) شؤون الثقافة .

(د) شؤون الجنسية والجوازات والتأشيرات وتنفيذ الأحكام وتسليم المجرمين .

(هـ) الشؤون الاجتماعية .

(و) الشؤون الصحية .

ولا ريب في أن الجامعة العربية قطعت شوطاً في البحوث الثقافية وتقارب المناهج وتوحيد الثقافة ، كما فعلت في حقل الشؤون الاجتماعية بما تقيمه من الحلقات الدراسية في هذه الناحية . ومست شوطاً واسعاً في القضايا السياسية ولكن العرب يأملون منها أكثر وسوف يأتي

اليوم الذى يمكن لهذه المؤسسة أن تحدد مكانة الشرق الأوسط في الصراع الدولى .

إن العالم العربى الذى يمتد في سلسلة طرفها الغربى يشرف على سواحل المحيط الأطلنطى ثم تمتد مارة بالشواطىء الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط فتشرف على البحر الأحمر والمحيط الهندى فى الشرق فتضم بين خدماتها شمال أفريقيا ومصر وبلاد الشام (سوريا ، فلسطين ، لبنان) والعراق وقلب الجزيرة ، تكون قوة هائلة تستطيع أن تتحكم فى التوازن الدولى . إن لها من أمجادها وما أثرها ما يمكن أن يكون معيناً لا ينضب تستمد منه قوة تضمها إلى ما تكتسبه فى يقظتها هذه فتكون من مجموع ذلك كله مادة ممتازة تقدمها للإنسانية والحضارة .

ثبت المصادر العربية

وفيها ما نشره المستشرقون وعلقوا عليه

- الطبري : طبع أوربا من سنة ١٨٧٩ إلى ١٩٠١
نولدكه : تاريخ الفرس والعرب في أيام الساسانيين مأخوذاً عن
تاريخ الطبري ليدن ١٨٧٩
اليعقوبي : طبع أوربا ١٨٨٣
ابن الأثير : « الكامل » طبع القاهرة ١٣٠٣
ابن خلدون : « العبر » طبع بولاق ١٢٨٤
ابن خلدون : « المقدمة » طبع القاهرة ، وطبعة باريس ١٨٥٨
ابن القفطي : « تاريخ الحكماء » طبع أوربا ١٩٠٣
المقريزي : « الخطط » طبع القاهرة ١٢٧٠
ابن دريد : كتاب الاشتقاق طبع أوربا ١٨٥٤
البيروني : « تاريخ الشعوب الشرقية » طبع أوربا ١٨٧٨
البلاذري : « فتوح البلدان » طبع أوربا ١٨٦٦
البلاذري : « أنساب الأشراف » ١٩٣٦ ، ١٩٢٨
ابن الطقطقي : « الفخرى » القاهرة ١٣٤٥
أبو الفداء : القاهرة ١٩٢٥
المسعودي : طبع باريس ١٨٦١ — ١٨٧٧
ابن النديم : « الفهرست » طبع لايبك ١٨٧١ — ١٨٧٢
ابن هشام : « السيرة » طبع أوربا ١٨٥٨ — ١٨٦٠
ابن سعد : « طبقات الصحابة » طبع أوربا ١٩٠٤
ابن فضلان : « رحلة » نشرها الأستاذ زكي الوليدى ١٩٣٩

- محمد كرد علي : « الإسلام والحضارة العربية » القاهرة ١٩٣٦
ابن مسكويه : « تجارب الأمم »
الرزواورى : « ذيل تجارب الأمم »
انجيلو جويدي : نشر كتاب « القاسم بن إبراهيم » المسمى : الرد على
اللعين الزنديق عبد الله بن المقفع عليه لعنة الله
برغشتراسر : الإسلام والمناوية — المجلة الإسلامية — تصدر
باللغة الألمانية ١٩٢٩
أبو الفرج الأصفهاني : « كتاب الأغاني » طبع بولاق ١٢٨٥ هـ
ياقوت : إرشاد الأريب « إلى معرفة الأديب » طبع ليدن
١٩٠٧ إلى ١٩٢٦
المسبرد : « الكامل » طبع أوربا ١٨٦٤ إلى ١٨٩٢
ابن عبد ربه : « العقد الفريد » طبع القاهرة ١٣٢١
محمود شكري الألوسى : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، بغداد ١٣١٤
محمد كرد علي : « رسائل البلغاء » القاهرة ١٩١٣
أبو العلاء المعري : « رسالة الغفران » القاهرة ١٩٠٣
المتنبى : « ديوان » طبع أوربا ١٨٦٠
أبو تمام : « الحماسة » طبع بولاق ١٢٩٦ هـ و طبع القاهرة ١٣٤٦
فردريش ريكتر : (ترجمة الحماسة إلى اللغة الألمانية) ١٨٤٦
باول شوارتز : (ديوان عمر بن أبي ربيعة) ١٩٠٢ — ١٩٠٩
هرشفيلد : « ديوان حسان بن ثابت » ١٩١٠
جورج يعقوبى : « دراسات في شعر الشنفرى » باللغة الألمانية ١٩١٤ ، ١٩١٥
ف. ا. أرنولد : « المعلقات السبعة » ١٨٥٠
نولدكه : « المعلقات الخمسة مترجمة ومشروحة » ١٨٩٩ — ١٩٠١

شارل جيمس لايل : شرح الشعر العربي القديم وشرح المعانيات السبعة

كلكتا ١٨٩٤

فردريش ريكرت : « امرؤ القيس الشاعر والمالك » ١٩٢٤

سالمون غاندر : « معلقة امرؤ القيس » اطوحه ١٩١٣

أبو العتاهية : « ديوان » بيروت ١٨٨٦

أبو نواس : « ديوان » القاهرة ١٢٧٧

ابن منظور : « أخبار أبي نواس » القاهرة ١٩٢٧

عبدالرحمن الكواكي : أم القرى المطبعة المصرية ١٩٣١

جمال الدين الأفغاني : خاطرات المطبعة العلمية بيروت ١٩٣١

عبدالرحمن الكواكي : طبائع الاستبداد

ابن تيمية : رسائل ابن تيمية الكبرى

ابن تيمية : السياسية الشرعية في إصلاح الراعي والرعية

جورجي زيدان : مشاهير الشرق

جمال الدين الأفغاني { العروة الوثقى المكتبة الأهلية بيروت ١٩٣٣
والشيخ محمد عبده

الشيخ محمد عبده : تفسير القرآن الكريم جزء عم ١٣٤١ القاهرة

أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ثلاث مجلدات .

عجاج نويمض : حاضر العالم الإسلامي مع تعليقات

الأمير شكيب أرسلان .

أسعد داغر : الثورة العربية الكبرى .

رشيد رضا : مجلة المنار .

أمين الريحاني : ملوك العرب .

محي الدين الخطيب : المؤتمر العربي الأول .

: ميشاق الدول العربية .

المصادر الغربية

Enzyklopaedie des Islam, Leiden 1913 ff.

C. Brockelmann. Geschichte der arabischen Literatur I 1898 Supplement dazu 1937.

W. Ahlwardt, Über Poesie und Poetik der Araber. Gotha 1856.

Chalef El-ahmar und Josef von Hammer, Greifswald 1820.

J. Wellhausen, Das arabische Reich und sein Sturz, Berlin 1602.

A. von Cremer, Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen, Wien 1875-1877.

Culturgeschichtliche Streifzüge auf dem Gebiete des Islams, Leipzig 1873.

Geschichte der herrschenden Ideen des Islams, Leipsig 1868.

A. Mez, Die Renaissance des Islams, Heidelberg 1922.

A. Muller, Der Islam im Morgen-und Abendland, Berlin 1885-1887.

I. Goldziher, Muhammedanische Studien, Halle a. S. 1889-1890.

Abhandlungen zur arabischen Philologie I und II, Leiden 1896 und 1899.

O. Rescher, Abriss der arabischen Literaturgeschichte I, Stuttgart 1925.

G. Van Vloten, Recherches sur la Domination arabe, le Chiitisme et les Croyances messianiques sous le Khalifat des Omayyades. Amsterdam 1894. (Arabische Übersetzung, Kairo 1934.)

G. Vajda, Les zindiqs en pays d'Islam au début de la période abbaside. Rivista degli Studi Orientali XVII, 174-229.

- Stuhlmann. Der Kampf um Arabien Berlin 1916.
E. Topf : die Staatenbildungen in der arabischen Teil der Türkei Hamburg 1929.
E. Jung : la Révolte arab. Paris 1925.
E. Nolde Reise nach innerarabien 1895.
G. Bell : the letters of Gertrude Bell 1924.
M. Hartmann : Reisebriefe aus Syrien Berlin 1913.
H. Rohde : der Kampf um Orient und Islam Stuttgart 1924.

النبأ

الإهداء	٣
المقدمة	٥
الفصل الأول	١١

العرب والفرس قبل الإسلام — العرب والفرس في صدر الإسلام —
المواقع الفاصلة بين العرب والفرس — موقعة القادسية — موقعة جاولاء
وموقعة نهاوند — اختلاط العناصر بعد هذا الفتح — أثر هذا الاختلاط
في التقاليد والمادات .

الفصل الثاني	٢١
--------------	----

المولى — تعريف المولى — مكانة المولى في عيون العرب .

الفصل الثالث	٣٠
--------------	----

مقاومة الموالى في عصر صدر الإسلام — اغتيال الخلفاء —
مقاومة الموالى في أيام بني أمية .

الفصل الرابع	٣٧
--------------	----

حركة الموالى في قيام الدولة العباسية — أبو مسلم — البرامكة —
البرامكة ورواية التاريخ والأدب ، والانتحال ووضع الكتب ، والترجمة
والنشر — رواة التاريخ ووضع الأخبار — أبو عبيدة « علان »
رواة الأدب ووضع الشعر — حماد الراوية — خلف الأحمر — المترجمون
أبان بن عبد الحميد اللاحق — الفضل بن سهل — واضعو الكتب عند
العرب — سهل بن هارون — سعيد البختكان ومحمد بن الليث بن الخطيب
نكبة البرامكة .

الفصل الخامس	٥٣
--------------	----

الموالى والإسلام — أتباع أبي مسلم وفرقة الخرمية — المقفع الخراساني
والرواندية — الباطنية والقرامطة — ابن المقفع ومعارضته القرآن —
الحلاج والحلول — حيدر بن كاووس الأتشي ومقاومة الإسلام .

الفصل السادس ٧٣

الموالى والشعر العربى — تمهيد فى الشعر الجاهلى — الشعر فى صدر
الإسلام وعصر بنى أمية — اتجاه الشعر فى صدر الدولة العباسية .
الماثوية والمزدكية فى شعر بشار بن برد وأبى نواس وأبى العباسية
وما تركه هؤلاء الشعراء الثلاث من أثر فى اتجاه الشعر العربى .

الفصل السابع ١٠٥

تطور حركة الموالى واتساع سلطانهم وانهميار البلاد — أسفار صهاويج
البويهيون — أمير الأمراء مع الدولة أحمد بن بويه — بختيار (عز الدولة)
وما آلت إليه الحالة فى أيامه -- عضد الدولة وأطباع البويهيين فى الخلافة
بهاء الدولة وخلع الطائع لله — انهميار بغداد .

الفصل الثامن ١٢١

المحاولة العربية — سيف الدولة — المتنبى — المزيديون — ابن تيمية
وتلامذته ، ابن عبد الوهاب ، جمال الدين الأصفهاني ، محمد عبده ، عبد الرحمن
السكواكى .

الفصل التاسع ١٧٤

اليقظة العربية الحديثة — هوامل اليقظة — محمد على — البعثات التبشيرية
— الأدباء والكتاب — المؤتمر العربى الأول — القبض على عزيز على
المصرى ونتائجه — العرب والآتراك عند اندلاع الحرب العالمية — العرب
والخلفاء — إعلان الثورة ومكانة العرب — عهد الخلفاء ، اتفاق سايكس-
بيكو ، وعد بلفور — اصطدام العرب بالخلفاء — إعلان الاستقلال ومبايعة
الملك فيصل وما ترتب على ذلك — الحرب بين فرنسا والعرب وخروج فيصل
من الشام — الانتداب على العراق ، مبايعة الملك فيصل وتوحيجه ملكا على
العراق — بعض الحركات الاستقلالية والثورات — سوريا ولبنان — مصر
شبه الجزيرة العربية — جامعة الدول العربية

ثبت المصادر العربية وفيها ما نشره المستشرقون وعلقوا عليه
المصادر الغربية